سلسلة أجمل الروايات العالمية



بائعة الخبز

تأليف
كزافييه دو مونتبان

إعداد وتحليل وتقديم
الدكتور رحاب عكاوي

دار الحرف العربي

منحة 2006

SIDA

السويد

بائعة الخبز

إسم الكتاب:
بائعة الخبز

تأليف:
كزافييه دو مونتبان

إعداد وتحليل وتقديم:
الدكتور رحاب عكاوي

الناشر:
دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع
زقاق البلاط - بناية فخر الدين
تلفون وفاكس: 009611/361045
بيروت - لبنان

الطبعة:
الأولى 2005

تصميم الغلاف:
فواد سليمان وهبي

الخطوط:
علي عاصي

الترقيم الدولي:
ISBN: 995344733-3
E-mail : dar_al_haref_alarabi@yahoo.com

سلسلة أجمل الروايات العالمية



تأليف
كزافييه دو مونتبان

إعداد وتحليل وتقديم
الدكتور رحاب عكاوي





الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م



ص.ب. ١١٣/٦٤٨٠
فاكس: ٠٩٦١١/٣٦١ ٤٥
بيروت - لبنان

Printed In Lebanon طبع في لبنان

كزافييه دومونتِپان

١٨٢٣ ـ ١٩٠٢

وُلد كزافييه في أپرمونت بهوتساون عام ١٨٢٣ ، وتوفي في باريس عام ١٩٠٢ : كاتب فرنسي ، ومؤلف روايات متسلسلة ومآسٍ شعبية ؛ نشر عام ١٨٦٢ حلقات مسلسل روائي جديد بعنوان «طبيب الفقراء» لاقت رواجاً منقطع النظير . نال شهرة واسعة كروائي شعبي إضافة إلى أنه كان مؤلّف رواية كانت الأكثر مبيعاً في القرن التاسع عشر «بائعة الخبز» صدرت عام ١٨٨٩ ، واقتُبست بالتوالي في المسرح والسينما والتلفزيون .

من أهم مؤلفاته :

- ◻ بائعة الخبز La porteuse de pain .
- ◻ فرسان لانسكونه Les chevaliers du Lansquenet .
- ◻ عربة جياد الرقم ١٣ Le Fiacre nº 13 .
- ◻ بنات المشعوذ Les filles du saltimbanque .
- ◻ فتيات الجبس les filles de plâtre .
- ◻ طبيب الفقراء Le médecin des pauvres .
- ◻ مقمرة السيدات Brelan de dames .
- ◻ سموّ الحبّ Son altesse l'amour .
- ◻ الأمير توتور Le prince Totor .
- ◻ كبريتيك الزاج le vitriol .
- ◻ الأخت سوزان Sœur Suzanne .
- ◻ جوهرة القصر الملكي La perle du Palais Royal .



كزافييه دومونتِپان

□ اعترافات مُتشرّد Confessions d'un bohême .
□ عميل الشرطة L'agent de police .
□ وردة في المزادات Une fleur aux enchères .
□ حورية البحر La sirène .
□ عيّاشة الماضي Les viveurs d'autrefois .
□ منتزه الظبيات Le parc aux biches .
□ تجارة الرقيق الأبيض La traite des blanches .
□ دمى السيدة لوديابل Les pantins de Madame Le Diable .
□ الآنسة ميلي Mamzelle Mélie .
□ بدايات نجمة Les débuts d'une étoile .
□ الوصية الحمراء Le testament rouge .
□ الصغيرة المحبّبة Mignonne - Marâtre .
الأم الشرسة ابنة المجنون La fille du fou
□ زواج لاسكار Le mariage de Lascars .
□ قراصنة نهر السين Les pirates de la Seine .
□ ساحرة الصفصاف La fée des saules .
□ الجائزة الكبرى Le gros lot .
□ المشنوق (مأساة) Le pendu (roman dramatique) .
□ ابن عائلة Un fils de famille .
□ العرّافة : فوبارون البيضاء La voyante: Blanche Vaubaron .
□ اقتناص الميداليات La chasse aux médailles .
□ آخر سلالة كورتناي Le dernier des Courtenay .

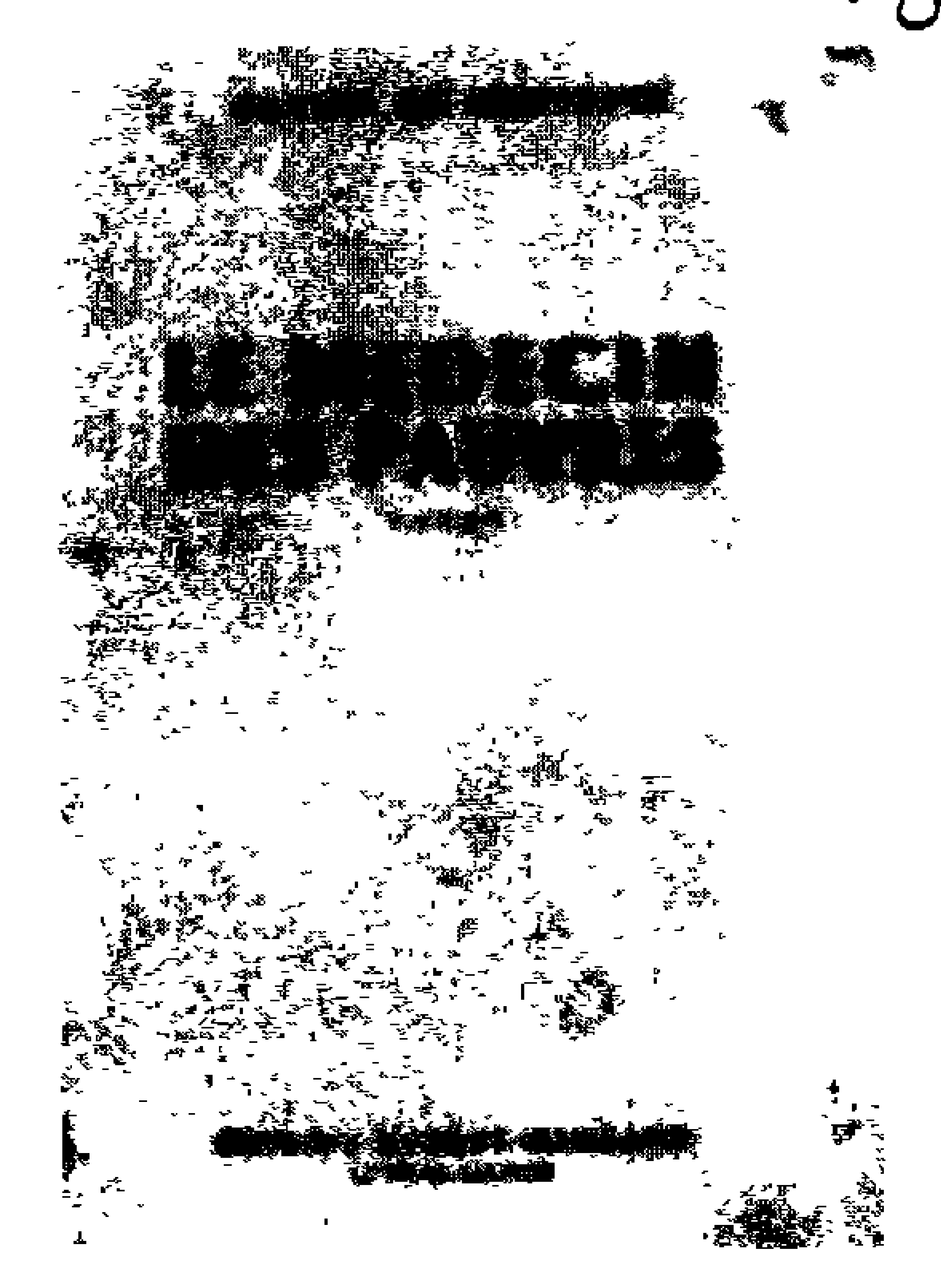
وتجدر الإشارة إلى أنَّ روايته «فتيات الجبس» أثارت فضيحة أُدين بسببها . وقد اقتبس عديدون رواياته مسرحيات ناجحة .

وقد برزت الرواية «المتسلسلة» مع بدايات تطوّر الصحافة في القرن التاسع عشر، وخصوصاً أنّ الغاية منها كانت المنفعة الماديّة لأصحاب الصحف الذين كانوا يودّون جذب جمهور كبير مخلص.

سمّيت بهذا الاسم لأنها كانت تظهر على حلقات في ذيل الصحيفة، حيث تشكّل رواية تاريخية أو قصة عادات وتقاليد.

وقد أصبح تطوّر الكتاب الشعبي شيئاً فشيئاً بالياً ومن الماضي. وفي جملة الروايات المتسلسلة يمكننا ذكر بلزاك، وجورج صَنْد، وبصورة خاصة أوجين سو (أسرار باريس، ١٨٤٢ - ١٨٤٣)، وألكسندر دوما (الكونت دو مونتي كريستو، ١٨٤٤)، وپول فيڤال (أسرار لندن)، وپونسون دو تيراي (روكامبول)، وزيڤاكو (پارِدليان)، وإميل غابوريو، وغاستون لورو، وموريس لوبلان، وغوستاف لوروج.

وإذا كانت الرواية التاريخية تحظى بحصة الأسد، فإن العرق العاطفي (دللي)، والمجرم والشرطي ستتطور جميعاً حتى الثلث الأول من القرن العشرين.



شخصيات الرواية

جان فورتييه : أرملة لها ولدان ، قُتل زوجها في أثناء أدائه عمله في مصنع ، عيّنها صاحب المصنع «بوابة» لتكسب قوتها وقوت ولديها .

جول لابرو : صاحب المصنع ، توفيت زوجته وتركت له طفلاً يدعى لوسيان .

جاك جارود : مدير مصنع لابرو ، كان صديق زوج جان ، وكان يعرض الزواج على جان بعد مقتل زوجها .

لوسي : ابنة جان ، كانت أمها قد أسلمتها إلى مرضع منذ طفولتها .

جورج : ابن جان ، عُرف باسم جورج دارييه (نسبة إلى عائلة المرأة التي ربّته صغيراً) .

بول هرمان : الاسم الذي انتحله جاك جارود ، وهو اسم عامل في المصنع كان توفي في المستشفى .

أوفيد سوليفر : ابن خالد بول هرمان المتوفّى .

ماري : ابنة بول هرمان (جاك) وحفيدة نيومي مورتيمر .

إيتيين : رسّام ، صديق الكاهن الذي كفل جورج فورتييه .

لوسيان : ابن جول لابرو .

فريمي : مرضع لوسي فورتييه .

أماندا : عاملة في مشغل الخياطة أوغستين .

أوغستين : صاحبة مشغل الخياطة الذي تعمل فيه لوسي .

ليزا بيرين : الاسم الذي انتحلته جان فورتييه بعد فرارها .

الكونت دي ريس : اسم انتحله أوفيد سوليفر

تجري أحداث الرواية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وهي الفترة التي برزت فيها الروايات الشعبية التي كانت تنشر على حلقات بهدف جذب أكبر عدد من قرّاء الصحيفة التي كانت تلحقها في ذيل كل عدد من أعدادها . وكانت «بائعة الخبز» الرواية الأكثر رواجاً من بين الروايات المعاصرة ، بحيث عرفت طريقها بعد إقبال القرّاء عليها إلى المسرح والسينما والتلفزيون .

جان فورتييه سيّدة لها حظ من الجمال قضى زوجها في أثناء قيامه بعمله في مصنع المهندس الميكانيكي جول لابرو ، ما اضطر جول إلى جعلها بوابة لمصنعه إكراماً لذكرى زوجها ومساعدة لها في تربية ولديها جورج ولوسي .

أوكلت جان أمر رعاية لوسي إلى مرضع كانت تجري عليها مبلغاً من المال في آخر كل شهر ، فيما راحت هي تعتني بالصغير جورج ابن السنين الثلاث .

أحبَّ جاك جارود ـ مدير المصنع ـ جان حبّاً جارفاً ، وطلب يدها بعد وفاة زوجها ، ولكنها رفضت وفاء لعهد قطعته على نفسها . وظن جاك أنّ المال هو العائق الذي يحول دون قبولها به زوجاً ، فأضمر في نفسه أن يحصل على ثروة كبيرة تجعلها تقبل الاقتران به .

يتوصّل صاحب المصنع إلى «اختراع» جديد يمكن أن يدرّ عليه مالاً وفيراً ، وفي خطوة منه لإنجاز هذا الاختراع يطلب إلى جاك جارود مساعدته في تطويره وإخراجه .

يجد جاك في هذا الاختراع الفرصة ـ الأمل التي كان ينتظرها ويمنّي النفس بها . ويصادف في الوقت نفسه أنّ جول صاحب المصنع يهدّد جان بالطرد لخطإ اقترفته في أثناء قيامها بحراسة باب المصنع .

استعدّ جاك لتنفيذ الخطّة التي رسمها وحدّد وقتها، وبعث برسالة إلى جان يفيدها فيها أنه سيثرى قريباً وأنه يطلب إليها موافاته في مكان حدّده لها ليتزوجا ويرحلا عن فرنسا، وتقرأ جان الرسالة ثم ترمي بها أرضاً وتقرّر عدم موافاته .

يضرب جاك ضربته فيسرق مال صاحب المصنع المودع في الخزانة، ويحرق المصنع، ويقتل جول ويفرّ هارباً .

تُتّهم جان بالجرائم الثلاث، بفعل تهديدها لصاحب المصنع الذي كان قرّر طردها، وتسجن فيما كان الناس يظنون أن جاك قضى ضحية شهامته في إنقاذ جول صاحب المصنع .

ينقطع المال عن مرضع لوسي بعد سجن جان، فتضطر المرضع إلى إيداع لوسي الملجأ، بينما يتولى رعاية جورج الصغير كاهن البلدة وأخته التي تعطيه اسم عائلتها بعد وفاتها .

يفرّ جاك جارود من فرنسا إلى أميركا متحلاً اسم عامل قضى في المستشفى، كان يعمل في مصنع لابرو اسمه بول هرمان،

وعلى متن السفينة التي أقلّته يتعرّف إلى أوفيد سوليفر (ابن خال بول هرمان المتوفّى) .

وعلى متن السفينة أيضاً يتعرّف جاك (بول هرمان المزعوم) إلى الأميركي مورتيمر وابنته . ومورتيمر ثري كبير وصاحب مصنع للصقل . وينتهي التعارف بزواج بول من ابنة مورتيمر وينعم بشراكة تجعله من أغنى الأغنياء .

وفي فرنسا تمضي جان عقوبة السجن المؤبّد ـ تتبعها لوثة جنون تُنسيها ماضيها ـ ويصبح ابنها جورج محامياً مشهوراً، بينما تصبح لوسي ابنتها خياطة في مشغل تملكه السيدة أوغستين .

تتعرّف لوسي إلى لوسيان لابرو ـ ابن الضحية ـ فيتحابان ويخططان لزواج سعيد .

ويفتتح جورج (داربيه) مكتب محاماة له في العاصمة باريس .

وتشاء المصادفة أن تعود جان إلى وعيها بعد سنين طويلة ، وتخطّط وتهرب في محاولة منها للبحث عن ولديها ، مؤمنة ببراءتها ، واثقة من أنَّ جاك (الضحية المفترضة من قبل الشرطة) هو مقترف الجرائم الثلاث ، وكانت قبل فرارها بُعيد الحادثة الفاجعة قد رأت جاك يقتل جول صاحب المصنع ، ولكن دون دليل يوثق زعمها ، وما كان الدليل إلاّ الرسالة التي بعث بها إليها قبل يوم من إحراق المصنع وقتل صاحبه .

مضت أحداث مؤلمة وتلتها أحداث مفاجئة :

لوسيان لابرو (ابن الضحية) يقع في حب لوسي (ابنة الجانية) وكل منهما لا يعرف الحقيقة .

جورج داربيه المحامي لا يعرف أن لوسي شقيقته ، وهو صاحب لوسيان خطيبها .

ويعود جاك جارود (بول هرمان) إلى فرنسا نزولاً عند رغبة ابنته المريضة ماري (بعد وفاة والدتها) . . وينشىء مصنعاً جديداً !

لم تجد جان ولديها فتعمل بائعة خبز منتحلة اسم ليزا بيرين .

وتتعرف بائعة الخبز على لوسي . . .

ويتعرف لوسيان لابرو إلى ماري هرمان (ابنة جاك) . .

وتبدأ الحقائق تتكشف . . . ومعها تتلاحق المفاجآت . .

ماري ابنة القاتل تقع في حب لوسيان (ابن القتيل) .

لوسي تحب لوسيان (ابنة القاتلة المفترضة تحب ابن القتيل) .

جان تصبح قريبة من لوسي ولا تعرف بعد أنها ابنتها .

وجورج يجتمع بجان (ليزا) دون أن يعرف أنها أمه .

وجاك (بول هرمان) يعرف أخيراً أن جان هربت من السجن .

وتتشابك الأحداث . . . ويبرز أوفيد سوليفر ابن خال جاك جارود (بول هرمان) كأداة لتصفية جان ولوسي . . !

فما هو مصير جان بعد أن قرّر جاك قتلها وقتل ابنتها لوسي . . الأولى كي لا تشي به ، والثانية بهدف إزاحتها من طريق ابنته ماري التي تحب لوسيان لابرو . .

ثُمَّ لماذا أوكل بول هرمان (جاك) إدارة مصنعه الجديد إلى ابن الرجل الذي كان ضحية غدره؟

كل هذه التساؤلات وما يستتبعها من مفاجآت ومواقف أليمة يتركها المؤلف كزافييه دو مونتيان إلى نهاية الرواية دون أن يشعر القارئ بقرب جلاء غوامض ما يجري .

فهل يفلح أوفيد سوليفر في القضاء على جان؟

هل تموت لوسي فيتاح لماري الزواج بلوسيان؟

وهل ينعم جاك (بول هرمان) بثرائه بعد القضاء على جان الشاهد الوحيد على جرائمه؟

وتبقى الرسالة التي قيل إنَّ النار التهمتها يوم إحراق المصنع . . فهل تظهر كدليل على براءة جان؟

*

شخصيات الرواية كما رسمها دو مونتبان تتنازعها عواطف شتّى ، هي عواطف إنسانية تنبض بالمشاعر والأحاسيس تستحضر الماضي سعياً وراء كشف الحقيقة التي تبقى غاية الإنسان :

فجان فورتييه تتنازعها عاطفة الأمومة والوفاء لذكرى زوج أحبّت والأمل في العثور على ولديها بعد سنين طويلة قضتها في البحث عنهما . بينما تتنازع جاك جارود سلطة المال وحبّ تملّك امرأة يهيم بها ، وهو حب دفع به إلى ارتكاب جريمة ثلاثية اضطر بسببها إلى إلصاق التهمة بالمرأة التي أحبّ . وحين تفتح الدنيا له ذراعيها يتملكه حزن الأب على ابنته الوحيدة المريضة ، والتي من أجل إسعادها سعى إلى الخلاص من الفتاة التي تنافسها في حب الشاب الذي رأت فيه فارس أحلامها . والواقع أن جاك هذا قضى على حياة المرأة التي أحبها ، وحاول بالتالي قتل ابنتها حباً بابنته .

إنّها حالة من المشاعر المتداخلة تتأرجح بين الموت والحياة ، الإخلاص والانتقام ، الحب والكراهية ، واليأس والأمل ، وهي تلك المشاعر التي راجت في روايات القرن التاسع عشر ، والتي حفلت بها صحف تلك الحقبة من الزمان .

القسم الأول

الحريق

\

ـ ١ ـ

كان ذلك في عام ١٨٦١ . . وفي يوم من أيام أيلول/ سبتمبر القارسة الباردة .

وفي الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم . . وفي شارع ألفورت في مدينة ألفورتفيل . . كانت امرأة تسير وعليها ثياب الحداد السوداء . . بسيطة الهندام ولكن في بساطتها أناقة لا تخطئها العين .

وكانت تبدو جميلة . . ولكنه جمال فيه من الحنان أضعاف ما فيه من الفتنة . . جمال تتجسد فيه الوداعة أكثر مما تبرز منه الرشاقة .

وكان شعرها الذهبي ينسدل على منكبيها في جدائل طويلة غزيرة . . وفوق جبينها الوضاء انعقدت خصلاته في حلقات ملتوية فاتنة .

ولكن على رغم هذا فإنك حين تتأمل عينيها الجميلتين تقرأ فيهما آية من آيات الحزن . . وفي ثنايا وجهها تشيع سحابة من الاكتئاب . . كأنّ بين الحنايا همّاً دفيناً .

وكانت تمسك بيدها اليمنى آنية من الزنك . . أمّا اليسرى فكانت آخذة بيد طفل في الثالثة من العمر .

في إثر الأم كان الطفل يسير بخطوات بطيئة متمهلة . . يجر خلفه جواداً مصنوعاً من الخشب والورق المقوّى .

وتعثّر الجواد وانقلب على جنبه .

وهتف الطفل بالأم يستمهلها ويستوقفها .

وكانت تلك هي المرة الرابعة أو الخامسة التي استمهل الطفل فيها أمه في خلال الدقائق القليلة الأخيرة .

وبصوت وديع تنبعث نبراته بالحنان قالت الأم :

ـ احمل جوادك يا عزيزي فإن الطريق أمامنا طويل شاق .

ـ نعم يا ماما .

وحمل الصغير حصانه الخشبي وسار إلى جوار أمه وهو يوسع الخطى على قدر طاقته .

وأخيراً . . حين انتهى بها الطريق إلى الدور القائمة عرجت على حانوت للبقالة . . فبرزت إلى استقبالها من إحدى الغرف الداخلية امرأة بدينة . . هي صاحبة الحانوت .

وقالت صاحبة الحانوت :

ـ أهذه أنت يا سيدة فورتييه ! طاب يومك ! أية خدمة أسدي إليك؟

ـ أريد زيت بترول من فضلك .

وبدت أمارات الدهش في وجه المرأة البدينة وهتفت :

ـ زيت بترول ! مرة أخرى؟ عجباً . . وما صنعت بما اشتريته بالأمس؟

فأجابت السيدة فورتييه :

ـ قلب ابني الإناء وهو يلعب فسال ما فيه .

ـ آه ! ذاك إذاً هو السر . . أي قدر تريدين؟

ـ أربعة لترات حتى أوفّر على نفسي مشقة التردد عليك يوماً بعد يوم .

وراحت المرأة تكيل زيت البترول . ثم ما لبثت أن قالت :

ـ ولكن ينبغي أن تحذري فالأمر ينطوي على خطر شديد . . أتعلمين أن انقلاب الآنية بما فيها من بترول قد يفضي إلى اشتعال النار في المصنع ! إن عوداً من الثقاب يُلقى في غير اكتراث كفيل بإحداث النكبة الداهمة !

ـ هذا صحيح . . ولقد عنّفت جورج وزجرته زجراً شديداً . . وإن كان المسكين قد أتى الأمر عن غير قصد أو تعمّد . . كان يجري فعثرت قدمه بالإناء . . ووعدني بألاّ يعود إلى مثلها أبداً .

ـ عساه إذاً يبرّ بما وعد . . وكيف حالك أنت؟ أراضية عن عملك الجديد يا سيدة فورتييه؟

فهزّت الأم كتفيها وقالت :

ـ ينبغي أن يرضيني على أية حال . . فما كنت لأجد في نكبتي هذه ما هو خير من ذلك .

ـ كيف؟ أما كان في وسعك أن تربحي من الحياكة أضعاف ما تتقاضينه الآن؟

ـ هذا صحيح . . ولكن كيف أحترف حياكة الثياب وليس لدي مال مدخر أبتاع به ما أحتاج إليه من آلات؟ إن تربية الطفلين تستنفد مالاً كثيراً .

ـ وأين صغيرتك لوسي الآن؟ أما زالت عند المرضع؟

ـ نعم . . في برجوني في جواني .

ـ لا ريب أنها تتقاضاك أجراً كبيراً؟

ـ ثلاثون فرنكاً في الشهر .

ثم ندت عن صدرها تنهدة عميقة فيها بؤس وشقاء . . وغمغمت :

ـ آه . . لشدّ ما أفتقد زوجي! لو أنه كان الآن على قيد الحياة لما أبهظتني هذه النفقات!

ـ صدقت يا سيدة فورتييه! وكيف كان يمكن أن تضيره النفقات الكبيرة وهو يربح في اليوم الواحد سبعة أو ثمانية فرنكات!

فهتفت الزوجة المنكوبة بمرارة:

ـ وكان أميناً عطوفاً . . وشجاعاً . . وكان يحبني! رباه! إن تلك الآلة التي انفجرت فقتلته إنما قتلت في الوقت ذاته هنائي وسعادتي.

ورفعت الزوجة المحزونة إلى وجهها يداً مرتعدة فمسحت دموعاً انحدرت من عينيها.

وقالت صاحبة الحانوت:

ـ لا ينبغي أن تسلمي نفسك إلى الأحزان يا ابنتي . . ففي هذه الدنيا نكبات تصغر نكبتك إلى جانبها! ومع ذلك يجب أن تحمدي الله على أن صاحب المصنع ترفّق بك وأسبغ عليك عطفه . . إذ يقال إنّ زوجك هو الذي تسبّب بإهماله في انفجار الآلة . . فهل هذا صحيح؟

ـ نعم . . صحيح واأسفاه!

ـ ومع ذلك فقد تولّى صاحب المصنع نفقات الدفن كلها . . ثم أقامك بوابة لمصنعه رغم علمه بأنها مهنة لا تصلح للنساء . . ولكنه أراد أن لا يتخلّى عن مساعدتك.

فغمغمت السيدة فورتييه بلهجة تنطوي على الأسى:

ـ هذا صحيح . . لقد كان السيد لابرو عطوفاً عليّ . . عطوفاً جداً . . إنهم يعزون إليه القسوة والصرامة . . ولكن سلوكه حيالي ينفي عنه هذه المزاعم . . ومع ذلك فلست أستطيع أن أنسى أن

زوجي قتل في مصنعه! إن هذا المصنع عندي نذير الشؤم والنكبات. ولولا أنني مسؤولة عن القيام بأود طفليّ لما قبلت هذا العمل الذي أتولاه الآن! ربّاه! ما أشق على نفسي أن أعيش في المكان الذي سُفك فيه دم زوجي! أية أعصاب يمكن أن تحتمل هذه الذكرى الموجعة المفجعة!

فقالت صاحبة الحانوت تسرّي عنها:

ـ تجلّدي يا ابنتي فما يجديك هذا الاستسلام للأحزان شيئاً! إن من الحماقة أن نعيش للأموات! إنك ما زلت في عنفوان الشباب.. ولك من الجمال حظ موفور.. وإن عاجلاً أو آجلاً ستلقين شاباً جميلاً يهيم بك ويسألك الزواج.. فاحذري أن تردّيه خائباً وإلاّ ارتكبت بذلك زلة لا تغتفر.

فهتفت المرأة:

ـ أتزوّج؟ محال! محال!

وكان في نبرات صوتها عزم وإصرار.

وابتسمت صاحبة الحانوت ابتسامة المرأة المجرّبة وقالت:

ـ هذا كلام لا يلبث أن يعفّي عليه الزمن! إن كرّ الأعوام كفيل بأن يغيّر من رأي الإنسان! ومَن كانت في مثل سنك خليقة أن لا تبقى مترملة مدى العمر.

ـ قد تكونين على صواب فيما تقولين.. وقد يكون لمن تتزوج أسباب قوية تدفعها إليه.. أمّا أنا فلديّ من الأسباب ما يصرفني عنه! على أني أتمنى شيئاً واحداً هو أن أظفر بألفين أو ثلاثة آلاف من الفرنكات!

ـ وما تصنعين بها؟

ـ ما أصنع بها؟ أوه! أشياء كثيرة لا يحيطها الحصر!

على أنها ما لبثت أن هزت كتفيها وأردفت بأسى :

ـ ومع ذلك فما جدوى التفكير في هذا الأمر؟ إنها أحلام ذاهبة في الهواء . . قُضي عليّ بالفقر . . ولا سبيل لي إلى الثراء! وسألزم المصنع ما استطعت حتى أربي طفليّ . . وإذا كان لي رجاء في المستقبل فمن أجل هذين الطفلين لا من أجل نفسي!

ـ تزوّدي بالأمل يا ابنتي . . فإنّ الأمل يفيض على المرء صبراً وشجاعة! هاك بترولك! وإذا أخذت بنصحي أودعته خزانةً بمجرد وصولك وأغلقتها بالمفتاح .

ـ اطمئني يا أماه . . سأتخذ الحيطة الواجبة . . فليس ثمة من هي أشد مني توجساً من النار .

وانصرفت الأم وطفلها يثب إلى جانبها وقد تأبط جواده الخشبي .

وتابعتها صاحبة الحانوت ببصرها برهة ثم غمغمت تخاطب نفسها :

ـ يا لها من امرأة نبيلة وشجاعة! ولا ريب عندي في أنها تفتقد زوجها كثيراً فإنها فيما أرى امرأة طموح جمة المطامع! ليت شعري لأية غاية تتمنى أن تنال هذه الثلاثة آلاف فرنك التي تحلم بها!؟

ثم تحولّت إلى مساعدتها مازيت . . وراحتا تقطعان الوقت بالتحدث في هذا الشأن .

كانت جان فورتييه قبل زواجها خياطة بارعة تكسب من إبرتها مالاً غير قليل .

وإذ بلغت الثانية والعشرين اقترنت برجل يدعى بيير فورتييه كان يعمل ميكانيكياً في مصنع السيد جول لابرو .

واتفق يوماً أن ارتكب بيير غلطة فنية كان من عواقبها أن انفجرت إحدى الآلات فقتلته لساعته .

ورثى صاحب المعمل للأرملة المسكينة .

كان يعلم أن لها طفلين تعولهما . . وأن لا مال لديها تنفق منه عليهما . . فأقامها بوابة لمصنعه برآ بها وتعويضاً لها عن مصرع زوجها .

وكانت جان ضجرة بهذا العمل . . لا يفتأ خيال زوجها يتراءى لعينيها !

في هذا المصنع سالت دماؤه . . .! فأية أعصاب يمكن أن تحتمل هذه الذكرى؟

ولكنها ارتضت هذا العمل وراضت نفسها على الصبر . . رحمة بولديها !

إنها لا تفكّر إلاّ فيهما . . ولا يطوف بصدرها رجاء إلاّ كانا مبعثه ومثاره . . وحين تمنّت الثلاثة آلاف فرنك إنما تمنّتها لكي تنشىء داراً لحياكة الثياب تضاعف منها دخلها . . لأجل طفليها !

وفجأة . . فيما هي تسير نهباً لهذه الخواطر سمعت صوتاً يناديها .

امتقع وجهها . . ولكنها تابعت سيرها دون أن تدير رأسها إلى صاحب هذا الصوت .

بل لقد اشتدّت في السير وجدّت مسرعة .

وعاد الصوت ينادي :

ـ سيدة فورتييه ! أما سمعتني ! إني ماض مثلك إلى المصنع فدعيني أحمل عنك هذا الإناء .

ولكنها تظاهرت بأنها لم تسمع شيئاً .

والتفت الطفل وراءه وهتف :

ـ أماه . . إنه صديقي جارود الذي أعطاني هذا الجواد .

وما كان لها مناص من التريّث .

ولحق بهما جارود .

مال إلى الطفل فقبّله ثم تحوّل إلى الأم يقول :

ـ لو رآك أحد تجدّين في السير يا سيدة فورتييه حين ناديتك لوقع في روعه أنك خائفة مني! إنك ما كدت تسمعينني أناديك حتى أسرعت في المسير . . فليت شعري هل أسأت إليك؟

فقالت تجيبه بشيء من الارتباك :

ـ إني ما أسرعت إلاّ لأبلغ المصنع عاجلاً . . وما سمعتك تناديني .

ولكنّ إنكارها لم يخدعه .

وعاد يقول :

أصحيح يا جان فورتييه أنك لم تسمعيني حين ناديتك؟

ـ طبعاً . . ما دمت أقول لك هذا!

فسكت هنيهة ثم عاد يقول :

ـ ليس خافياً عليّ يا جان أنك تتحاشين لقائي! إنك تعلمين أن لا شيء يسعدني كما يسعدني أن أتبادل الحديث معك!

فقالت المرأة بحزم :

ـ سيد جاك! أرجوك أن لا تعاود طرق هذا الحديث مرة أخرى . . إنه حديث يبعث في نفسي ألماً!

ـ وأنا يا جان! أحسبتني سعيداً هانئاً! ألا تعلمين أني أتعذب وأتألم أضعاف ما تتعذبين أنت وتتألمين! جفاؤك وصدك لي

وإعراضك عني . . كل هذا يهيج في قلبي ألماً لا يطاق ! إني أحبك يا جان . . بكل جوارحي ! إنّ قلبي لا ينبض إلاّ بحبك ! وأنت تعرفين هذا !

فقاطعته الأرملة بقولها :

ـ أرأيت إذاً أني كنت على حق حين أسرعت الخطى حتى لا أنصت إلى هذا الحديث !

ـ وكيف يسعني أن أسكت فؤادي وأخمد صوت الحب ! إني لا أفكر إلاّ فيك ! وأسعد ساعة في حياتي تلك التي أكون فيها إلى جوارك . . أنظر وأصغي إليك بلا انقطاع !

ـ وأنا أيضاً بلا انقطاع لا أفتأ أقول لك إنّ هذا الغرام حماقة وسخافة .

ـ حماقة ! ولم؟

ـ لأني لن أستطيع أن أحبك !

ـ أتظنين هذا؟

ـ إنه ليس مجرد ظن ! إنني موقنة ممّا أقول !

ـ أمّا أنا فإني موقن من النقيض ! ثمة أشياء مستحيلة في هذه الحياة لا يمكن أن تقع ! إنك في عنفوان الشباب . . ولك جمال يدير جميع الرؤوس . . فكيف تقضين بقية أيامك في الترمل . . منقطعة عن الناس موصدة بابك في وجه الحياة؟ وكيف يمكن أن تطيب لك هذه الوحدة . هيه؟ أجيبي !

ـ أرجو أن تكف عن هذا الحديث يا سيد جارود !

ـ ولِمَ أكف عنه؟

ـ ينبغي أن تتذكّر أنه لم تمض شهور خمسة على وفاة بيير . . وأنه كان صديقك !

ـ ومحال أن أنساه! ولكن أتحسبين أن حبي لك يدنس ذكراه! وكيف يكون هذا وما كاشفتك بحبي إلاّ بعد أن أصبحت حرة طليقة؟ أيكون تدنيساً لذكراه أن أقول لك: «يا جان.. إنّ ولديّ بيير سيكونان ولديّ..»؟ أيكون تدنيساً لذكراه أن أقول لك: «جان.. إني سأكفل لك ولولديه العيش الرغيد.»؟ إنّ دخلي في العام أكثر من خمسة آلاف فرنك.. وأنت امرأة مدبرة مقتصدة.. وفي رأسي مشاريع كثيرة! مشاريع رائعة! وفي وسعنا أنا وأنت أن نصبح من الأغنياء! وما يدريك أني قد أصبح يوماً ما صاحب مصنع وتحت إمرتي مئات العمال! إذ ذاك تصبحين زوجة سعيدة.. وأمّاً سعيدة! وإلى جانبك طفلان سعيدان.. والأمر بعد متوقف عليك! إني أحبك حتى الجنون فلا تنبذيني! إن الحب جبار لا يتراجع... فلا تدفعيني بإعراضك عنّي إلى ارتكاب الحماقات.

وأمسكت جان فجأة عن السير وراحت تنظر إليه.. ثم قالت بصوت أسبغ عليه الانفعال تهدّجاً ملحوظاً:

ـ أصغ إليّ يا جارود.. تلك هي المرة الرابعة أو الخامسة التي حدثتني فيها عن حبك.. وإني لأعلم أنك مخلص أمين..

فقاطعها جاك بحماسة:

ـ أقسم أني أحبك بمجامع قلبي.

ـ دعني أتم حديثي.. إني مقدّرة إخلاصك لي.. ومع ذلك فلا أستطيع الآن إلاّ أن ألقي إليك الجواب نفسه الذي ألقيته عليك في المرة الأولى وهو: لقد عزمت على أن أظل أرملة!.. وليس في نيتي أن أتزوج مرة أخرى!

وأحس جاك جارود عند سماعه هذه الكلمات أن قلبه يوشك أن يتحطّم بين جنبيه .

واسترسلت السيدة فورتييه تقول :

ـ لقد أحببت بيير حبّاً عظيماً طغى على قلبي وحواسي . . فلا يسعني أن أحب سواه . . ! كان قلبي له وحده . . وبموته مات الحب في قلبي . .

وبدت في ثنايا وجهه أمارات اليأس . . وانحدرت من عينيه عبرتان . . وبصوت مختنق قال :

ـ آه . . إنك قاسية يا جان فورتييه ! ليس في فؤادك ذرة من الرحمة ! لقد عذبتني عذاباً شديداً ! . .

ورأته جان يبكي . . وما كانت تجهل أن دمعة تنحدر من عيني رجل ليست بالشيء التافه الضئيل .

وبصوت رقيق عطوف قالت :

ـ إني أعلم أنك تتألم ! وثق أني أتألم لأجلك ! ولكن هل يسعني أن أكتم الحقيقة دونك ! هل يسعني أن أخدعك وأموّه عليك؟ إنّ ضميري يحتّم علي أن أتحدث إليك بصراحة . . فلا تفكر فيّ بعد الآن !

فصاح في قنوط :

ـ لا أفكر فيك ! رباه ! وهل هذا ممكن ! . .

ـ انس حبي . . انزعه من فؤادك . . وستجد من هي أكثر مني جمالاً وأعظم مالاً ! . .

فهتف يائساً :

ـ أتقضين إذاً على كل أمل لي في المستقبل؟

ـ هذا لا بدّ منه .

فأمسك يدها بعنف وقال :

ـ جان ! إني اليوم رجل فقير . . وأنا أعلم أن فقري هو الذي يستوجب ازدرائك لي . . ولكن هبيني أصبحت غنيّاً . . فهل ترضين بي زوجاً لك؟

وراعها ما بدا من اضطرابه وعنفه فقالت :

ـ كفى ! لا تخاطبني بهذه اللهجة . . إنك تبعث الخوف في قلبي !

فصاح :

ـ سأصبح ثرياً . . وسأضع ثروتي عند قدميك وأقدام طفليك . . فهل تقبلين؟

ـ كفى ! اصمت . . !

ـ كلاّ . . لن أصمت ! ينبغي أن تنصتي إلى حديثي كله ! إن غرامي بك ليس حديث العهد ! إني أحبك منذ خمسة أعوام . . وقد طغى هذا الحب على قلبي وعقلي حتى كاد يفقدني الصواب . . ولكني صبرت . . وتجلّدت . . وكتمت ما يدور في صدري ! لأن زوجك كان صديقي ! . .

أمّا الآن . . وقد مات زوجك . . وانزاحت العقبات القائمة بيني وبينك من الطريق . . فلم يعد ثمة ما يحول دوني والتقدم إليك بحبي ! جان إني أحبك . . ولا بد أن أتخذك زوجة لي ! هكذا سطر القدر في لوحته الخالدة . . ومحال أن نعارض كلمة الأقدار .

وطغى عليه الانفعال فمال إلى يدها وأدنى منها شفتيه الملتهبتين وقبلها قبلة من نار .

وفي هذه اللحظة دنا الصغير من أمه وقال وهو يتعلق بثوبها :

ـ ماما . . هيا بنا ! لِمَ نقف هكذا وسط الطريق؟ ! .
وتابع الثلاثة طريقهم من جديد .
وقال جارود يخاطب الأرملة :
ـ دعيني أحمل عنك هذه الآنية .
ـ شكراً . . فإنها خفيفة ليس فيها إلاّ أربعة لترات من زيت البترول .
فبدت أمارات الدهش على وجهه وقال :
ـ أتضيئين غرفتك بزيت البترول؟ . .
ـ نعم . . فهو رخيص الثمن .
ـ ولكن ألا تعلمين أنه شديد الخطر . . وأن السيد لابرو حرم إدخاله إلى نطاق المعمل ! لو أنه علم بأمرك لتولاه الغضب !
فقالت جان في وداعة :
ـ ما كنت أعلم ذلك من قبل . . ولن أستعمله بعد اليوم .
ـ حسبك أن تستعملي الشموع أو القناديل .
ـ سأفعل ذلك من الغد .
وحين بلغوا المصنع سار جارود برفقتها حتى باب غرفتها . . ثم تمهل هنيهة هناك وقال :
ـ أتأذنين لي بكلمة؟ . .
ـ بكل تأكيد .
ـ لا توصدي في وجهي باب الأمل . . اضربي لي موعداً مهما يكن بعيداً . . !
ـ لا أستطيع يا جارود . . !
فاشتدّ به الغضب فجأة . . وضرب الأرض بقدمه وقال :

ـ ماذا ! أتأبين عليّ حتى حق الرجاء البعيد !

فراعها ما بدا من انقلاب سحنته وهمّت بالانفلات إلى غرفتها . . ولكنه اعترض طريقها . . وقال بصوت صارم :

ـ جان ! إياك أن تهيجي يأسي ! خير لك أن أظل لك صديقاً ! . .

فقالت لكي تحمله على الانصراف :

ـ حسناً ! سنرى فيما بعد ! .

ـ حقاً ! . .

ـ بلا ريب .

فانفرجت أسارير جارود وهتف :

ـ شكراً لك ! كاد صدك يقتلني . . !

ودخلت جان إلى غرفتها فأودعت زيت البترول رفاً من رفوف الخزانة وهي تقول :

ـ هذا رف مرتفع لا تصل إليه يد جورج .

وبسط إليها جارود يده يصافحها فلمّا رآها مترددة قال :

ـ ماذا . . أناقمة أنت عليّ . .؟

ـ كلاّ ولكن . .

ـ تكلّمي ! قولي ما بدا لك . . ولكن اعلمي قبل كل شيء أنني أحبك وأنني لا أعيش الآن إلاّ بهذا الأمل ! وفي يوم من الأيام سأحضر إليك وألقي بثروتي عند قدميك . . وأقول لك هأنذا قد أصبحت من الأغنياء فهل ترضين بي زوجاً !

فقالت وفي صوتها اضطراب ملموس :

ـ نعم . . إذ ذاك أرتضيك زوجاً ! من أجل طفليّ ! من أجلهما .

فهتف :

ـ ولست أطمع فيما هو أكثر من هذا! هاتي يدك .

وبسطت إليه يدها . .

وضغط عليها بحرارة . . وكانت ضغطته عهداً مقطوعاً .

ـ ٢ ـ

كان جاك جارود من أبرع العمال الميكانيكيين الذين يعملون في مصنع السيد لابرو . . فبسط عليه هذا الأخير رعايته . . وراح يرقيه ويرفع من أجره حتى أصبح مراقباً للعمال .

وكان السيد لابرو لا ينفك يسأله الرأي كلما عرضت له عقبة أو كلما أشكل عليه اختراع من الاختراعات .

وكان جارود معتزاً بنفسه . . يؤمن بذكائه . . ولا يفتأ يمنّي النفس بأن يصبح يوماً من كبار المخترعين . . فإذا ما جُنّ الليل وفرغ من عمله راح يطالع أحدث الكتب الميكانيكية استزادة لمعلوماته واستنهاضاً لطاقاته .

وما كان يتمنى إلاّ أن يوفّق إلى اختراع يدرّ عليه مالاً وفيراً . . وحين ذكرت له جان أنها ترتضيه زوجاً حين يصبح من أهل الثراء . . اشتد افتتانه بالثروة . . وراح يفكر كيف السبيل إليها؟!

كانت هذه الخواطر تدور في رأسه وهو داخل المصنع .

واقترب من كهل بين العمال وقال له :

ـ ڤانسان . . لقد قابلت ابنك الآن . .

فقال الكهل مقاطعاً بنبرة تدل على القلق :

ـ وماذا قال لك عن زوجتي . . ترى هل اشتدت العلة عليها؟

ـ كلاّ . ولكنه يرجوك أن ترجع إلى الدار عقب انصرافك

مباشرة .

ـ ألم يزد على هذا القول شيئاً؟

ـ كلا .

فهز الكهل رأسه وقال :

ـ وما حاجته إلى الإسهاب ! إنه ما كان ليستوقفك في الطريق ويسألك أن توصيني بالإسراع بالعودة إلاّ لعلمه بأن الداء قد اشتد على أمه ! سيد جارود . . أتأذن لي بأن أمضي إلى البيت على أن أعود بعد نصف ساعة؟ !

فهزّ جارود رأسه وقال :

ـ آسف يا ڤانسان ! أنت تعلم أن انصراف العمال في أثناء العمل محظور .

ـ ولكن الظرف محتّم وخطير . . وأحسب أن السيد لابرو لن . .

فقاطعه جارود بقوله :

ـ إن السيد لابرو غائب الآن عن المصنع . . ولا يسعك أن تنصرف إلاّ بعد استئذانه .

وسكت العامل الكهل على مضض .

وما كاد جارود ينصرف حتى اشتدت هواجس المسكين . . وألحّت عليه الوساوس وراح يتصور امرأته وقد اشتدت علتها وأدركها الاحتضار فلم يطق على الأمر صبراً .

غادر مكانه ومشى إلى الباب فألفى جان جالسة عنده . . فسألها أن تأذن له بالمرور فقالت :

ـ ألديك تصريح بالخروج؟

ـ كلاّ . . فإن المدير غائب .

وقصّ عليها ما كان من مقابلة ابنه للسيد جارود وقال مسترسلاً :

ـ ولا شك أن وطأة الداء قد اشتدت عليها ولا يسعني أن أنصرف إلى عملي إلاّ إذا اطمأننت عليها .

فقالت جان وقد أدركتها الشفقة عليه :

ـ وكيف يسعني أن أفتح لك الباب وليس لديك تصريح خاص بالخروج؟

ـ وامرأتي التي تعاني سكرات الموت ! أتحسبين أنّي أبالي بالنظم الموضوعة؟ !

ـ ولكن ما يكون من أمري حين يعلم المدير أني أذنت لك بالخروج دون تصريح منه؟

ـ ولكنه غائب ولن يعلم أني خرجت !

ـ إذاً استأذن المراقب .

ـ لقد أبى أن يأذن لي .

ـ إذاً ينبغي أن تتريث حتى يعود المدير .

ولكنه أبى أن يتريث . .

راح يتوسّل إلى جان وحدثها عن زوجته المريضة وكيف أنها في دور الاحتضار . وما زال بها حتى أثار عطفها ففتحت الباب وسمحت له بالخروج وهي تعلم أنها سوف تستهدف لغضب صاحب المصنع .

بعد فترة وجيزة مر جارود بالمكان الذي كان ڤانسان يعمل فيه فلم يجده . . فلمّا سأل عنه قيل له إنه خرج .

استشاط جارود غضباً ومضى إلى جان مسرعاً يسألها حقيقة الأمر . . فأنبأته بما فعلت . . وقالت :

ـ وقد وعد بأن يعود على عجل .

فقال جارود :

ـ لقد ارتكبت غلطة ما كان ينبغي أن تتورطي فيها . . إن المدير لن يغفر لك هذه الهفوة . أمّا أنا فلا يسعني إلاّ أن أطرد ڤانسان عقاباً له .

ـ كيف . . أتطرده وهو ما انقاد إلاّ لقلبه الرحيم؟ إنه سيعود عاجلاً فلا يعلم بالأمر أحد سواك . أرجوك أن تصفح عنه .

فتريّث جاك جارود هنيهة ثم قال :

ـ حسناً ! سأصفح عنه إكراماً لك على أن لا تعودي إلى ارتكاب مثل هذه الهفوة مرة أخرى وأرجو أن يعجّل بالعودة قبل قدوم المدير .

وفي تلك اللحظة قُرع الباب .

فقالت جان :

ـ ها هو ڤانسان قد رجع فاطمئن !

وإذ فتحت الباب ارتسمت أمارات القلق في وجهها .

لم يكن القادم ڤانسان وإنما السيد لابرو صاحب المصنع .

سار لابرو نحو جارود وقال له :

ـ أأنت الذي أذنت لڤانسان بالانصراف؟

لاذ جارود بالصمت لا يجيب . . واضطربت جان .

وبان الغضب في وجه المدير وعاد يكرر سؤاله .

وقال جارود في صوت المتردد :

ـ كلاّ . .

ـ إذاً فقد انصرف ڤانسان دون استئذان !

ـ لا أدري . . فإني لم أجده في مكانه فجئت أستفسر عن الأمر من السيدة فورتييه .

فتحوّل السيد لابرو إلى جان فورتييه ينتظر منها جواباً فقالت :

ـ نعم . . لقد خرج .

ـ إذاً فأنت التي فتحت له الباب؟ !

فأحنت رأسها إيجاباً .

فقال بصوت تنم نبراته عن الصرامة :

ـ وما الذي دفعك إلى مخالفة التعليمات؟ وأي عذر ساق ڤانسان إليك؟

ـ أراد أن يطمئن على امرأته إذ اشتدت بها العلة .

ـ ولِمَ أبى أن ينتظر حتى أعود فيستأذنني؟ إني أعطف على ڤانسان ولكني في الوقت ذاته لا أحب أن يكون قدوة سيئة لزملائه . . . إذا ما عاد ڤانسان فلا تفتحي له الباب إذ ينبغي أن يطرد . . لا أنكر أنه من خيرة العمال ولكن لا بد لي أن أجعله عبرة لسواه .

ثم سار إلى مكتبه يتبعه جاك جارود .

ـ ٣ ـ

كان جول لابرو صاحب المصنع في الخامسة والأربعين من العمر .

تزوج وهو في الثانية والثلاثين بامرأة موفورة الثراء فكان له من أموالها ما استعان به على إنشاء مصنعه .

ثم ماتت امرأته وخلفت له طفلاً يدعى لوسيان . . فأرسله أبوه إلى أخته في الريف لتتولى تربيته وانصرف هو إلى إدارة مصنعه وتنميته .

دخل لابرو إلى مكتبه يتبعه جارود . ثم تحوّل إليه وقال :

ـ لا ريب أني أخطأت بتعيين السيدة فورتييه بوابة للمصنع . . وينبغي أن أقيم رجلاً مكانها .

فاشتدت حيرة جارود ولم يدر ما ينبغي أن يقول وغمغم :

ـ إنها امرأة أمينة يا سيدي .

ـ ولكنها ضعيفة الإرادة لا تصلح لأداء هذه المهمة .

وقُرع الباب ودخل المحاسب يحمل رزمة كبيرة من المال وكمية من الجنيهات الذهبية ووضعها على مكتب رئيسه وقال :

ـ جئتك بالدخل يا سيدي كي تتولى إيداعه المصرف .

وحين انصرف المحاسب وخلا لابرو بجارود قال له :

ـ إني منهمك في هذه الأيام في اختراع آلة للصقل ، فإذا تحقق رجائي أصبت من ورائها مالاً جسيماً ، على أن بعض العقبات قامت في طريقي وأريد أن أعهد إليك بتذليلها على أن يكون لك خمس الأرباح .

واستطار جارود فرحاً بهذا العرض وقال :

ـ إني رهن إشارتك يا سيدي فحدثني بما أُشكل عليك .

وراح السيد لابرو يفضي إلى مراقب المصنع بتفاصيل الاختراع الذي وفق إليه . ولـمّا فرغ من حديثه قال :

ـ والآن ما رأيك في هذا؟

ـ لا ريب عندي في النجاح .

ـ سأعهد إليك إذاً بالأوراق على أن تحبس نفسك في مكتبي هذا . . فإني لا أحب أن يقف أحد من العمال على سر هذا الاختراع أو أن يرى الأنموذج خشية أن يمضي بسرنا إلى غيرنا من المنافسين .

ـ حسناً يا سيدي . . وسأشرع في العمل من صباح الغد .

ـ امض الآن إلى المصنع وابعث إليّ بجان .

حين علمت جان أن السيد لابرو يدعوها إلى مكتبه ملأت قلبها الهواجس وراحت تقول لجارود :

ـ أتدري لم يدعوني إليه؟

ـ نعم . . أظنه سيعنّفك على ما فعلت . . فلا تعارضيه بكلمة ودعيه يقولُ ما يشاء! فإنه كريم القلب وإن كان حاد الطبع .

ومضت جان إلى مكتب المدير على حين لاذ جارود بغرفته .

كان بادي الاضطراب لا يفتأ يروح ويجيء وهو يقول لنفسه :

ـ صدق لابرو . إنه اختراع جليل الفائدة مضمون الرواج . . وما أشك في أن صاحبه خليق بأن يصبح من كبار الأغنياء! آه . . هذا هو سبيل الثراء الذي كنت أنشده . ولكن هبني ظفرت بهذ الاختراع فمن أين المال الذي أنشئ به المصنع وأستجلب الآلات؟!

وراح يدور في الغرفة كالفهد المأسور . ثم قال :

ـ وعدني بأن يمنحني خمس الأرباح فأية حماقة تحملني على أن أقنع بالخمس وفي وسعي أن أنال الربح كله لنفسي!؟

وانفرجت أساريره هنيهة وقال :

ـ وإذا ما أصبحت ثرياً فهل تردّني جان خائباً حين أسألها الزواج؟ محال!

إنّ السيد لابرو ناقم عليها الآن . . ولشدّ ما أتمنى أن يطردها . . فإنها إن أصبحت بلا عمل لم يكن لها مناص من الالتجاء إلي لأعولها وأعول طفليها .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة كان فيها من الشر ما أحالها إلى

ابتسامة أشبه بتكشيرة وحش ضار مكشِّر عن أنيابه!

طرقت جان باب المكتب وتقدمت إلى السيد لابرو قائلة:

ـ أدعوتني يا سيدي؟

ـ نعم.. فقد علمت أنك عهدت بالباب بعد ظهر اليوم إلى أحد العمال. فلِمَ فعلت هذا وأنت تعلمين أن في ذلك مخالفة للتعليمات؟

ـ لقد مضيت يا سيدي لأبتاع بعض الحاجات الضرورية.

ـ أما كان في وسعك التريّث حتى ينصرف العمال.

ودون أن ينتظر منها جواباً أردف يقول:

ـ هذا إلى أن تصرفك حيال فانسان لم يكن صائباً. وقد دلّني على أنك لا تصلحين لهذا العمل.

فاغرورقت عيناها بالعبرات وقالت:

ـ ولكني لم أسألك يا سيدي أن تقيمني بوابة للمصنع.. أنت الذي عهدت إليّ بهذا العمل من تلقاء نفسك تعويضاً لي عن مصرع زوجي الذي قضى وهو قائم في خدمتك.. فإذا كنت ترى يا سيدي أني لا أصلح لهذا العمل فلست أرى ما يدعوك إلى الإنحاء عليّ باللائمة دون سبب!

فقطّب السيد لابرو جبينه وقال:

ـ كيف؟ أتنكرين إذاً أنك خالفت التعليمات المقررة؟

ـ لا أنكر أني تخلّيت عن حراسة الباب ساعة أو أقل.. ولكني عهدت بالأمر إلى أحد العمال فتولاه مكاني.

ـ ولكني انتدبتك أنت لحراسة الباب.. ولو أني أردت لكان في وسعي أن أنتدب هذا العامل الذي أنبته مكانك.. ومع ذلك فتلك

هفـوة قـد تغتـفـر . . ولكن مـا تقـولين في هفـوتك الأخـرى؟ أعني سماحك لڤانسان بمغادرة المصنع دون إذن مني؟

ـ لا أنكر يا سيدي أني أخطأت في هذا . ولكن ما كان يسعني أن أرده خـائبـاً وأنا أعلـم أن امـرأته طريحـة الفـراش تعـانـي سكرات الموت !

وساد الصمت هنيهة . . ثم رفع السيد لابرو رأسه وقال :

ـ يؤسفني أن أراني مكرهاً على فصلك من عملك فإنَّك فـيـما أرى تحـبين الجـدل والنقـاش ولست أحب من عـمـالي إلاّ الطاعـة والإذعان .

وفي هذه اللحظة دخل المحاسب وقدم إلى رئيسه بعض الكشوفات وقال معقّباً :

ـ أرجـوك يا سـيـدي أن تأمـرها بأن لا تدخـل زيت البـتـرول إلى المصنع .

وما سمع السيد لابرو هذه الكلمات حتى قفز واقفاً وصاح :

ـ زيت بترول ! أفي مصنعي بترول؟

ـ نعم يا سيدي . . فإنها تضيء غرفتها بزيت البترول .

فاستشاط لابرو غضباً وصاح :

ـ كيف هذا ! أتجـهلين أن إدخال البـتـرول إلى هذا المصنع مـحـرم محظور؟

فقالت جان :

ـ كنت أجهل ذلك يا سيدي .

ـ كنت تجهلين؟ لا أستطيع أن أصدقك !

ـ ومـا الذي يدعـوني إلى الكذب يا سـيـدي ولا فـائدة منه تعـود

عليّ؟ إنك فصلتني من العمل منذ لحظات فالإنكار لن يجديني نفعاً!

فصاح السيد لابرو وهو يحاول أن يكظم غيظه :

ـ قد أغفر لك الهفوتين اللتين ارتكبتهما . . أما أن أتجاوز عن إدخالك البترول إلى مصنعي فمحال . ابحثي لك عن عمل آخر . . ففي نهاية هذا الشهر تغادرين مصنعي .

فبدا اليأس في وجهها وقالت :

ـ أتطردني بعد أن مات زوجي في خدمتك؟ وما يكون من أمري بعد أن توصد أبواب الرزق في وجهي؟! وما يكون مصير ولديّ!؟

ثم تهدّج صوتها وأردفت :

ـ احذر يا سيدي . . فإن طردي لن يجلب لك خيراً .

فألقى إليها السيد لابرو نظرة فاحصة وقال :

ـ ماذا تعنين بهذا القول؟

صاح المحاسب :

ـ أتهددين وتتوعدين؟

فقالت جان :

ـ لا أهدّد ولا أتوعّد . . إني أحتمل نكبتي بجلد وشجاعة . . لقد ارتكبت هفوة فلأكن إذاً على استعداد لتحمّل تبعة ما فعلت . . إني لن أنتظر يا سيدي حتى ينتهي هذا الشهر وإنما سألبث لديك أسبوعاً واحداً أعتزل العمل بعده . . فلك أن تختار سواي .

وأدركت الشفقة السيد لابرو وقال بصوت عطوف :

ـ لا تحسبي يا ابنتي أني أطردك طرداً . . كل ما في الأمر أنني أدركت الآن أن حراسة الباب ليست بالعمل الذي يوكل إلى النساء .

فقالت بانفعال :

ـ كـان ينبـغي يا سـيـدي أن تدرك هذا قـبل أن تكـل هذا العـمل إليّ .

ـ هذا صحيح . . ولكـن غلبت عليّ الرغبة في مساعدتك وفتح أبواب الرزق أمامك فعهدت إليك بـهذا العـمل . . ومع ذلك فسوف أهيّئ لك عملاً آخر .

فأجهشت جان بالبكاء وقالت :

ـ بل سأغادر بعد أسبوع واحد يا سيدي . . فإني ما كابدت في هذا المصنع غير البؤس والشقاء ! وما تجولت فيه خطوة إلاّ تراءى لي شبح زوجي غارقاً في الدماء !

ورفعت يديها إلى وجهها في أسى . . ثم دارت على عقبيها وغادرت القاعة تمشي مشية اليأس والقنوط .

تابعها صاحب المصنع ببصره ثم غمغم يقول :

ـ يا لها من بائسة مسكينة ! إني أعلم أنها ما أذنت لفانسان بالخروج إلاّ رحمة به .

فانبرى المحاسب يقول :

ـ إنك يا سيدي كريم رحيم القلب .

ـ الواقع أني مدين لهذه المرأة . . لقد قتل زوجها وهو قائم في خدمتي . . فمن حقها عليّ أن أرعاها وأن أمدّ لها يد المعونة . . وسأجد لها عملاً عند أختي .

ـ ولكن ينبغي يا سيدي أن تحذر هذه المرأة فقد هددتك ! .

ـ أتظن ذلك؟

ـ هذا لا ريب فيه . . فقد كانت تحب زوجها حباً شديداً . . وما من شك في أنها تعتقد أنك مسئول عن مصرعه . . فلا عجب أن

تنقلب ناقمة عليك .

فهز السيد لابرو رأسه وقال :

ـ إنك شديد الوطأة على هذه المرأة . . ولكن ينبغي أن لا تنسى أنها امرأة منكودة . . مات زوجها . . ولديها طفلان تعولهما . . ومهما يكن فلا مفر من أن أزوّدها بقدر من المال إذا تعذر علي أن أقيمها في خدمة أختي .

ثم ما لبث أن أردف يقول :

ـ أجئتني بحساب الصندوق؟

ـ نعم يا سيدي .

ودفع إليه كشفاً وهو يقول :

ـ في الصندوق الآن ٧١٢٣ فرنكاً وثلاثون سنتيماً . . وسآتيك الآن بهذا المبلغ .

ـ ولم لا تبقيه لديك؟

ـ إني لا أنام في المصنع يا سيدي وأخشى تبعة السرقة .

ـ حسناً . . هاته إذاً .

وفي خلال ذلك كانت جان لائذة بغرفتها تبكي بكاء مرّاً بعد أن رأت أبواب الرزق تسد في وجهها .

وجاءها جارود يسألها عما حدث بينها وبين المدير . . فلمّا أنبأته بالأمر قال :

ـ هذا ما كنت أتوقع ! لا ريب أنك أثرت غضبه بالجدل والنقاش .

فقالت بانفعال :

ـ ولكنه طردني من خدمته طرداً !

ـ إنه ما كان ليفعل ذلك لولا أن أثرت غضبه .

ـ وكيف كنت تريد مني أن ألوذ بالصمت وهو يوجه إليّ أقسى الكلمات ويحاسبني على هفوة لا تستحق كل هذا الغضب؟

ـ والآن ما الذي تنوين أن تصنعي؟

ـ لا أدري . . ولكن ينبغي على أية حال أن ألتمس عملاً أعول به ولدي وابنتي .

فلمّا رأى اليأس بادياً في وجهها قال :

ـ دعك من القنوط يا جان . . فقد يراجع المدير نفسه في الأمر ويستبقيك .

فهزت رأسها بإصرار وقالت :

ـ ولكني لن أبقى . . إني راحلة !

ـ حقّاً !

ـ نعم . . فعلى هذا عوّلت .

فقال بلهجة تنطوي على الأسى :

ـ وما يكون من أمري حين ترحلين؟

ـ إنك لا تلبث أن تنساني .

فهتف بحرارة :

ـ جان . . ألا تعلمين أن من المحال أن أعيش بعيداً عنك لحظة واحدة؟ كلاّ . . سأتحدث في شأنك إلى المدير وأراجعه في أمرك .

ـ لا تفعل ذلك بالله عليك !

ـ إنك تعلمين أني أحبك حبّاً مخلصاً . . فلم لا تبادلينني هذا الحب فنعيش سعيدين؟

فقطّبت جبينها وقالت وقد بدا الازدراء في ثنايا وجهها :

ـ ماذا؟ أتسألني أن أكون خليلة لك؟ هذه إهانة لي يا سيد

جارود !

فقال معتذراً :

ـ ما قصدت إلى إهانتك يا جان . . كل ما في الأمر أني أعرض عليك أن تعيشي في كنفي وأن أتخذ من ولديك ابنين لي حتى إذا انقضت شهور الحداد اتخذتك زوجة لي .

ثم ما لبث صوته أن تهدّج وقال معقّباً :

ـ جان . . اعلمي أني مجنون بحبك وهأنذا أعرض عليك حمايتي ومعونتي لك ولولديك . . إني أحبهما كأنهما ولداي ! فإذا نبذتني وأعرضت عني فقد أسأت إلى هذين الطفلين قبل أن تسيئي إلي !

هيّا خبّريني . كيف يتاح لك في المستقبل أن تنفقي عليهما وتلحقيهما بالمدارس؟ وهل تطيقين أن تريهما جائعين مشرّدين؟

وامتقع وجه جان وقالت :

ـ إنك تسرف في الوصف لكي تهد عزيمتي إذا ما صورت لي المستقبل على هذه الصورة البشعة !

ـ إني لا أسرف ولا أبالغ وإنما أكشف لك الحجب عن المستقبل الذي ينتظر ولديك !

فهتفت :

ـ ربّاه ! إنه لا يرحمني ! إنه لا يريد أن يصمت !

فصاح جارود :

ـ نعم . . لا أريد أن أصمت . . إني أرى الهوة فاغرة فاها تحت قدميك . . فكيف أدعك تسيرين إليها وأنت مغمضة العينين؟ ! ها أنا منصرف عنك . . ولكن اعلمي أن مستقبل طفليك رهين بكلمة تصدر من بين شفتيك .

وأولاها ظهره وانصرف . . فتهالكت على أحد المقاعد متخاذلة في إعياء .

وراحت تقول لنفسها :

ـ نعم . . إنه لم يبالغ ولم يسرف ! لقد صدق فيما قال . . فأنا لن أستطيع أن أعول طفليّ مهما التمست من أبواب الرزق ! رباه ! أَقْضي على هذين الطفلين المسكينين بالفاقة والفقر؟ !

ولكن كيف أتزوج هذا الرجل وقد أقسمت لزوجي وهو على سرير الموت أن لا أتزوج سواه ! كيف أحنث بهذا العهد المقدس ! رباه . إنه لتكون نذالة مني لو أني تزوجته ! كلاّ . . لن أتراجع مهما حدث !

ـ ٤ ـ

في صباح اليوم التالي انزوى جارود بمكتب السيد لابرو وانكب على أوراق الاختراع الذي وفّق إليه رئيسه وراح يدرسه ويحاول أن يتمّه . . وأمضى سحابة نهاره وهو منهمك في العمل .

ولـمّا أقبل المساء غادر المصنع وانطلق إلى شاطئ النهر فارتمى على الرمال وتناول طعاماً خفيفاً . . وظل مكانه حتى انتصف الليل .

وكان في خلال هذه الساعات الطويلة يرسل بصره إلى صفحة الماء وقد استولت عليه الخواطر وغرق في تفكيره حتى كاد يغفل عما حوله .

وإذ عاد إلى المصنع في الصباح كان بادي الاضطراب ممتقع الوجه شأن المريض الذي لزم فراشه عليلاً طويلاً . .

وأقبلت عليه جان تسأله عما به . . فرماها بنظرة فيها ألم واضطراب وقال :

ـ لا شيء .

ثم ما لبث أن أردف :

ـ كنت أريد أن أتحدث إليك عن . .

ولكنه ما لبث أن أمسك وقال في اضطراب :

ـ كلاّ . . كلاّ . . ليس الآن . . فيما بعد . . فيما بعد !

ثم أولاها ظهره ومضى مسرعاً إلى المصنع . .

شيّعته جان بنظرة مليئة بالدهش . . وراحت تقول لنفسها :

ـ عجباً . . ! ليت شعري أي حديث أراد أن يفضي به إليّ . . وما سرّ هذا الاضطراب الذي يعروه . . ! كأني به يكتم سرآ خطيراً . . !

وفي مكتب المدير جلس جارود منهمكاً في تحسين آلة الصقل . . على حين جلس السيد لابرو على مقربة منه يكتب بعض الرسائل .

وبعد برهة جاء المحاسب وقال :

ـ ها قد جئتك بالمال يا سيدي لتودعه المصرف .

ـ أبقه لديك حتى أفرغ من عملي .

وإذ سمع جارود كلمة «المال» سرت الرعدة في بدنه وعرته رجفة أخفاها بجهد ملموس .

المال ! ذاك هو الرجاء الذي يعيش من أجله ! وهذه هي الأمنية التي ينشدها ويرجوها .

وبعد هنيهة دخلت جان تحمل رقعة زرقاء اللون وقالت :

ـ جاءتك برقية يا سيدي .

تناول السيد لابرو البرقية وفضّها على عجل . . وما كاد يتلوها حتى امتقع وجهه وهتف :

ـ ابني مريض . . ربّاه أهو في خطر .؟ ! .

وتحوّل إلى جارود يقول :

ـ جاءتني برقية من أختي تخطرني فيها بأن ابني لوسيان مريض . . ولا مفر لي من أن أسافر إليها فوراً . . فاجمع أوراق الاختراع يا جارود لأودعها الخزانة .

وانتفض جارود وأبرقت عيناه ابتهاجاً . . وراح يجمع الرسومات والأوراق .

ودق السيد لابرو الجرس يدعو إليه المحاسب وينبئه بسفره . . وطلب إليه أن يبقي معه من المال ما يكفي لنفقات العمل في أثناء غيبته .

ثم دعا إليه جان وأمرها بأن تعدّ له مركبة .

ورجعت جان بعد دقائق فقال لها المدير :

ـ انتظري لحظة حتى تساعديني في إعداد حقيبتي .

ثم جاء المحاسب بعد لحظات وهو يقول :

ـ أبقيت لدي خمسة آلاف فرنك وجئتك بالباقي .

ـ حسناً . . إني أرجو أن لا أغيب أكثر من يومين . . بكم جئتني؟

ـ جئتك بمبلغ ١٣٣ ألف فرنك . . فإذا أضفته إلى ما في خزانتك كان المجموع ١٩٠ ألفاً و٢٥٣ فرنكاً .

فتناول لابرو الأوراق النقدية ودفعها إلى خزانته دون أن يحصيها .

وفي خلال ذلك حانت من جان لفتة إلى جارود .

رأت في ثنايا وجهه انفعالات غريبة لم تعهدها فيه من قبل . . كان مضطرباً . . خائفاً . . كمن اقترف جريمة يخشى أن تكشف . . وكان في الوقت ذاته مضطرب النظرات متقد العينين .

وعجبت لأمره ولم تدر ما دهاه !

وقدّم جارود رسومات الاختراع إلى رئيسه فأودعها هذا الأخير الخزانة وهو يقول :

- سنعود إلى الاهتمام بها عقب عودتي .

وإذ رآه يهم بالانصراف قال له :

- انتظر لحظة فإني بحاجة إليك .

ثم تحول إلى جان وقال لها :

- لا بد لي يا سيدة فورتييه من أن أهتم بأمرك عقب عودتي . . واعلمي أني لن أدعك بلا عمل . . وأرجوك أن تنسي ما جرى بيننا كما نسيته أنا .

ولاذت جان بالصمت . . وقد استغربت ما أبداه نحوها فجأة من عطف لا يتفق مع صرامته المعهودة .

وكان المحاسب يختلس إليها النظر ويقول في نفسه :

- ويحها ! إنها لم تلق إليه ولو كلمة شكر واحدة ! لا ريب أنها حاقدة عليه وتبيت الانتقام منه !

ثم أمرها السيد لابرو بأن تعد حقيبته . . فانطلقت دون أن تجيب بكلمة واحدة .

ولـمّا أغلقت الباب خلفها قال السيد لابرو :

- أخشى أن تكون السيدة فورتييه ناقمة علي فقد عنفتها تعنيفاً شديداً . . ولكنها هي التي أهاجت غضبي بعنادها . . ومهما يكن فسأجد لها عملاً عند عودتي . .

ثم ألقى بعض تعليماته إلى جارود والمحاسب . . وغادر المصنع مسافراً إلى الريف ليعود ولده المريض .

عندما حانت ساعة الانصراف مرّ جارود بغرفة جان فألقى إليها

بالتحية وهمّ بالذهاب . . ولكنها استوقفته وقالت له :

ـ ما الذي كنت تنوي أن تحدثني به هذا الصباح؟

فسرت الرجفة في أوصاله وقال مراوغاً :

ـ كنت أريد أن أتحدث إليك في مسائل كثيرة .

ـ تكلم إذاً فإني مصغية إليك !

فهز رأسه وقال :

ـ كلاّ . . ليس الآن . لقد تريّثت في الأمر واستقر مني الرأي على إرجاء الحديث إلى فرصة أخرى . والواقع أني لا أجرؤ .

ـ لا تجرؤ؟ على أي شيء؟

ـ على مكاشفتك بما في نفسي . . ولكني قد أكتب إليك بما أبغي !

وكان بادي الاضطراب والتردد . . فقالت له جان :

ـ ولكن ما سرّ هذا الاضطراب الذي أراه ماثلاً في عينيك؟

ـ أرجوك . . لا تسأليني الآن إيضاحاً ! ولكن نبئيني . . هل تدبرت أمر مستقبلك ومستقبل ولديك؟

ـ نعم . . تدبرتهما !

ـ وما ترين؟ أموافقة أنت على ما اقترحته عليك؟

ـ نعم . . ولكن بعد أن تكاشفني بما في نفسك .

ـ سأكاشفك بكل شيء . . ولكن تريثي حتى الغد . . ففيه يتقرر مصيرنا .

ـ ولم الغد بالذات . .؟

ـ هذا سرّي . . ولا أحب أن أزيدك الآن إيضاحاً . . اصبري حتى الغد . . هذا كل ما هنالك . .

ومضى عنها مسرعاً كأنما يخشى أن يزل لسانه في أثناء الحديث فيجري بما يحاول أن يكتم .

سار جارود إلى مطعم قريب فتناول طعامه وهو مضطرب شارد الخواطر .

وإذ فرغ منه عاد ثانية إلى المصنع .

ولكنه هذه المرّة لم يتجه إلى الباب الكبير العام الذي اعتاد العمال الدخول منه . . وإنما سار إلى باب خلفي صغير يفضي إلى مكتب السيد لابرو الذي اعتاد أن يحتفظ بمفتاحه .

اقترب من الباب وأخرج من جيبه قطعة من الشمع دفعها في ثقب القفل حتى انطبع عليها شكل المفتاح ثم جذبها ودسّها في جيبه وانطلق إلى غرفته مسرعاً وجبينه يتصبّب عرقاً .

في ذلك الوقت نفسه كان السيد لابرو جالساً مع أخته وهي تتحدث إليه عن ابنه لوسيان .

أنبأته أن الطفل أصيب بحمّى شديدة . . ولكن الطبيب صرّح لها اليوم بأن الخطر زال عنه ولم يعد ثمة ما يدعو إلى القلق .

فقال الأب المسكين الجزع الفؤاد :

ـ وأين هو . . فإني أريد أن أراه؟

ـ إنه مستغرق في نومه فدعه ولا توقظه .

وسار الأب إلى غرفة ابنه يختلس الخطى . . وإذ رآه ينام هادئاً سُرّي عنه ورجع إلى أخته . . فراحت تروي له بإسهاب تفاصيل المرض الذي حل بلوسيان .

وقال لها الأب :

ـ ما دام الخطر قد زال عنه فلا أرى ما يدعو إلى إطالة إقامتي

هنا . . وسأعود غداً إلى مصنعي .

ولـمّا سألته عن أعماله حدّثها بأمر الاختراع الجديد الذي وفق إليه وقال :

ـ وإني أرجو أن يأتيني هذا الاختراع بالملايين من الفرنكات . . !

فابتهجت أخته . . ولكنها قالت بحذر :

ـ ولكن ينبغي أن تبادر إلى إخراجه وتسجيله رسمياً وإلاّ سبقك إليه آخرون .

ـ إنّي لا أتوقع شيئاً من هذا القبيل . . ومع ذلك فما من مخترع إلاّ استهدف للمنافسة الخطرة ولا سيما إذا انكشف بعض سره لخصومه . . فإنهم «يسرقون» الفكرة ويدخلون عليها من التطوير والتحوير ما يكفل لهم النجاح . . ولكني اتخذت الحيطة . . فإني أعمل بنفسي ولا يساعدني غير رجل يدعى جارود أثق به ثقة عمياء .

وراح يحدثها عن جاك جارود ونبوغه وكيف أنه أشركه معه ليعطيَه خمس الأرباح .

فقالت تسأله :

ـ هل أطلعته على سر الاختراع؟

ـ لم يكن لي مناص من ذلك إذ كان هناك بعض عيوب في الاختراع سألته أن يتلافاها إذ استعصى أمرها عليّ .

فهزت الأخت كتفيها وقالت :

ـ إيه . . ما دام الرجل محلاً لثقتك فلا داعٍ للاسترابة في أمره . . ولا سيما أنه قاسمك الربح . .

وبعد برهة عادت تسأله :

ـ وكيف حال تلك الأرملة المسكينة التي قتل زوجها في مصنعك عند انفجار إحدى الآلات؟

ـ لقد أقمتها بوابة للمصنع كما تعلمين ولكنني مكره على فصلها الآن .

فقالت الأخت مستنكرة :

ـ كيف؟ أتطردها وقد مات زوجها في خدمتك؟

ـ ولكن إبقاءها في هذا العمل مستحيل . . إنها عاطفية رقيقة الإحساس وقد سمحت اليوم لأحد العمال بمغادرة المصنع دون إذن خاص . . والنساء في رأيي لا يصلحن لهذا العمل .

ـ كان ينبغي إذاً أن تدرك هذا من قبل . . ولكن ما يكون من شأن هذه المسكينة حين تطردها ولا عائل لها أو لولديها؟

ـ وهذا ما أردت أن أتحدث إليك في شأنه يا أختاه . . إنك في حاجة إلى امرأة تدبر لك شؤون هذا المنزل . فلم لا تتخذين جان عوناً لك؟ إنك الآن في حاجة إلى الراحة . وليس من الإنصاف وقد بلغت هذه السن أن ترهقي نفسك بالأعمال المنزلية . . إن لها ولداً في الثالثة من العمر يمكن أن يتخذه لوسيان رفيقاً له فإنهما في سن واحدة .

فقالت الأخت :

ـ هذا الاقتراح يا أخي يدل على ما طبعت عليه نفسك من الخير . . وإني ليسرني أن أقبله . . نعم . . يمكنك أن تبعث إلي بجان فأنزلها من نفسي منزلة الأخت . . فيكون لها من ذلك بعض العزاء عن فقدها زوجها المسكين .

- ٥ -

في صباح اليوم التالي كانت جان شاردة الذهن غارقة في خواطرها تفكر في جارود وتسائل نفسها عن هذا الاضطراب الذي عراه . . وأي سر خفي أثيم يطوي بين جنبيه . . حين دخل عليها خادم المصنع يسألها مفتاح غرفة السيد لابرو لينسقها ويكنسها .

فطن الخادم إلى ما يبدو على وجه جان من أمارات الشرود . وكان قد انتهى إليه أن صاحب المصنع أنذرها بالطرد فأقبل عليها يقول :

- ما بك؟ أمريضة أنت؟

- كلاّ .

- إذاً لِم أراك مضطربة؟

- لستَ مضطربة . . إنك واهم !

- وما الذي تنوين فعله الآن؟ أفي نيتك الإقامة في هذه البلدة؟

- فساءها قوله وأجابته بخشونة :

- لا أعلم .

- وهل ينوي السيد لابرو يا ترى ألاّ يمنحك مكافأة مالية؟

- فقالت له بانفعال :

- إني لست ممن يقبلون الصدقات !

- ومَن قال لك إنه سيتصدّق عليك ! إن تعويض العمال عند فصلهم أمر مقرّر قانوناً . . ولكن يلوح لي أنك حاقدة عليه .

فدفعت إليه مفتاح المكتب وقالت بغلظة :

- هاك مفتاح المكتب فانصرف عني .

فتناوله منها وغادر الغرفة وهو يقول في نفسه :

ـ لا ريب عندي في أنها تضمر له شراً!

وراحت جان تنسّق غرفتها بعد انصراف الخادم .

ثم أتت بزجاجات فارغة أفرغت فيها زيت البترول من الآنية الخاصة بالمصنع وهي تقول في نفسها :

ـ أنا التي اشتريت هذا البترول بمالي الخاص فمن حقي أن أحمله معي إلى غرفتي .

وطرق الباب في هذه اللحظة . وكان الطارق هو محاسب المصنع .

دفع الباب ودخل وهو يقول :

ـ أما حذّرك المدير من استعمال البترول؟ ومع ذلك فما أزال أشم رائحته !

ـ إني أفرغه في زجاجات خاصة لأحمله معي إلى غرفتي الجديدة عند مغادرتي المصنع . . ومع ذلك فيمكنك أن تطمئن إلى أنني لن أحرق المصنع قبل رحيلي .

فقال يخاطبها بغيظ مكتوم :

ـ طالما أخفى الوجه الوديع نية شريرة !

وأولاها ظهره وانصرف .

بعد ظهر ذلك اليوم كان جورج الصغير يداعب جواده الخشبي . . وغضب فجأةً على الجواد فتناول عصاه وانهال بها عليه ضرباً . . وكانت ضرباته عنيفة فانشق بطن الجواد .

بكى جورج برهة ، ثم ما لبث أن مسح دموعه وقد خشي أن تعلم أمه بما فعل فراح يجمع أوراقاً من الصحف يحشو بها بطن الجواد .

ثم رجع إلى اللعب كمن لم يأت ذنباً .
وفي أثناء ذلك كانت جان واقفة بالقرب من باب المصنع تترقّب خروج جارود .
ورأته مقبلاً .
اقترب منها وقال لها :
ـ هاك الرسالة دونت فيها كل ما أبغي أن أكاشفك به .
فتولّتها الدهشة . . وقالت :
ـ وما الذي يدعوك إلى الكتابة . . وفي وسعك أن تصارحني بما تشاء . .؟
فقال في اقتضاب :
ـ ثمة أشياء لا يمكن أن يجري بها اللسان وإن كان هيّناً أن يجري بها القلم! اقرأي هذه الرسالة حين تلوذين بغرفتك . . واعلمي أن مستقبلك ومستقبل طفليك رهين بكلمة منك .
ثم انطلق مسرعاً دون أن يزيد حرفاً واحداً على ما قال .
ومضت جان إلى غرفتها وقد اشتدت بها اللهفة .
فضّت الرسالة وراحت تقرؤها باهتمام . . فإذا هذا نصها :
«حبيبتي جان . .
«بالأمس حدثتك عن ثروة منتظرة تضمن لك ولولديك الهناء . . والآن أستطيع أن أؤكد لك أن سبيل هذه الثروة أصبح ممهداً ميسوراً .
«غداً سأصبح من الأغنياء . أو على الأقل ستكون بين يديّ جميع الأسباب التي تهيّئ لي ثروة لا شبهة فيها . . كما سيكون بين يديّ اختراع جليل النفع عظيم الرواج سيدر علي مئات الألوف . . كما سيكون بين يديّ في الغد ما يقرب من مائتي ألف فرنك .

«جان . . اعلمي أن طفليك سيصبحان ولديّ! إن هذه الفكرة وحدها خليقة بأن تحملك على قبول اقتراحي . .

«في هذا المساء سأكون في انتظارك في الساعة الحادية عشرة عند جسر شارنتون . . فاحضري وفي رفقتك جورج . . وسننزل في أحد الفنادق . . وغداً نبرح فرنسا إلى أحد البلاد الأجنبية حيث نصبح من الموسرين الأغنياء!

«غادري بلا ندم ذلك المصنع الذي قتل فيه زوجك . . والذي طردك منه صاحبه .

«تعالي إلى ذلك الذي يحبك والذي سيجعل منك أسعد النساء!

«إذا لم تحضري فلا أدري إلى أي نوع من الحماقات يدفعني اليأس . . ولكنك ستحضرين! . .» .

٧ أيلول/ سبتمبر سنة ١٨٦١

جاك جارود

فرغت جان من تلاوة الرسالة وأخذتها موجة من الدهش والاستغراب .

أي اختراع هذا الذي يتحدث عنه جاك جارود؟ وكيف وُفّق إليه فجأة وما حدثها عنه من قبل؟ وما مئات الألوف من الفرنكات هذه التي يزعم أنه سينالها غداً .؟! من أين له هذا المال وهو عامل فقير ليس له غير مرتبه؟

ألعلّ لوثة من الجنون طغت عليه فجعلته يتصوّر الأوهام حقيقة راسخة؟ أو لعله أراد أن ينصب لي شركاً وهو يحسب أنني غافلة ساذجة؟

ولكن لا . . محال أن أنقاد لترّهات هذا الوغد! إنه لن يلقى مني

إلاّ الازدراء والاحتقار .

وفركت الرسالة بين يديها وألقتها على الأرض بغضب .

ونظر ابنها جورج إلى الورقة المكوّرة ثم انقضّ عليها فتناولها ودسّها في بطن الجواد المشقوق يحشو الشق بها .

وأقبل الليل . . وادلهمّت السماء .

ومضت جان بولدها إلى فراشه . . فأرقدته في عطف وحنان وراحت تغني له أنشودة حلوة بصوت عذب رقيق .

وإن هي إلاّ لحظات حتى أرعدت السماء وأبرقت . . وبدأت العاصفة ترسل نذرها الرهيبة تجتاح الأرض بغير رحمة .

ـ ٦ ـ

في الموعد المضروب كان جارود عند جسر شارنتون يترقب قدوم جان .

كانت العاصفة جائحة عاتية . . ومع ذلك لم يبال بها وإنما انطلق إلى النهر يتلقى سيول المطر على كتفيه في غير اكتراث .

وراح يقول لنفسه :

ـ نعم . . إن العاصفة لن تردها عن القدوم ! إني موقن من أنها ستحضر حتماً في الموعد المضروب . . إذا كان في نيتها أن تحضر ! وإذ ذاك أمضي بها إلى غرفتي فأدعها هناك برهة مع طفلها ريثما أنجز ما بيتُّ عليه العزم .

ومضى يتجوّل في المكان جيئة وذهاباً . . وكلّما سمع حركة كلّما حسب أن جان هي القادمة .

وطال الانتظار وجان لا يبدو لها أثر . وقال في نفسه :

ـ تبّاً لها ! . . أنبذت حبي وأبت أن توافيني ! . . سترى إذاً كيف أنتقم منها ! إن هذا القلب الذي يضطرم غراماً سينقلب الآن متأجّجاً بالغضب والكراهية .

وفجأة طاف بذهنه خاطر ارتعد له . .

هذه الرسالة التي كتبها إلى جان يدعوها فيها إلى موافاته عند الجسر . . ألا تحمل رسالة اتهام خطيرة !؟ أليست دليلاً على الجريمة !

وما يكون من شأنه إذا أبرزت جان هذه الرسالة ودفعتها إلى المحققين !؟

وغرق في خواطره برهة وقد أخذته غاشية من الخوف .

ثم رفع رأسه وقال بثقة :

ـ كلاّ . . سأدفع التهمة عن نفسي بأن أرجئ سفري أسبوعاً . . بل شهراً

على أنّ الرجاء في قدومها ما لبث أن عاوده . . فأقام مكانه برهة . . ولـمّا أدركه القنوط سار صوب المصنع وهو يقول في نفسه :

ـ الآن مات الحب في قلبي . واضطرست مكانه البغضاء ! والويل لها ! لقد داست غرامي بقدميها فليس لها عندي إلاّ الانتقام .

دخل جارود إلى المصنع من الباب الخلفي الصغير الذي اعتاد السيد لابرو أن يدخل منه .

ولقد رأيناه من قبل يأخذ للمفتاح قالباً من الشمع صنع على نسقه مفتاحاً استعمله في فتح الباب .

وإذ صار في الفناء رأى الضوء ينبعث من غرفة جان فعضّ على أسنانه وقال في نفسه :

«إنها الآن تهزأ بي وتعتقد أني قائم تحت وابل من المطر أترقب

قدومها . . ولكنها سترى الآن كيف يكون انتقامي ! والحب الذي كان أغنيـة تتـحـدث عن هنائـهـا قـد انقلب الآن ناراً تجـتـاج كل مـا في طريقها !» .

كانت جان قد أودعت الزجاجات الملأى بالبترول غرفة مجاورة لغرفتها . . فمضى إليها جارود بغير تردّد وهو يختلس الخطى .

حمل بعض الزجاجات وسار إلى مصنع النجارة فصبّ البترول فوق نشارة الخشب .

ثم انطلق إلى مكتب صاحب المصنع . . فعالج الخزانة بما لديه من أدوات وآلات حتى هشّم قفلها . . وأودع جيبه ما فيها من أموال ورسومات خاصة باختراع آلة الصقل ثم صب البترول فوق المكتب .

ارتدّ جارود ثانية إلى ورشة النجارة وأخرج من جيبه عوداً من الكبريت أشعله في النشارة . . وإن هي إلاّ لحظات حتى التهبت وصارت أشبه بأتون متأجج النيران .

وبينما كانت هذه الحوادث الرهيبة تتوالى في پاريس . . كان السيد لابرو قد غادر القرية راجعاً إلى المدينة العظيمة بعد أن اطمأن على صحة ولده .

بلغ پاريس قبيل منتصف الليل بساعة فتناول طعامه في أحد المطاعم ثم استقل مركبة أمر سائقها بأن يمضي به إلى المصنع .

وبلغ السيد لابرو المصنع حين فرغ جارود من إشعال النار في ورشة النجارة . . وارتد إلى مكتب المدير يشعل فيه النار .

رأى العائد المسكين النيران تلتهم مصنعه فجرى راكضاً صوبها ليتبيّن الأمر . . وحانت منه لفتة فرأى باب مكتبه مفتوحاً وألفى النار لم تشتعل عفواً . . وأن يداً آثمة أشعلتها عمداً . . فما كان منه إلاّ أن

جرى إلى المكتب واقتحم الباب .

رأى جارود صاحب المصنع مقبلاً عليه . . فلم يَرَ وهو في هذا الموقف الحرج أن يتراجع .

استلّ إحدى الأدوات التي هشّم بها الخزانة الحديدية الصغيرة وانقض على السيد لابرو وسدّد إلى قلبه طعنه كانت القاضية .

صرخ المطعون المسكين صرخة هائلة ثم ترنح وهوى على الأرض والدماء تتفجر من صدره .

وفي هذه اللحظة كانت جان قد أقبلت مسرعة على وقع الأقدام ورأت القاتل وهو يغمد الأداة النفاذة في صدر السيد لابرو .

التهمت النار المصنع . . وتعالى اللهب وتراءى على البعد . . فأقبل رجال المطافئ مسرعين وراحوا يكافحون النيران بجهود صادقة .

ولم يخف على جان سوء موقفها وأيقنت أن التهمة ستلصق بها .

ألم يطردها صاحب المصنع في اليوم السابق؟ ألم يمت زوجها في مصنعه؟ كل هذه دوافع بعثتها على إضرام النار في المصنع !

وزيت البترول الذي ابتاعته إنّما هو الدليل على ما فعلته ! على أنها ما لبثت أن هتفت :

ـ ولكني سأنفي التهمة عن نفسي . إنّ الخطاب الذي كتبه إليّ دليل قاطع على أنه هو الجاني الأثيم !

وانطلقت تجري إلى غرفتها لتأتي بالرسالة . . تلك الرسالة التي ستنقذها من هذه التهمة الرهيبة .

وفي الطريق إلى غرفتها تذكّرت أنها ألقت بالرسالة إلى الأرض بعد أن فركتها بين يديها حنقاً .

ودفعت الباب وألقت نظرة عجلى في أرجاء الغرفة فلم تجد أثراً

للرسالة .

أدركها الجزع وهتفت :

ـ رباه . . أين الرسالة إذاً؟ !

وراحت تبحث عنها في كل مكان . . تحت المقاعد . . وتحت السرير . . وتحت المائدة . .

وفيما هي جادة في البحث تناهت إلى سمعها أصوات حادة تبيّنت من بينها صوت المحاسب .

سمعته يقول :

ـ لا ريب عندي في أن السيدة فورتييه هي التي أشعلت النار في المصنع فقد سمعتها بأذني تهدّد السيد لابرو وتتوعده .

وغاص قلبها في صدرها خوفاً حين سمعت هذه الكلمات .

وقالت في نفسها :

ـ ربّاه ! إن لم أجد الرسالة قُضي عليّ حقاً .

وراحت جهودها في البحث عن الرسالة عبثاً .

لقد أفلت من بين يديها الدليل الوحيد الذي كان خليقاً بأن ينقذها من مصيرها المفجع !

حملت ابنها جورج وغادرت الغرفة وانطلقت من المصنع هائمة على وجهها والصغير المسكين متعلّق بعنقها خوفاً وفزعاً .

ولكنه في غمرة خوفه لم ينس جواده الكرتوني .

وأنّى للأم المسكينة أن تعلم في تلك اللحظة أن الرسالة المنشودة في بطن الجواد المشقوق !

احتشد القوم حول المصنع المتأجج ينظرون إلى ألسنة اللهيب وهي تتعالى في الجو . . ورجال المطافئ يتسلّقون السلالم ليكافحوا النيران

إذ كانت الأبواب لا تزال موصدة . .

وهتف أحد الحاضرين :

ـ أين جان حارسة الباب؟وكان جاك جارود بين المحتشدين فانبرى يقول :

ـ أين جان؟ لا ريب عندي أنها هي التي أشعلت النيران ! لقد طردها المدير فأقدمت على هذه الفعلة انتقاماً منه !

ثم أهاب بمن حوله قائلاً :

ـ هيا أيها الأخوان ننتشل خزانة المدير من النيران .

وانطلق يجري صوب المصنع وفي أثره بعض المتحمسين .

بعد أن ارتكب جاك جارود جريمته الهائلة وعرف أن جان رأته وهو يقتل المدير انطلق هارباً وهو موقن أنها سوف تتّهمه وتكاشفُ الناس بما فعل .

ولكنه ما إن ابتعد عن المصنع مئات من الأمتار حتى استرد رباطة جأشه فقال في نفسه :

ـ نعم . . إنها سترميني بالتهمة . . ولكن أي دليل لديها على صحتها ! الرسالة؟

ولكن لا ريب أن النيران قد التهمت الرسالة وأتت عليها . . وبعدُ فإن الناس جميعاً يعرفون أنها ناقمة على المدير . . وأنها تضيء غرفتها بزيت البترول . . فإذا ما رأوا الزجاجات الفارغة إلى جانب النيران أيقنوا أنها هي الجانية !

وحين أهاب بالمحتشدين أن يخفّوا إلى انتشال خزانة المدير كان له من وراء ذلك غرض جهنمي . . كان يريد إبعاد التهمة عنه .

انطلق القوم صوب المكتب فرأوا ألسنة النيران تندلع منه بقوة وتصدّهم عن الدخول إليه .

وقال المحاسب :

ـ إن الدخول مستحيل ! . .

فهتف جاك جارود :

ـ أما أنا فسأحاول ! لا بد لي من انتشال الخزانة ! .

ـ ولكنك ستتعرّض لخطر شديد !

ـ سأكون حريصاً .

ووثب إلى داخل المكتب .

وإن هي إلاّ لحظات حتى تناهى إليهم صوته المتهدّج يقول :

ـ هنا جثة ! .

ثم برز ثانية من المكتب وهو يحمل جثة السيد لابرو فوضعها على الأرض وهو يتساءل :

ـ يا إلـــهي . . جثة من هذه؟

فهتف المحاسب :

ـ ربّاه ! إنها جثة السيد لابرو . . ! .

وانطلق جاك جارود ثانية إلى المكتب .

وبعد هنيهة تعالت من داخل المكتب صرخة داوية . . وتناهى إليهم صوته وهو يقول :

ـ أسرعوا إليّ ! إنني أختنق ! أنقذوني . . إني أختنق ! . .

ثم تضاءل الصوت وما لبث أن خمد .

ووثب بعض الرجال صوب المكتب ولكن اشتداد النيران صدّهم خائبين . . كما أن الجدار ما لبث أن انهار فسدّ السبيل إلى المكتب . . وراح بعضهم يقول لبعض :

ـ مسكين جاك جارود ! . . لقد ذهب ضحية شهامته !

وعلى رغم الجهود الهائلة المتواصلة التي بذلها رجال المطافئ فقد أتت النيران على المصنع ولم تبق منه شيئاً فاستحال ركاماً وجدراناً متهدمة .

وكان الجمهور المحتشد يتحدث في هذه النكبة ويتساءل عن سرها . وبدا المحاسب أشد القوم وطأة على السيدة فورتييه إذ كان لا ينفك يضرب كفاً بكف ويقول :

ـ تباً لهذه الأثيمة ! إنها هي التي أحرقت المصنع وكانت سبباً في مصرع السيد لابرو وجاك جارود ! . .

وهنا دنا منه رئيس الشرطة وقال يسأله :

ـ من أنت؟

ـ إنني محاسب المصنع .

ـ لقد فهمت من حديثك أنك تتهم أحداً فماذا تعني؟

ـ نعم . . إني أتهم بوابة المصنع . . السيدة جان فورتييه .

ـ ألديك دليل ضدها؟

ـ اختفاؤها ! إن فرارها في هذه اللحظة الحرجة هو في ذاته أقوى دليل على إجرامها ! وإني موقن أنها ما اشترت زيت البترول إلاّ لتحرق به المصنع .

ـ وما الذي يدفعها إلى ارتكاب هذه الجريمة؟

ـ حقدها على صاحب المصنع . . فقد أنذرها منذ يومين بالاستغناء عن خدماتها .

ـ وأين جثة القتيل الثاني فقد سمعتك تقول إنها قتلت رجلين؟

ـ القتيل الثاني يا سيّدي هو مراقب المصنع السيد جاك جارود . . لقد اقتحم المكتب المتأجج لينقذ خزانة المدير فعثر على الجثة

وأخرجها إلينا . . ثم ارتد إلى المكتب ثانية ولكن النيران أحدقت به فسمعناه يصرخ مستنجداً . . ولكن استحال علينا إنقاذه إذ تهدّمت بعض الجدران .

فقال رئيس الشرطة :

ـ حسناً . . سننقل الجثة إلى مخزن المركبات فإن النار لم تمتد إليه . . وهناك أتولى التحقيق المبدئي ريثما يحضر القاضي . .

وأمر من ثمَّ بعض رجاله بنقل الجثة .

ثم دعا إليه المحاسب وطرح عليه طائفة من الأسئلة عرف منها أن السيد لابرو مترمل وأن له ولداً في الثالثة من العمر يقيم عند عمته في الريف . . وأن السيد لابرو ذهب إلى زيارة أخته وولده ولا ريب أنه عاد بغتة ليلقى حتفه .

فقال رئيس الشرطة :

ـ ابعث إذاً ببرقية إلى أخت السيد لابرو أنبئها فيها بمصرعه .

ـ نعم يا سيدي .

وراح رئيس الشرطة يضع تقريراً تمهيدياً لتقديمه إلى قاضي التحقيق الذي سيتولى الأمر .

ـ ٧ ـ

حملت جان طفلها وانطلقت هائمة على وجهها صوب النهر . وكانت تتوقف عن السير خائفة مذعورة . وترسل بصرها من حين إلى آخر ناحية النيران المتوهجة فيشتد رعبها وتشتد رغبة في الابتعاد عن هذا الأتون المتأجج .

وكانت كلما أدركها الإعياء كلّما انطرحت على الحشائش تلتمس

الراحة . وضمت طفلها إلى صدرها وراحت تقبّله فينكمش المسكين إلى صدرها كأنما يجد في هذه القبلات ما يرد عنه لذعات البرد القارس .

وكانت لا تفتأ تقول لنفسها :

ـ ترى إلى أين أمضي . . ولم فررت هارية ! نعم . . إني أعلم أنهم سيتهمونني ! وقد انعدم الدليل الذي كنت أركن إليه لإثبات براءتي . . فلم أجد مفراً من الهرب .

وذكرت النظرة الوحشية التي رماها بها جاك جارود حين رأته يطعن مدير المصنع . . وترددت في سمعها عبارته حين قال لها في تلك اللحظة :

ـ ستلبسك التهمة من كل جانب ولا سبيل لك إلى إنكارها !

رباه ! ماذا فعل هذا الأثيم؟ وما الذي دبر؟

إنها هي التي ابتاعت البترول من الحانوت . وسيجدون الزجاجات الفارغة . وفرارها عقب الحادث . . والكلمات التي ألقتها إلى السيد لابرو حين قالت له إنك لن تلقى خيراً ! كل هذه شبهات وقرائن تدمغها بالاتهام !

وإذ طافت هذه الخواطر في ذهنها اشتدّت إمعاناً في الهرب .

أشرقت الشمس وهي لا تزال هائمة على وجهها .

وعلى بعد رأت شرطيين يقودان امرأة مكبّلة بالأغلال .

أدركها الرعب وانزوت خلف بعض الأشجار وهي تقول في نفسها :

ـ رباه ! أيكون هذا مصيري ! أأساق إلى السجن كما تساق هذه المرأة؟ إني بريئة لم أجن إثماً ، ومع ذلك أؤخذ بما اقترف غيري !

وفراري؟ إنه عمل ينطوي على الحماقة! كان ينبغي أن أبقى وأن أصيح بالشرطة : هو ذا القاتل فاقبضوا عليه!

والآن ما عساي أصنع؟ هل أعود ثانية؟ وهل أستطيع لو أني عدت أن أنفي التهمة عن نفسي؟!

وقطع عليها هذه التصوّرات صوت طفلها وهو يقول :

ـ أماه! إني جائع .

عصر الحزن قلب المسكينة وانهمرت عبراتها وغمغمت تقول :

ـ صبراً يا بنيّ! إذا ما وصلنا إلى القرية جئتك بالطعام .

ـ إني تعب يا أماه لا أقوى على السير!

فحملته من جديد وسارت به وهي تترنّح لشدة إعيائها .

وأخيراً لاحت لها مباني القرية فأرقدت طفلها على العشب وقالت :

ـ انتظرني هنا يا جورج حتى أعود إليك بالطعام .

ـ سأنتظرك يا أماه!

ـ ألا تخاف وحدك؟

ـ كلاّ . . فإن جوادي معي يدافع عني!

واحتضن جواده وأغمض عينيه وما لبث أن غرق في النوم . . فابتعدت عنه أمه وقلبها يتفجّع .

في غضون ذلك كان قاضي التحقيق قد حضر إلى المصنع وتولّى التحقيق وأمر بتفتيش المصنع تفتيشاً دقيقاً لمعرفة السبب في اشتعال النيران .

ورجع إليه رجال الشرطة يحملون زجاجات زيت البترول الفارغة .

وقال القاضي يسأل المحاسب :

ـ أرأيت هذه الزجاجات من قبل؟
ـ نعم . . فقد رأيت جان فورتييه تملؤها بزيت البترول .
ـ هل لك أن تذكر لي كلمات الوعيد التي ألقتها جان إلى صاحب المصنع؟
ـ نعم يا سيدي . . حين أنذرها بالاستغناء عنها قالت له : «احذر فإنك لن تلقى خيراً !» وهذا قول صريح في التهديد يا سيدي القاضي . . وكان سلوكها حياله يدل على الحقد وعلى أن البغض يتأجّج في صدرها .
ـ أتعتقد أن الانتقام وحده هو السبب في هذه الجريمة؟
ـ لا شك في ذلك يا سيدي .
ـ أكانت الخزانة فارغة؟
ـ بل كان فيها ما يقرب من مائتي ألف فرنك .
ـ أيعلم أحد سواك بذلك؟
ـ نعم جاك جارود وجان فورتييه .
وانفرجت أسارير القاضي وأيقن أنه يوشك أن يميط اللثام عن هذا السر . . واسترسل المحاسب يقول :
ـ نعم . . كان الاثنان يعلمان بالأمر . . ولكن ها هي النيران قد التهمت جاك المسكين حين حاول أن ينتشل الخزانة من النار .
وتابع القاضي تحقيقه . . ثم تحوّل إلى رئيس الشرطة وقال له :
ـ صدق ظني . . إنَّ الانتقام وحده لم يكن هو الدافع إلى الجريمة . . لقد كسرت الخزانة واستولت على المال ثم أشعلت النار في المصنع إخفاء لمعالم جريمتها . . وعند مغادرتها المكتب فاجأها السيد لابرو على غير انتظار فما كان منها إلاّ أن سدّدت إلى صدره هذه الطعنة القاتلة !

وقال رئيس الشرطة :

ـ وهل تستطيع امرأة أن تهشم خزانة حديدية؟

فانبرى المحاسب يقول :

ـ نعم . . فهي من طراز قديم يسهل كسره بأقل جهد .

فعاد رئيس الشرطة يقول :

ـ وما يدرينا أن النار لم تلتهم المال؟

فقال المحاسب :

ـ هذا محال يا سيدي . . فقد كان في الخزانة ثلاثة آلاف فرنك ذهباً . . فلو أنها بقيت في النار لانصهرت ولرأينا ذوبها !

وقال القاضي يسأل الطبيب :

ـ أعرفت نوع الأداة التي قتل بها السيد لابرو؟

ـ إنها في الغالب مدية كبيرة وقد أصابت القلب .

ـ ولكن ما الذي حمل جان على أن تتزوّد بهذه المدية وهي تعرف أن صاحب المصنع غائب في الريف؟ إني أعتقد أن لها شريكاً . . فإن امرأة لا تستطيع وحدها أن ترتكب كل هذه الجرائم .

ـ ربما جاءت بالمدية لتحطم بها الخزانة .

ـ هذا جائز .

واستدعى القاضي صاحبة حانوت البقالة فشهدت بأنها باعت لجان فورتييه منذ يومين أربعة لترات من زيت البترول .

ثم قصّت عليه ما كان من أمر جان وكيف أنها قالت لها إنها تتمنى أن تحصل على ألفين أو ثلاثة آلاف من الفرنكات .

وتداول قاضي التحقيق في الأمر مع رئيس الشرطة وانتهى به الأمر أخيراً إلى إصدار أمره بالقبض على جان فورتييه .

إنّ التهمة لاصقة بها ومحال أن تفنّد الأدلة التي أخذتها من كل ناحية .

ـ ٨ ـ

في منتصف الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم نفسه كان القطار المسافر إلى الهافر يضم في أحد صالوناته رجلاً تدل هيئته على أنه من رجال الأعمال الأثرياء .

وكان ناشراً أمامه أوراقاً ينظر فيها باهتمام وقد استغرقه التفكير ونمت أساريره عن الاغتباط .

أمّا هذا الرجل فما كان إلاّ بطلنا جاك جارود وقد تنكّر وصبغ شعره . . وما كانت الأوراق المنشورة أمامه إلاّ رسومات الاختراع الذي سرقه من خزانة السيد لابرو .

والواقع أنه حين اقتحم جارود النيران زاعماً أنه يبغي انتشال الخزانة بادر بالخروج من باب المكتب الخلفي بعد أن أرسل صرخة استغاثة داوية حين رأى الجدار ينهار حتى يوهم القوم المحتشدين أن الجدار سقط فوقه وأنه ذهب طعمة للنار .

تسلّل جارود من الباب الخلفي وقد اتخذ من الظلمات ستراً وانطلق إلى غرفته والقوم يظنون أنه ذهب ضحية شهامته وشجاعته .

وقد أمضى سحابة النهار منزوياً في الغابة حتى لا يقع عليه بصر إنسان . . ولـمّا أمسى المساء التالي تسلّل من مخبئه وسافر إلى الهافر ونزل في أحد الفنادق متخذاً اسم بول هرمان .

إنه اسم صديق له من العمال كان يشاطره غرفته ثم نزل به المرض فنقل إلى المستشفى . . وهناك أدركته المنية . . فما كان من جاك جارود إلاّ أن احتفظ بأوراقه الشخصية .

والآن أصبح في وسعه أن يستعمل هذه الأوراق وأن يتخذها درعاً يرد بها شبهات الشرطة . . وإن ارتاب أحد في أنه ليس بول هرمان أبرز أوراقه الشخصية فتكون الدليل الدامغ الذي يقطع كل شبهة أو ريبة .

حين جاءت جان فورتييه بالطعام أصابت منه هي وطفلها كفايتهما ثم استلقى الاثنان على العشب واستغرقا في النوم .

وحين استيقظا كانت أشعة الشمس قد غمرت الأرض وانجابت العاصفة العاتية .

وغمغم جورج يقول :

ـ أماه . . إني جائع .

فضمته إلى صدرها وامتلأت عيناها بالعبرات . . إذ تصوّرت المصير المفجع الذي ينتظر ولدها من عري وتشرد .

وراحت تقدّم إليه الطعام وتحبسه عن نفسها لأنها كانت تعلم أن القليل الذي لديها لا يسد جوع اثنين .

وتتابعت الساعات وهما منزويان في الغابة إذ رأت من الحكمة أن لا تدخل القرية في وضح النهار .

وهبط الليل واشتملت الظلمة الأرض .

وقامت جان تجر رجليها جراً وتنتزع قدميها من الأرض بجهد كأنما دُقّتا إليها بالمسامير . . وسارت صوب قرية شيفري القريبة .

ثم اقتربت جان من منزل كاهن القرية الأب فليكس لوجييه وفي إعياء شديد رفعت يدها تطرق الباب .

وأقبلت الخادمة مسرعة تنظر من الطارق . . فتحت الباب ونظرت إلى جان وهي تحمل جورج والإعياء باد على وجهها .

وقالت جان بصوت خافت يدل على الضعف :

ـ أيمكنني أن أقضي الليل عندكم . .

ـ بكل تأكيد . . لحظة واحدة حتى أنبئ الأب .

وبعد لحظات جاء الأب بنفسه ليجد جان طريحة على الأرض وقد أدركها الإغماء .

ونادى الكاهن أخته كلاريس . . ونقلا المرأة المسكينة إلى داخل البيت . . وما زالا بها حتى أفاقت .

وقال الكاهن :

ـ أغلب ظني أن الجوع هو سبب هذا الإغماء .

وحمل إليها مع أخته قدراً كافياً من الطعام . . ومضى الاثنان يتحدثان إليها برفق وعطف حتى شعرت أنها بين أهلها وفي كنف قوم يحبونها ويعطفون عليها .

وتناولت جان يد الأب فانهالت عليها لثماً وتقبيلاً وقالت :

ـ أشكرك يا أبتاه ! أشكرك بكل جوارحي . .

ـ ٩ ـ

حين انتهى نبأ تلك الفاجعة الأليمة إلى أخت السيد لابرو حضرت إلى مدينة ألفورتفيل على عجل وقد استولت عليها الدهشة .

كانت المسكينة لا تصدق ما رأت أو سمعت ! كيف؟ . . منذ أربع وعشرين ساعة كان أخوها في دارها يتحدث إليها سليماً معافى ويكاشفها بمشاريعه المستقبلية وما ينوي أن يفعل باختراعه لمضاعفة ثروته .

وفجأة تنهار هذه الأحلام . . يُقتل أخوها . . ويحترق مصنعه . .

وتذوب الثروة الهائلة فلا يبقى لها أثر!

وإذ أنبأها المحاسب ريكو أن جان فورتييه هي الجانية هتفت المرأة الكريمة القلب المفجوعة :

ـ ما هذا الذي تقوله يا سيد ريكو!؟ لم يكن أخي ينشد إلاّ هناء هذه المرأة . . وقد سألني أن أتخذها سميرة لي . . فكيف يمكن أن تقدم على هذه الجرائم! هذا مستحيل! لا . . لا ريب أن القضاء أخطأ . . وطالما أخطأ القضاء في أحكامه!

ـ ولكن الأدلة ضدها دامغة قوية!

فهزت كتفيها هزة من تنكر هذه الأقوال وقالت :

ـ إن قلبي يحدثني أنها بريئة لم تجن ذنباً!

وراح المحاسب يتحدث إلى السيدة برتان عن مركز أخيها المالي بعد احتراق المصنع . . إن المصنع مدين بمئة ألف فرنك . . ولكن شركات التأمين ستتولى دفع هذا الدين من قيمة التأمين .

فقالت السيدة برتان :

ـ أما كان لأخي أموال مودعة في المصارف؟

ـ كلاّ . . فقد سحبها كلها من المصرف قبيل مصرعه وأودعها خزانته إذ كان في نيته أن يشتري آلات جديدة لتنفيذ اختراعه الأخير .

ـ وأين هذا المال؟

وروى لها ما كان من سرقة هذا المال .

فقالت الأخت الثكلى :

ـ إذاً فلم يبق لابن أخي شيء من المال؟

ـ نعم . . عدا الأرض التي كان المصنع مقاماً فوقها . . ولكن من

العسير بيعها .

فقالت السيدة برتان :

ـ إن لوسيان سيقيم في كنفي وسأتولى الإنفاق عليه وأجعل منه رجلاً يحيي ذكرى أبيه .

بعد أن ووري السيد لابرو مقره الأخير سافرت أخته برتان إلى باريس لمقابلة قاضي التحقيق .

استهلّ القاضي حديثه معها بأن أبدى أسفه للنكبة التي نزلت بها ووعدها بالاقتصاص من القتلة .

فتنهدت بأسى وقالت :

ـ وما يجديني القصاص !؟ ليس في ذلك ما يعيد إليّ أخي المسكين .

ـ هذا صحيح بكل أسف . . ولكن ينبغي ألاّ يذهب دمه هدراً !

وقالت السيدة برتان :

ـ ولكن هل أنت موقن يا سيدي من أن جان فورتييه هي القاتلة؟

ـ ليس لدي شك في هذا يا سيدتي .

ـ ولكن كيف يمكن لامرأة أن تقدم على اقتراف هذه الجرائم كلها؟ !

ـ إن الحقد يا سيدتي يبعث القوة والجرأة في أضعف النساء .

ـ وعلام الحقد وقد كان أخي شديد الاهتمام بمستقبل هذه المرأة؟

ـ يلوح لي أنك تجهلين أنه أنذرها بالطرد منذ يومين .

ـ لا أجهل ذلك يا سيدي . . ولكني أعرف في الوقت ذاته أنه كان شديد الاهتمام بأمرها . . وقد سألني أن أتخذها رفيقة لي وأقيمها عندي . . وقبلت ذلك فعلاً . . وهو ما كان ينوي طردها

فعلاً وإنما أراد إقصاءها عن عمل يعتقد أنها لا تصلح له .

فقال القاضي :

ـ ولكن . . أكانت جان تعرف بما ينوي أخوك من أجلها؟

ـ لا أظن ذلك .

ـ إذاً فلا شبهة في أنها كانت حاقدة عليه . . وليس لديّ ذرّة من الريبة في أنها هي الجانية . . ومع ذلك فأي دليل أقوى من فرارها عقب الحادث !؟

فهزّت السيدة برتان رأسها وقالت :

ـ لا شك أن فرارها خليق أن يثير الشبهات ! ولكن ما يدريك أنها هربت رعباً وفزعاً؟

ـ وما الذي يفزعها إن كانت بريئة؟ ! ثم إن شراء زيت البترول هو في ذاته دليل لا ينقض على اقترافها هذه الجريمة .

فسكتت السيدة برتان هنيهة ثم قالت :

ـ إذاً فالتهمة ثابتة عليها؟

ـ كل الثبوت .

ـ ألم يتطرق الشك إلى ذهنك في شأن سواها من العمال في المصنع؟

فرماها القاضي بنظرة فاحصة وقال :

ـ سيدتي . . إن هذا الإلحاح في نفي التهمة عن جان فورتييه لا يمكن أن يأتي عفواً . . لا ريب أنه قامت في نفسك شكوك ضد سواها . . فأفصحي إذاً وكاشفيني بكل هواجسك .

ـ أصبت يا سيدي . . عندما زارني أخي بالأمس أنبأني أنه في سبيل اختراع آلة جديدة للصقل تدرّ عليه الملايين . . فهل من

المستبعد أن تكون هذه الجريمة المزدوجة قد ارتكبت ابتغاء سرقة هذا الاختراع؟

ـ وهل أطلع أخوك أحداً على سر اختراعه؟

ـ نعم . . أطلع أحد مراقبي المصنع . . وسأله المعونة في صقل الاختراع ووعده بأن يمنحه خمس الأرباح .

ـ إذاً فأنت تتهمين هذا المراقب بأنه هو الجاني؟

ـ هذا رأيي يا سيدي .

ـ إنه رأي له وجاهته على أية حال . . وينبغي أن يؤخذ بالاعتبار ولكن من هو هذا المراقب؟

ـ إنه يدعى جاك جارود .

فهزّ القاضي رأسه وقال :

ـ جاك جارود؟ إذاً فقد انهارت شكوكك يا سيدتي !

ـ ولم؟

ـ لأن جاك جارود كان مثالاً للشجاعة والشهامة . . لقد التهمته النيران حين اقتحمها محاولاً أن ينتشل خزانة أخيك .

ـ حقّاً . . ما كنت أعلم ذلك . . إني آسفة إذ جرى لساني باتهامه .

وبعد حديث قصير انصرفت السيدة برتان بعد أن أكد لها قاضي التحقيق أن دم أخيها لن يذهب هدراً .

ـ ١٠ ـ

لقيت جان فورتييه في بيت الأب لوجييه من العطف ما بدد بعض أحزانها . . أصابت طعاماً شهياً . . وراحة بعد إعياء . . ونوماً

بعد أرق . . وأمناً لطفلها .

وفي قاعة الاستقبال جلس الأب لوجييه يتحدث في شأنها إلى أختـه كـلاريس وإلى صـديق له من المصـوّرين النابغين يدعى إتيين كاستل .

قـال الأب إنه علـم من هذه المنكودة أنهـا قـادمـة من ألفـورتفـيل ولكنها لم تذكر له سبب هجرتها . . وقال معقّباً :

ـ ولا ريب عندي أن الفاقة هي التي دفعتها إلى الرحيل . . فإن هيئتها تنم عن سلامة الطوية . . وفي نيتي أن أجد لها عملاً أو أن أزوّدها بقدر من المال .

وفـيـمـا كـانوا في هذا الحـديث إذ أقـبل سـاعي البـريد يحـمل الصحف .

نشـر الأب إحدى الصحف وراح يقـرأ . . وطالعت عيناه عنواناً بارزاً عن حريق المصنع .

وما إن قرأ فيه سطوراً حتى هتف :

ـ ربّاه . . ! ما معنى هذا؟ !

فالتفتت إليه أخته والمصوّر يسألانه الأمر . . فروى لهما ما كان من حرق المصنع وقتل صاحبه واتهامهم من تدعى جان فورتييه بهذه الجريمة وكيف أنها فرّت هاربة عقب الحادث مع طفلها جورج .

دهش القـوم لذلك دهشاً شـديداً . . إن أوصـاف الجانية تنطبق تمام الانطباق على هذه المرأة التي لاذت بهم . . ! وابنها يدعى جـورج . . كابن هذه المرأة . . !

ومـا عـاد لديهم أدنى شك في أن هذه المرأة هي تلك المجرمة التي تطلبها الشرطة في كل مكان .

قال المصوّر :

هذا عجيب . . فإن لها وجه شريفة طاهرة ! .

وقال الكاهن :

ـ مهلاً . . إنها في كنفنا ورعايتنا الآن فليس من اللياقة أن نبادر إلى اتهامها قبل أن نتبيّن حقيقة أمرها . . وسأتحدث إليها برهة .

فقالت أخته :

ـ وما الذي تنوي أن تفعله إذا كانت هي المجرمة المنشودة !؟

سأزوّدها بقدر من المال وأسألها الرحيل فما كنت لأشي بامرأة لاذت بسقف بيتي وطلبت حمايتي ! . .

حين استيقظت جان من نومها دخل عليها الأب لوجييه مع أخته والمصور فشكرته على ما لقيت من عطفه وحمايته . . فقال لها :

ـ وهل صار في وسعك مواصلة سفرك الآن يا ابنتي؟ . .

فتضرج وجهها احمراراً وغضت من بصرها وقالت :

ـ الحق يا سيدي أنني ما هبطت هذه القرية إلاّ وفي نيتي أن أقيم فيها . . وقد كنت على وشك أن أرجوك أن تجد لي عملاً أعول به طفليّ ! . .

ـ ألك طفلان إذاً؟

ـ طفلة تبلغ العام أقمتها عند مرضع في الريف . . وجورج هذا .

ـ وأين زوجك؟ . .

ـ لقد مات . .

ـ ولكن كيف ألتمس لك عملاً في هذه القرية قبل أن أعرف اسمك وقبل أن أطّلع على أوراقك الشخصية؟

سرت الرعدة في أوصال المسكينة . . صدق الأب لوجييه . . ليس

في وسعها أن تكتم أمرها طويلاً .

وفطن الأب إلى ما عراها من اضطراب وقال يسألها :

ـ ما اسمك يا ابنتي؟

ـ جان .

ـ وما لقبك؟

ـ فورتييه .

فقال الأب على عجل :

ـ إذاً فأنت قادمة من ألفورتفيل؟

رفعت جان بصرها إلى الأب بنظرة مليئة بالذعر وقالت :

ـ فأنت عالم بكل شيء إذاً؟

ـ نعم . . إني أعلم أيتها المسكينة أن الشرطة تطلبك في كل مكان .

ـ وأية تهمة يوجهون إليّ؟

ـ إحراق المصنع وقتل صاحبه !

فهتفت بصرخة داوية :

ـ أُشهد الله على أني بريئة لم أجن ذنباً ! أقسم بابني هذا الذي لا أحب سواه في العالم أني لم أرتكب هذه الجريمة .

وكانت نبرات صوتها متهدجة . . حافلة بالصدق .

وتبادل الكاهن وأخته والمصور نظرات تدل على فرط ما نالهم من تأثر .

وقال الكاهن مسترسلاً :

ـ ولم هربت إذاً ما دمت بريئة؟

ـ لم هربت؟ نعم . . لم هربت؟ هذا هو السؤال الذي لا أكاد أعلم له جواباً ! كانت الريب والشبهات تكتنفني من كل جانب . . وكان لديّ دليل قاطع على براءتي . . وحين تفقّدته ولم أجده طغى عليّ اليأس فانطلقت هاربة .

ـ وأين ذهب هذا الدليل؟

ـ لا أدري . . وإن لم يكن لديّ شك الآن في أن النار التهمته عندما اشتعلت في غرفتي .

ساد الصمت برهة . . ثم قال الكاهن :

ـ هل لك يا ابنتي أن تروي لي قصتك كلها؟

وراحت جان تحدّثه بكل ما كان من أمرها . . مذ مات زوجها حين انفجرت الآلة فقتلته . . إلى أن فرّت هاربة عقب الحريق حين رأت جاك جارود يقتل صاحب المصنع .

ولمّا فرغت من قصتها قال الأب لوجييه :

ـ قصة عجيبة . . ولكني أصدقك . . إني أعلم أنك لا تكذبين . . ولكن الشيء الذي أعياني فهمه هو موت جاك جارود .

فقالت جان في دهش :

ـ وهل مات جاك جارود؟

ـ نعم . . فقد جاء في الصحف أن . .

وروى لها ما قرأ . .

فهتفت جان :

ـ هذه خدعة يا سيدي ! جاك جارود يقدم على هذا العمل المنطوي على الشهامة؟ ! إني أعرفه يا سيدي . . إنه أشدّ الأنذال خسّة ودناءة !

ـ ولكن الشرطة تحققت من موته !

ـ تحققت من موته . . ويلاه ! . إذاً فإني هالكة ! إذا كان قد مات فلا سبيل إلى إثبات براءتي ! لقد كنت أرجو أن تحمله المواجهة على الإقرار بما فعل !

فقال الأب :

ـ إني موقن من براءتك يا ابنتي وإن كان فرارك قد أثبت التهمة عليك . . وأرى أن تمضي إلى الشرطة فتسلمي نفسك وتحاولي أن تثبتي براءتك . . فقد يكون هذا أجدى عليك لأنك لن تستطيعي أن تظلي حرّة طليقة طويلاً .

ـ وما يكون من شأن ولدي يا أبتاه إذا ما ألقيت في السجن !؟ إني لا أطيق فراقه !

ـ هذا ما لا مفر منه يا ابنتي . . لا بد من هذا الفراق عاجلاً أو آجلاً !

وانهمرت العبرات من عينيها وراحت تقول :

ـ ويلاه . . أقضي عليّ بأن لا أرى ابني . . وابنتي التي عند المرضع في الريف !؟

فقال لها الأب يسرّي عنها :

ـ ولكنك ستثبتين براءتك وتعودين إلى ولديك !

وأقبل صغيرها جورج حين رآها تبكي وألقى بنفسه بين ذراعيها وهو يقول :

ـ لم تبكين يا أماه !؟ دعيني أقبلك !

شدت ذراعيها حول بدنه الصغير وعصر الحزن قلبها وقلوب أولئك الذين شهدوا هذا الموقف .

وفي هذه اللحظة قرع الباب .

ذعرت جان لـمّا سمعت القرع واللغط الذي يصحبه . . وهتفت بجزع :

ـ رباه ! لقد جاءوا ! لقد اهتدوا إلى مكاني !

وضمّت طفلها إلى صدرها كأنما تنشد منه أن يحميها وأن يرد عنها القادمين !

فتح الباب ودخل العمدة يصحبه نفر من رجال الشرطة .

تقدم من الكاهن وحيّاه باحترام واعتذر إليه عن تهجمه وقال :

ـ أنا قادم باسم القانون يا سيدي الأب .

ـ أعلم ذلك . . لاعتقال امرأة تدعى جان فورتييه !

ـ هو ذاك يا سيدي الأب . . إنها متهمة بالإحراق والقتل والسرقة !

فتقدّمت جان خطوة نحو العمدة وصاحت :

ـ هذا كذب ! إني بريئة !

فقال لها العمدة :

ـ أنت جان فورتييه بوابة مصنع لابرو؟

ـ نعم .

ـ فإني أقبض عليك باسم القانون إذاً .

تهدج صوتها واشتد بها اليأس وصاحت :

ـ اقبضوا علي ! واحكموا بالإعدام إن شئتم ! ولكن هذا السبب معناه أنني الجانية ! إن أحكامكم لن تهدم براءتي أو تشوّهها . . إن ذلك شهيد على براءتي . .

اقترب منها أحد الجنود وهمّ بأن يضع القيد الحديدي في يديها فارتدت مذعورة إلى الوراء وهتفت :

ـ كلاّ . . لا تقيّدوني !

فقال لها الكاهن :

ـ امتثلي يا ابنتي . . فما تجديك المقاومة !

ومدت يديها إلى القيد .

وبكى طفلها ! راح ينشج ويعول . . وينظر إلى أمه من خلال عينين ملأتهما العبرات .

وحين سار بها الجند تعلق بثوبها وهو يقول :

ـ أماه . . لا تدعيني ! إني خائف ! لا تذهبي !

فقالت :

ـ لا تبك يا بني . . يمكنك أن تأتي معي !

فقال رئيس الشرطة :

ـ كلاّ . . هذا محظور .

فاشتد يأسها وصاحت :

ـ ماذا؟ أتباعدون بيني وبين ولدي !؟

ـ إنك ستذهبين إلى السجن . . أما ابنك فسيرسل إلى الملجإ !

شحب وجهها حين سمعت هذه الكلمات وصاحت :

ـ الملجأ ! ابني يودع في الملجإ ! محال ! الملجأ !

وتحوّلت إلى الكاهن . . بسطت إليه يدها بتوسل وضراعة وصاحت :

ـ أبي . . إنهم سينزعون مني ابني ويودعونه الملجأ . . سألتك بالله أن تفهمهم أن من المحال أن تفارق أم طفلها !

فقال الكاهن :

ـ أذعني، يا ابنتي فالمقاومة غير مجدية . . ولكن ابنك لن يرسل إلى الملجإ ! سأبقيه عندي وأتولى أمره حتى تثبتي براءتك وتعودي إليه ! أما إذا حكم عليك بالسجن فسيظل جورج في رعايتي . . ومحال أن أتخلى عنه . . اطمئني يا ابنتي !

ودنت منها كلاريس أخت الكاهن وقالت :

ـ ثقي يا أختاه أن ابنك سيجد فيّ أمّاً ريثما تعود إليه أمه الحقيقية .

وانحدرت العبرات من عينيّ جان وهتفت :

ـ ربّاه ! أقضي عليّ بأن لا أرى ابني !؟ أي قلب يمكنه أن يحتمل هذه النكبة !؟ لا أبالي باتهامات تنهال علي . . ولا أبالي بالسجن ألقى في ظلماته . . أما أن يفرّق بيني وبين ولدي . . !

وكان الموقف أليماً مفجعاً . . لم يكن قلبها وحده هو الذي يتفطر . . وإنما تفطّرت معها قلوب جميع الحاضرين . . وحتى أفراد الشرطة لم يملك بعضهم أن ذرف الدموع !

وحملت كلاريس الطفل وكان لا يزال يبكي وقال له الكاهن :

ـ إن أمك مسافرة يا بني . . وستعود عاجلاً وتأتيك بلعبة جميلة .

ـ وهل أبقى هنا؟

ـ نعم يا بني . . وسنلاعبك كثيراً .

ـ إذا كانت أمي تريد أن أبقى هنا فسأبقى !

فقالت جان وقلبها يتوجع :

ـ نعم . . ابق هنا يا بني !

ـ على شرط أن تعودي عاجلاً .

ـ نعم . . سأعود عاجلاً .

ثم تحولت إلى أخت الكاهن وقالت لها :

ـ خذيه يا سيدتي . . اجعليه كأنه ولدك ! أحبيه . . وذكّريه دائماً بأمه وعلّميه أن يحبها . . قولي له إنها بريئة لم تجن ذنباً !

ثم ضمّت ولدها إلى صدرها وانحنت عليه بالقبلات وهتفت :

ـ بنيّ . . إنّ أمك تفارقك قهراً عنها . . لو أن الأمر كان بيدها لظلّت آناء الليل وأطراف النهار تضمّك إلى صدرها وتغمرك بقبلاتها . . إني أحبك فلا تنسني ! لا تنسني !

ثم أولته ظهرها وانطلقت مسرعة قبل أن تخونها قواها .

وفي ركن من الفناء كان المصور إيتيين واقفاً يتأمّل هذا المشهد في سكون .

ولما انصرف القوم التفت إلى الكاهن وقال :

ـ سأجعل من هذا المشهد لوحة خالدة .

وأخرج مفكرته ورسم فيها خطوطاً ودوّن بعض المذكرات .

مثلت جان فورتييه أمام قاضي التحقيق فقال لها :

ـ والآن بم تجيبين عن هذه التهمة الثلاثية الموجهة إليك؟

ـ ليس لدي إلاّ جواب واحد . . هو أني بريئة .

ـ ولم فررت هاربة إذاً ما دمت بريئة !؟

فلاذت بالصمت ولم تجب .

فعاد يقول :

ـ تكلمي . . ما بالك لا تجيبين؟

ـ وما الجدوى وأنت لن تصدق حرفاً مما أقول؟

ـ هذا لأنك تكذبين !

ـ إني لا أنطق بغير الحقيقة . . ولكن الأدلة كلها تؤيد التهمة

ضدي .

ـ أتنكرين إذاً أنك قتلت صاحب المصنع؟

ـ بلا ريب .

ـ وهل تنكرين أنك كنت حاقدة عليه؟

ـ طبعاً . . إذ ما الذي يدعوني إلى الحقد عليه؟

ـ لقد طردك من مصنعه .

ـ إنه لم يطردني يا سيدي . . لقد وعدني بأن يجد لي عملاً آخر حين أدرك أني لا أصلح لحراسة الباب .

ـ وهل تنكرين أنك أنت التي أحرقت المصنع؟

ـ كل الإنكار .

ـ وما دليلك على براءتك؟

ـ لا دليل لديّ .

ـ ولكن الأدلة قائمة تثبت أنك أنت الجانية . . أما اشتريت من زيت البترول قدراً كبيراً في يومين متتاليين !؟

ـ هذا صحيح .

ـ وقد وجدت الزجاجات فارغة في ورشة النجارة وفي المكتب .

ـ إنها إذاً مكيدة دُبِّرت للإيقاع بي !

ـ وقد كسرت الخزانة وسرقت ما فيها من أموال فلمّا فاجأك السيد لابرو لم تترددي في قتله .

فقالت بإصرار :

ـ أنا لم أحرق . . ولم أسرق . . ولم أقتل !

فضحك قاضي التحقيق هازئاً وقال :

ـ وبأية حجة تلتمسين إقناعي !؟ أتحسبينني غراً ساذجاً !؟

ـ كنت أتوقع منك هذا من قبل يا سيدي ! نعم . . إني أعلم أنك لن تؤمن بما أقول .

ـ ووعيدك للسيد لابرو . . أتنكرين أنك توعدته قبل الحادث بأن قلت له إنك لن تلقى خيراً بعد طردي !؟

ـ نعم قلت له هذا . . ولكني لم أكن أرمي إلى الوعـــيـــد . . قصدت أن أقول إن اضطهاد أرملة مسكينة مثلي لا يمكن أن يكون نذير خير . . إنها كلمات عادية يجري بها اللسان دائماً دون أن تحمل معنى الوعيد .

ـ ولكنك كنت تعلمين أن في خزانته مالاً إذ كنت حاضرة عندما جاءه المحاسب .

ـ هذا صحيح يا سيدي . . ولكن أما يعلم الإنسان بوجود مال إلاّ أقدم على سرقته؟ !

فقال القاضي وهو ينظر إليها بتهكم :

ـ وفرارك !؟ إنه وحده دليل قاطع على إجرامك !

ـ بل دليل على ضعفي . . فقد أفزعني ما سمعت من القاتل .

ـ ويحك . . أتريدين أن تقولي إنك تعرفين القاتل؟

ـ بل رأيته وهو يسدد الطعنة القاتلة إلى السيد لابرو . .

ـ ومن يكون هذا القاتل؟

ـ جاك جارود مراقب المصنع !

فقهقه القاضي ضاحكاً وقال :

ـ أما كان في وسعك أن تتهمي رجلاً آخر !؟ أما وجدت غير ذاك الذي مات شهيد مروءته وشهامته؟

ـ لقد بلغني أنه مات .

ـ إذاً كيف خطر لك أن تتّهميه بعد ذلك؟

ـ لأن تلك هي الحقيقة .

ـ وما برهانك عليها؟

ـ كان لدي برهان قاطع .

ـ وأين هو؟

ـ التهمته النيران فيما التهمت .

فضحك هازئاً مرة أخرى وقال :

ـ عـجـبـاً لك . . أتريدين مني أن أصـدق كل حـرف يجـري به لسانك فإذا سألتك البرهان والدليل عجزت وقصرت؟ !

ـ هل لك يا سيدي القاضي أن تسمع حكايتي كلها؟

ـ تكلمي .

فراحت تروي له قصتها كما روتها للكاهن من قبل .

ولكن إذا كـانـت جـان قـد لقيت من الكاهن إيماناً وتصـديقـاً فـمـا لقيت من قاضي التحقيق إلاّ إنكاراً وسخرية .

وحين فرغت من قصتها قال لها :

ـ ينبغي أن أشهد بأن لك خيالاً خصباً رائعاً !

ومع ذلك فقصتك الملفّقة تهدم نفسها بنفسها . . تقـولين إن جاك جارود بعث إليك بكتاب فيه الدليل القاطع على براءتك . . فما كان مصير هذا الكتاب؟ ألقيته على الأرض . . فهل هذا ما يفعله المرء برسالة لها هذه الخطورة؟

وتقولين إن السيد لابرو كان شديد العطف عليك وإنك كنت غير حـاقدة عليه . . ومع هـذا لم تحاولي أن تمدي يداً إلى إنقـاذه وأنت

ترين القاتل يسدّد إليه الطعنة المميتة !؟

ثم إنك اخترت لتوجيه اتهامك رجلاً ميتاً حتى لا ينقض كلمة مما تقولين !

كلاّ . . يا سيدتي . . إن هذه القصة الملفقة وإن بلغت من الحبكة والإتقان حداً عظيماً إلاّ أنها لا يمكن أن تقنعني !

فهتفت المسكينة بيأس :

ـ لا دليل لديّ على براءتي . . ولكني أتوسل إليك أن تؤمن بأني لا أنطق إلاّ بالحقيقة .

فقال لها القاضي :

ـ ألا ترين أنه يحسن بك أن تقري بالحقيقة بدلاً من هذه المداورات والمحاورات التي لن تجديك نفعاً والتي قد تزيد مركزك سوءاً وحرجاً !؟

ـ ولكنها الحقيقة هي تلك التي أكاشفك بها يا سيدي !

فأدركته السآمة وقال :

ـ إذاً فأنت ما زلت متشبثة بالإنكار؟ ! هذا شأنك .

ودق الجرس وأمر بإرسالها إلى السجن .

بعد أيام مثلت جان فورتييه أمام المحكمة .

كانت الأدلة دامغة يزاحم بعضها بعضاً . . أمّا المسكينة فلم يكن لديها دليل نفي واحد . . وكانت قصتها في رأي الجمهور والقضاة أشبه برواية خيالية أوحى بها خيال خصب .

وأخيراً حلّت اللحظة الرهيبة . . . ونطق القاضي بالحكم . .

السجن المؤبد !

وأطلقت المسكينة صرخة داوية وترنحت مغمى عليها .

صرخة أودعتها أحزانها الساحقة . . أودعتها حبها الراسخ لذلك الصغير الذي حيل بينها وبينه . . مدى الحياة .

- ١١ -

كانت الباخرة لوردمير تشق البحار صوب البلاد الأميركية وعلى متنها جاك جارود . . وقد اتخذ لنفسه اسم بول هرمان .

وجاء أحد ضباط الباخرة عقب إقلاعها وراح ينادي بأسماء ركاب الدرجة الأولى ويدفع إلى كل واحد أوراقه الشخصية .

وكان جارود مستنداً إلى الحاجز مرسلاً البصر إلى البحر وهو يفصل بينه وبين تلك البلاد التي ارتكب فيها جريمته الثلاثية .

على أنه كان من حين إلى آخر يختلس النظر إلى كهل تدل سمته على أنه أميركي الجنسية . . وكانت برفقته ابنته الحسناء .

ونطق الضابط باسم نيومي مورتيمر والآنسة مورتيمر فلبى الكهل وابنته النداء ثم دفع إليهما أوراقهما .

وأخيراً نطق باسم جاك جارود ودفع إليه الأوراق .

وكان بين ركاب الدرجة الثانية شاب يرقب ركاب الدرجة الأولى بفضول ودون قصد معين . . وكان يدعى أوفيد سوليفر .

ولكن حين سمع اسم بول هرمان سرت في أوصاله رجفة وقال في نفسه :

ـ عجباً ! بول هرمان ابن خالي ! . . لقد حسبناه ميتاً فإذا هو حي يرزق !

وأرسل بصره إلى جاك جارود في نظرة فاحصة . . ثم قال في نفسه :

ـ هذا عجيب! إني لم أر ابن خالي إلاّ مرتين . . ومع ذلك فلا أرى بينه وبين هذا الرجل إلاّ شبهاً ضئيلاً! ولكن ما يدريني أنهما رجلان مختلفان وإن كانا يحملان اسماً واحداً!؟

تروى أوڤيد سوليفر في الأمر برهة ثم قال في سرّه :

ـ لا بدّ لي أن أتبيّن أمر هذا الرجل! أهو حقاً ابن خالي!؟ ولكن كيف السبيل إلى الاتصال به وركاب الدرجة الثانية محظور عليهم أن يصعدوا إلى جناح الدرجة الأولى؟

فلأبعث إليه إذاً برسالة أدعوه فيها إلى مقابلتي .

وغادر مقصورته وصعد إلى متن السفينة ووقف عن كثب من حاجز الدرجة الأولى . .

واتفق في هذه اللحظة أن أقبل الأميركي نيومي مورتيمر فأشار إليه أوڤيد وقال :

ـ سيدي . . أتسمح بأن تسدي إليّ خدمة؟

ـ بكل ارتياح .

ـ إن بين ركاب الدرجة الأولى ابن خال لي كنّا نحسبه ميتاً . . فهل لك أن تدعوه إلى مقابلتي إذ محظور علينا نحن ركاب الدرجة الثانية أن ننتقل إلى الجناح الخاص بكم؟

ـ بكل ارتياح . . وما اسم ابن خالك هذا؟

ـ بول هرمان . . أمّا أنا فأدعى أوڤيد سوليفر .

ـ حسناً . . سأدعوه إليك إذاً .

ومضى الأميركي إلى مكتب الإدارة وعهد إلى أحد الخدم بأن يحمل الرسالة إلى من يدعى بول هرمان .

ولـمّا أفضى الخادم إلى جاك جارود بالرسالة التي جاء يحملها امتقع وجهه وقال :

ـ ولكني لا أعرف أحداً بهذا الاسم؟ !

ـ إنه من أهالي ديجون يا سيدي وهو يقول إنه ابن خالك . . وكان يحسبك ميتاً .

فهتف جاك جارود :

ـ آه . . ابن عمتي . . أوڤيد سوليفر . . هنا . . إني ذاهب إليه .

ومضى إلى غرفته مسرعاً فراجع أوراق تحقيق الشخصية الخاصة ببول هرمان ليتبيّن ما فيها من أنساب وألقاب . . وأيقن أن بول هرمان ينحدر من أسرة سوليفر حقاً .

ثم راح يقول في نفسه :

ـ وما عساي أن أفعل الآن؟ ! إذا تخلّفت عن لقائه فربما أثرت شبهاته . . وإذا ذهبت فقد يتبيّن أني مدّع كاذب . . ومع ذلك فمن الخير أن أذهب . .

فقد كانت الجرأة الشاذة قاضية على ما قد يهجس بنفسه من وساوس .

ومضى إليه بغير تردد .

قدّم كل من الرجلين نفسه إلى صاحبه وذكر اسم أسرته التي ينتسب إليها . . فهتف أوڤيد :

ـ إذاً فأنت ابن خالي ! لقد كنّا نحسبك ميتاً ! .

ـ وكيف جاءكم هذا النبأ؟ . .

ـ هذا ما جرت به الألسن في بلدتنا منذ خمسة أعوام . . هبط ديجون أحد العمال قادماً من پاريس وأنبأ أمك بأنك مت في المستشفى . . فسحقتها الصدمة وأصيبت بحمى شديدة ما لبثت أن قضت عليها . . وفي غمرة هذه النكبة لم يخطر لأحد أن يتصل

بالمستشفى ليتبيّن الحقيقة . . ولا ريب أنك علمت بموتها .

ـ نعم . . لقد بلغني النبأ فحزنت لذلك حزناً شديداً .

ـ وطبعاً سافرت إلى ديجون وأصبت الإرث الذي خلفته لك .

ـ طبعاً .

ـ أمّا أنا فلم أصب شيئاً .

ـ إذاً فقد مات أبواك؟

ـ نعم . . منذ عامين . . لقد اندثرت أسرتنا فلم يعد باقياً من أسرة سوليفر سواي ومن أسرة هرمان سواك .

ثم ابتسم وقال مسترسلاً :

ـ إننا لم نلتق منذ ستة أعوام . . ولو لم يُذكر اسمك أمامي لما عرفتك . ولكن خبّرني ! أتذكر اجتماعنا الأخير في مرسيليا؟ إنك لم تكن في ذلك العهد ثريّاً ! فمن أين لك ما أرى عليك من مظاهر الثراء؟

ـ إني لست ثريّاً . . ولكنني لست فقيراً . . لقد وفقت إلى اختراع درّ عليّ بعض المال .

فهز أوفيد سوليفر رأسه وقال :

ـ لا يدهشني أن تكون مخترعاً فقد كنت أبرعنا في مدرستي شالمون والفنون والصنائع .

فتنهد جاك جارود وقال :

ـ الحق أن أيام الدراسة كانت أياماً لا تنسى . . ولكن بم تشتغل الآن؟

ـ بمهنتي نفسها .

ـ وما هي مهنتك؟

فقال أوفيد باستغراب :

ـ عجباً ! أنسيت أنني ميكانيكي؟

فاستدرك جاك وقد علم أن لسانه قد زل وقال :

ـ لم أنس طبعاً . . ولكن ذهني شرد قليلاً . . وإلى أي بلد تقصد؟ . .

ـ نيويورك .

ـ وهل تظن أن من السهل أن تجد لك عملاً فيها؟

ـ بل لقد وجدت فعلاً . . سأعمل ميكانيكياً في مصانع أميركي يدعى نيومي مورتيمر .

ـ أتعرفه إذاً؟

ـ بالنظر . . إنه ذلك الأميركي الكهل الذي رأيتك تنظر إلى ابنته بافتتان . . والحق أنها أجمل من بييريت .

ـ ومن تكون بييريت هذه؟

وبدت الدهشة على وجه أوفيد وقال :

ـ عجباً . . كيف نسيت بييريت؟ . . تلك الفتاة التي فتنتك حباً فيما مضى !

وللمرة الثانية عرف جاك أنه ارتكب هفوة أخرى !

وقال جاك مستدركاً :

ـ لقد نسيتها لطول العهد بها .

ولكن مع الاعتذار لم يخدع أوفيد . . وقال في نفسه :

ـ عجباً . . ما الذي دهاه !؟ لقد نسي أنني ميكانيكي . . ونسي المرأة التي أحبها . . والمرء لا ينسى حبيباته بمثل هذه السهولة !

وعمد جاك إلى تغيير مجرى الحديث على عجل فقال :

ـ إذاً فستعمل في مصانع نيومي مورتيمر؟

ـ نعم وتعاقدت مع وكيله لمدة ثلاثة أعوام . . . ومورتيمر هذا من كبار المخترعين . . وقد اخترع منذ عهد قريب آلة للصقل ستحدث عند ظهورها انقلاباً في عالم الصناعة .

ارتعد جاك جارود وشحب لونه . . آلة للصقل !؟ أتراها ستكون قاضية على تلك الآلة التي من أجل أن يسرق رسومها ارتكب ثلاث جرائم رهيبة؟ !

وقال أوڤيد سوليفر مسترسلاً :

ـ ولعلهم لخبرتي في هذا النوع من الآلات اتفقوا معي على خمسمائة فرنك أجراً شهرياً .

ـ هل لك أن تصف لي هذا الاختراع الجديد الذي يؤمل مورتيمر أن يهزّ به الأسواق؟

فراح أوڤيد سوليفر يحدث «ابن خاله» عن التحسينات التي أدخلها مورتيمر على آلة الصقل المعروفة .

وكان جاك في خلال ذلك قد خلع قبعته وراح يمسح جبينه الذي تصبب عرقاً .

وكانت الصبغة التي صبغ بها جاك شعره قد بدأت تزول لمضي خمسة أيام عليها . . ففطن أوڤيد إلى ما بين شعر ابن خاله وشعر هذا الشاب الماثل أمامه من اختلاف وقال في نفسه :

ـ عهدي بشعر ابن خالي بول أسود فاحم . . أما هذا فشعره مصبوغ بالسواد !

ولم يعد يخالجه أيُّ شك في أن هذا الرجل مدع انتحل اسم بول هرمان .

ولم يخف على جاك جارود أن أوڤيد يرتاب في أمره . . وقال في نفسه :

ـ الويل لي إذاً ! فإن الشكوك إذا تحرّكت لم تسكن إلاّ إذا بلغت مرتبة اليقين .

وتصافح الرجلان وانصرف كل إلى شأنه .

في زاوية منعزلة من السفينة وقف أوڤيد سوليفر يتدبر الأمر . . إنه الآن موقن من أن هذا الرجل دعيّ أفّاق . . ولكن ما غايته من انتحال اسم بول هرمان؟ وما كان ابن خاله غنياً ! وما يرجى خير من استعارة اسمه؟

وتمنى لو أنه نزل بالدرجة الأولى حتى يسهل عليه مراقبة هذا الدّعي . . ولكن من أين له المال الذي يمكنه من الانتقال إلى إحدى غرف الدرجة الأولى؟

وفيما كانت هذه الخواطر تغزو ذهنه حانت منه لفتة فرأى رجلاً في الخامسة والستين يصعد إلى متن السفينة وهو يحمل كيساً من الجلد مشدوداً إلى وسطه . .

قال أوڤيد في نفسه :

ـ في هذا الكيس ستون ألفاً من الفرنكات من الأوراق النقدية . . لقد رأيته بنفسي يحصيها . . ألا ليتني أستطيع أن أسرقها لأنتقل فوراً إلى جناح الدرجة الأولى .

وراح يسير على السفينة جيئة وذهاباً وهو يفكّر في وسيلة يسرق بها هذا الكيس .

وفي تخطُّره مرّ برجلين يتحدثان بصوت منخفض . . وكانت كلماتهما تتناهى إلى سمعه .

ومن حديثهما عرف أن أحدهما طبيب والآخر من أهل كندا .

كان الكندي يتحدّث عن دواء عجيب يصنعه الهنود الحمر من بعض الأعشاب التي تنبت في مجاهل أمريكا . . من خصائصه أنه يزيل الحمى في خلال ساعات قليلة مهما كانت مزمنة مستعصية . . على أن خاصيته الكبرى العجيبة كانت في إرغام من يتناول منه ملعقة صغيرة على الإفضاء بكل ما يخفي . . إذ يصاب بهذيان وقتي لا يطول أكثر من ربع ساعة يبوح في خلاله بكل أسراره .

وقال أوڤيد سوليفر في نفسه وهو يسترق السمع إلى هذا الحديث :

ـ لو أني ظفرت بملعقة من هذا الشراب لانتزعت من ابن خالي أسراره التي يتكتّمها .

وقال الطبيب الشاب :

ـ الحق أنه إكسير عجيب ! ولكني لا أصدق هذه المزاعم إلاّ إذا قمت بتجربة هذا الإكسير بنفسي ، فأين يمكن أن أجده؟

فقال الكندي مجيباً :

ـ في نيويورك . . عند شوشيلينو . . رقم ٢٤ بالشارع الحادي عشر .

وأسرع أوڤيد يدوّن هذا العنوان في مفكرته وهو يقول في نفسه :

ـ لا بد لي من ملعقة من هذا الإكسير !

في الوقت الذي كان فيه هذا الحديث يدور بين الكندي والطبيب كان جاك جارود في قاعة الاستقبال يتلمّس وسيلة إلى التعرف بالأميركي نيومي مورتيمر .

التفت فرأى ابنته تعزف على البيانو لحناً فرنسياً . . فلمّا فرغت

منه أبدى إعجابه بما عزفت وهتف يقول :

ـ لشد ما يفتنني أن أصغي إلى الموسيقى الفرنسية !

فابتسمت له الفتاة وقالت :

ـ أأنت فرنسي يا سيدي؟

وكانت هذه العبارة استهلال حديث غير قصير ذكر لها جاك في خلاله أنه ميكانيكي . . وأنه يقصد نيويورك لزيارة مصانعها . . وقال مسترسلاً :

ـ ولا سيما مصانع مورتيمر التي يقال إنها من أعظم مصانع نيويورك .

فابتسمت الفتاة ولم تقل له إنه إنّما يتحدث إلى ابنة مورتيمر نفسه . . وإنما قالت :

ـ وهل تعرف هذا الرجل يا سيدي؟

ـ كلاّ . . وإن كنت أنوي بطبيعة الحال أن أتعرف إليه .

ـ أتحب أن أتولى تقديمه إليك؟

ـ إني أكون شاكراً ممتناً . . إذاً فأنت تعرفينه؟

فابتسمت هيلين وقالت :

ـ إنه أبي !

فتظاهر جاك بالدهش وقال :

ـ أبوك ! دعيني أهنئك إذاً يا آنستي . . فهو من نوابغ هذا العصر .

ـ دعني إذاً أقدمك إليه . . ما اسمك يا سيدي؟

ـ بول هرمان .

ـ هيا بنا إليه .

سارت الفتاة ببول هرمان إلى أبيها وقدّمته إليه فرحّب به

الأميركي . . وراحا يتحدثان عن الحالة الصناعية والاختراعات الميكانيكية الحديثة .

وراح مورتيمر يتحدث عن آلة الخياطة المعروفة باسمه والتي أخرجتها مصانعه وما أصاب من ورائها من أرباح جسيمة .

فقال جاك جارود :

ـ ولكن اسمح لي أن أقول إن فيها عيباً واحداً .

ـ أي عيب يا ترى؟

ـ صوتها المزعج .

فقال نيومي مورتيمر :

ـ صدقت . . ولقد حاولت أن أتلافى هذا العيب وكرّست له جهود خمسة أعوام فلم أظفر بنتيجة .

فابتسم جاك وقال :

ـ لو أنك كرّست جهود خمسة أعوام حقّاً لأفلحت حتماً !

ـ أتعني أنك وُفّقت إلى ما قصرت أنا دونه؟

ـ يجوز

ـ أيكون فضولاً مني أن أسألك أن تحدثني عن الطريقة التي يمكن بها ملافاة هذا العيب؟

ـ وراح جاك جارود يشرح نظريته ببراعة . . وبلباقة الميكانيكي الذي يفهم مهنته ويدرك دقائقها .

فلمّا فرغ من إيضاحاته قال مورتيمر :

ـ لا شك عندي أنك أصبت النجاح ! إن هذا الاختراع خليق بأن يسمى «آلة الخياطة الصامتة» . . متى تنوي أن تخرجها إلى السوق؟

ـ متى أنوي أن أخرجها إلى السوق؟ إني لا أنوي إخراجها إلى

السوق مطلقاً . . إني أتخلى لك عن هذا الاختراع الجديد .

فقال الأميركي :

ـ محال أن أقبل هذا العرض . . إن آلة الخياطة الصامتة جديرة بأن تدرّ ربحاً عظيماً فكيف تتخلى عنها؟

فقال جاك جارود :

ـ إني مصر على التخلي عنها حتى ولو أتتني بمئات الألوف!

فقال مورتيمر في نفسه :

ـ إنه فيما أرى شاب نبيل . . ألا ليتني أستطيع أن أجعله مديراً لمصانعي!

ثم قال :

ـ إذا أردت مني أن أقبل هذا التنازل فلي شرط واحد .

ـ وما هو؟

ـ أن تقاسمني الربح . . إنني أنا الذي اخترعت آلة الخياطة ولكن أنت الذي أدخلت عليها هذا التحسين الجليل الفائدة . . فمن حقك أن تشاطرني الربح .

فهز جاك جارود كتفيه وقال :

ـ أشكرك على هذا العرض الكريم . . ولكني لا أريد أن أشغل نفسي الآن بهذا المشروع الضئيل . . فإن ذهني مكتظ بمشروع ضخم .

ـ أتنوي أن تنشئ مصنعاً في بلادنا؟

ـ نعم . . لإخراج آلات الصقل .

واضطرب مورتيمر حين سمع هذه العبارة . . وكان هذا هو ما يرمي إليه جاك جارود .

لقد عرف من أوفيد سوليفر أن مورتيمر وفق إلى آلة جديدة

للصقل . . فرمى بحديثه هذا إلى غاية بعيدة .

وقال نيومي مورتيمر متكتّماً سره :

ـ إني لا أظن أن من الممكن تحسين آلة الصقل المعروفة .

فابتسم جارود وقال :

ـ وماذا تقول إذا أنبأتك أنني وفّقت فعلاً إلى اختراعها؟

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أن الآلة الموجودة تصقل الأجسام المسطحة . . أمّا الآلة التي أنوي إخراجها فتصقل حتى الأجسام المقعرة .

ما إن سمع مورتيمر هذه الكلمات حتى شحب لونه . . فقد كانت هذه هي بعينها الآلة التي ينوي أن يغزو بها السوق ! فهل جاء هذا الفرنسي لكي يزاحمه !؟

وساد الصمت برهة . . وكان مورتيمر في أثنائها غارقاً في خواطره .

ثم رفع رأسه وقال :

ـ أصغ إليّ يا صديقي . . إني أريد أن أكاشفك بما أضمر في غير مواربة أو خفاء ! لا ريب عندي في أن آلة الصقل الجديدة التي حدثتني عنها ستدر عليك ربحاً جزيلاً . . ولكن ألا ترى أن من المجازفة أن تنشئ مصنعاً في بلادنا وأنت غير خبير بعاداتنا وطباعنا؟

ـ هذا صحيح . . ولكن أيسعني أن أفعل غير هذا الذي عزمت عليه؟

ـ طبعاً .

ـ وكيف؟

ـ بأن تصبح شريكاً لي تقاسمني الربح بدلاً من أن تجازف

بأموالك بإنشاء مصانع جديدة . . ويمكنك أن تبدأ عملك بإخراج آلتي الخياطة والصقل على أن يكون لك نصف الأرباح . . وسأقدم إليك الآن شيكاً تحت الحساب بخمسين ألف دولار .

استطار الفرح جاك جارود . . ولكنه أراد أن يبدي ممانعة استدراجاً للأميركي للوقوع في الفخ الذي نصبه له .

وانبرت هيلين تتدخّل في الأمر وقالت :

ـ إذا رفضت يا سيدي أن تشارك أبي كنت كمن ينبذ صداقتنا .

فقال جاك جارود باسماً :

ـ أمام هذا الرجاء لا أستطيع يا آنستي أن أتراجع !

فشد مورتيمر على يده وقال :

ـ إذاً فقد أصبحنا شريكين . . والآن خبّرني . . هل أنت متزوج؟

ـ كلاّ يا سيدي :

ـ إذاً سأفرد لك في منزلي جناحاً تقيم فيه .

ـ شكراً جزيلاً يا سيدي .

ثم قال في نفسه :

ـ ولن تمضي شهور قليلة حتى أصبح زوجاً لابنته !

حقّاً لقد ابتسم لي الحظ .

ولكن حين طافت بذهنه صورة أوفيد سوليفر اكفهر وجهه وقال في نفسه :

ـ إنه هو الذي ينغص عليّ حياتي . . ولكنني سأجد وسيلة أقهره بها وأجعله أطوع لي من بناني .

عند ظهر اليوم التالي احتشد الركاب على متن الباخرة يتفرجون على بارجة حربية تمر عن كثب .

وترك جاك جارود المحتشدين ومضى يبحث عن أوڤيد سوليفر . . وفي ركن منزو من الباخرة لمحه متربصاً وفي يده خنجر يحاول أن يخفيه . . فانزوى جاك جارود في ركن قريب وراح يرقب ما يفعل أوڤيد . . ورآه يدنو من رجل مستند إلى حاجز الباخرة يتأمل البارجة الحربية .

رفع أوڤيد أذيال الجاكتة فانكشفت عن كيس مشدود إلى وسط الرجل . . فأجرى خنجره على أربطة الكيس فانقطعت ودسه في جيبه . . ثم ارتد مسرعاً وسار إلى غرفته .

وبرز جاك من مخبئه وقال له :

ـ ويحك . . ! ما الذي سرقت؟ . .

امتقع وجه أوڤيد سوليفر وقال وهو يتلعثم :

ـ ماذا سرقت؟ لا شيء طبعاً

ـ دعك من الإنكار فهو لا يجديك !

وقبض على ذراعه ودفعه إلى ركن بعيد عن الركاب وقال له :

ـ لقد رأيتك وأنت تسرق الكيس . . ولا بد من إعادته إلى صاحبه . . ! لقد دنّست شرف أسرتنا . . ولولا ما أخشاه من الفضيحة لدفعت بك إلى الربان فيزجك في السجن .

فراح سوليفر يتوسل إليه أن يعفو عنه . . فقال له جاك :

ـ أعد إليّ هذا الكيس . . و خبّرني عما فيه .

ـ إن فيه ستين ألف فرنك .

ـ حسناً . . انتظرني حتى أرجع إليك . . إني ذاهب لأعيد المال

إلى صاحبه .

انطلق جاك جارود إلى صاحب الكيس ودفعه إليه وهو يقول :

ـ أهذا كيسك يا سيدي؟

وبذعر تحسّس الرجل موضع كيسه ثم هتف :

ـ رباه . . إنه هو بعينه .

ـ لقد سرق منك وهأنذا أعيده إليك . . فانظر إذا كان قد نقص منه شيء .

أحصى الرجل أوراقه النقدية فوجدها سليمة لم ينقص منها ورقة واحدة . . فقال :

ـ ولكن كيف وصل هذا الكيس إليك يا سيدي؟

ـ تعال معي أنبئك بالأمر .

وسار به إلى سوليفر الذي كان منزوياً على البعد يرقب ما يجري .

أومأ إليه جاك وقال :

ـ هذا يا سيدي هو الرجل الذي سرقك! إنه يستحق العقاب . . ولكني أعرف أنه من أسرة كريمة . . وأحب منك أن تغفر له ما فعل .

وراح سوليفر يتوسل إليه . . فقال الرجل :

ـ إكراماً لهذا السيد أعفو عنك . . ورحمة بأسرتك الشريفة . . ولكن احذر أن تعترض طريقي بعد هذا وإلاّ ألقيت بك في السجن! واعلم أني لن أنسى وجهك فكن على حذر . . ولكن ما هو اسمك؟

فقال جاك :

ـ أوفيد سوليفر .

وما إن سمع الرجل هذا الاسم حتى قال :

ـ أوڤيد سوليفر؟ إني أعرف هذا الرجل! كان عاملاً في شاطئ الذهب . . وصدر إلي الأمر مرة باعتقاله بتهمة السرقة!

وأطرق سوليفر لا يجرؤ على الإنكار . أمّا جاك فقال :

ـ إني لا أعرف من ماضيه ما تعرف . . ولكن أرجوك أن تبر بوعدك فلا تبلغ أمره إلى الربان .

ـ سأكون عند كلمتي يا سيدي . . وإني شاكر لك ما فعلت . . ويسرني أن أستقبلك في منزلي في نيويورك . . إني مقيم في رقم ٥٦ بالشارع الحادي عشر . . واسمي رينيه بوسك . . وقد كنت من قبل من ضباط البوليس السري ثم اعتزلت العمل .

حين انصرف الشرطي السابق وخلا جاك جارود بأوڤيد سوليفر قال له :

ـ تباً لك يا ابن العمة! لا نكاد نلتقي بعد تلك الغيبة الطويلة حتى ترتكب هذه الجريمة الفاضحة على سمعي وبصري!

ـ عفواً يا ابن الخال! إنه إغراء المال وأنا فقير لا أملك سوى مرتبي .

ـ فقال جاك جارود باحتقار :

ـ لم يكن في الكيس إلاّ ستون ألفاً . . فهل يدير رأسك مثل هذا المبلغ الضئيل؟

وساد الصمت برهة . . ثم قال جارود مسترسلاً :

ـ إذا وعدتني بالطاعة العمياء منحتك ثروة جديرة بأن تدير الرأس .

فهتف سوليفر باغتباط :

ـ حقاً؟

ـ بلا ريب .

ـ إني إذاً رهن إشارة منك . . وكيف أملك أن أعصي لك أمراً وفي وسعك أن تزجني في السجن عقاباً لي على هذه السرقة التي ارتكبت؟

ـ وأنا لن أشي بك إلاّ إذا أبيت أن تذعن لمشيئتي .

ـ وما الذي تبغيه مني؟

ـ لا تحدثني إلاّ إذا كنّا في خلوة . . فإذا كنا أمام الناس فتظاهر بأنك لا تعرفني . . إذ لا أحب أن يقال إن في أسرتي لصاً وضيعاً ولا سيما أنّي أصبحت شريكاً لمورتيمر .

فهتف أوفيد سوليفر باستغراب :

ـ أنت أصبحت شريكاً لمورتيمر؟

ـ وسأكون صهراً له عاجلاً . . فاحذر أن تغضبني وإلاّ طردتك من مصانع مورتيمر . . أما إذا ظفرت برضائي فسأرفع أجرك وأجعلك مراقباً للمصنع كما أني لن أبخل عليك بأموالي .

فقال سوليفر بخبث ودهاء :

ـ إني أعلم أنك بحاجة إلى معونتي . . ولا يعنيني أن أتحرى الأسباب إذ حسبي من الأمر كله أن تحشو جيوبي بالمال فأمنحك لقاء ذلك إرادة خاضعة لإشارة منك .

ـ إذاً فقد اتفقنا .

ودسّ جاك يده في جيبه فأخرج رزمة من الأوراق النقدية دفعها إلى أوفيد وهو يقول :

ـ وهذا مبلغ تحت الحساب تنفق منه حتى نبلغ نيويورك .

ـ شكراً لك يا ابن الخال العزيز .

ـ صه . . إني لا أحب أن أسمع هذا اللقب بعد الآن . . إياك أن يعرف أحد من الناس أني أمتّ إليك بصلة من القرابة .

وحين خلا أوفيد سوليفر بنفسه قال :

ـ لقد انتزع مني ابن الخال العزيز ستين ألفاً من الفرنكات بعد أن استقرت في جيبي . . ولكن لا ضير عليّ من هذا ما دام في وسعي أن أنال منه أضعافها بعد ذلك . . على كل حال أنا أعلم أنه يطوي سراً خطيراً . . وأنه ما انتحل اسم بول هرمان إلاّ لغاية شريرة في نفسه . . وسأكشف سرّه وأتخذ منه سلاحاً أتوعده به إن ضنّ عليّ بالمال . . ولا سبيل لي إلى معرفة ما يبطن إلاّ باستعمال إكسير الحقيقة . . فلأتريث إذاً حتى أبلغ نيويورك .

وفي نيويورك تحققت أحلام جاك جارود .

لم يمض شهران حتى تقدم إلى نيومي مورتيمر يطلب يد ابنته فأجابه إلى طلبه باغتباط .

وحضر أوفيد سوليفر حفلة العرس . . واطلع على الأوراق المثبتة لشخصية ابن خاله وأنه يدعى بول هرمان . . فقال في نفسه :

ـ رباه . . أتراني كنت مخطئاً واهماً !؟ أيكون هذا الرجل حقّاً ابن خالي !؟

أما جاك فراح يرفع من قدر سوليفر ويزيد مرتبه حتى أصبح بعد شهور قليلة مساعداً للمراقب يتقاضى مائتي دولار في الشهر .

وتتابعت الأيام ونسي جاك ماضيه !

لم يعد يذكر أنه قاتل أثيم . . وأن الاسم الذي يحمله منتحل مستعار . لقد بات يعتقد أنه هو بول هرمان حقّاً . . وأنه إنما أصاب

ما أصاب من مجد وثروة ونجاح بذكائه ونبوغه . . لا من طريق ذلك الاختراع الذي سرق رسوماته وقتل صاحبه .

انطوى الماضي ولم يعد يحيا إلاّ لحاضره ومستقبله .

إلى أن جاء يوم قرأ فيه في الصحف أن القضاء الفرنسي حكم على من تدعى جان فورتييه بالسجن المؤبد بتهمة القتل والسرقة والإحراق .

لم ينبض في قلبه عرق بالرحمة . . لا ولم يؤنّبه ضميره على ما فعل واقترف . . بل لقد شاع في نفسه الابتهاج . . وأيقن بالنجاة إذ كان هذا الحكم آخر ستر يلقى على الماضي البغيض .

وفي الوقت الذي كان فيه جاك جارود يبتسم لصدور الحكم على جان كانت المسكينة في المستشفى تعاني تلك الحمى القاسية التي حلّت بها عقب إغمائها عند سماعها الحكم عليها .

نقلت جان إلى المستشفى في حالة خطرة . . ولمّا شفيت كانت قد أصابتها لوثة من الجنون .

لم تعد تذكر من ماضيها شيئاً . . هي الأخرى غشّى ذهنها ستار من النسيان ولكنه كان من نوع يختلف عن ذلك الستار الذي غشي ذهن جاك جارود .

كان جنونها هادئاً ساكناً لا يصحبه شيء من النوبات فأيقن الأطباء أنها لا بد أن تشفى يوماً ما وإن طال بها الداء .

أمّا ولدها الصغير جورج فعاش في كنف الكاهن الأب لوجييه . . لقد اتخذته أخته كلاريس ابناً لها وأسبغت عليه اسم عائلتها فصار منذ تلك اللحظة يدعى جورج دارييه .

وهكذا انسدل الستر على الماضي البعيد . . لم يعد هناك من يذكر

منه شيئاً ! .

القاتل الأثيم يمرح في حاضره وقد نسي ماضيه . . والمتهمة البريئة جُنّت فنسيت عذابها وولدها . . والابن نزع عنه الاسم الذي يربطه بمولده وارتد مخلوقاً جديداً .

مات الماضي . . وإن كان هؤلاء أحياء .

ـ ١٣ ـ

بعد مضي عام على هذه الحوادث دعا جاك جارود «ابن عمته» أوفيد سوليفر إليه وقال له :

ـ إني مسافر غداً لإنجاز صفقة كبيرة وأحب أن ترافقني بصفتك المراقب العام للمصانع فتهيأ للسفر .

وكان أول ما فعل سوليفر استعداداً لهذه الرحلة أن ابتاع زجاجة من إكسير الحقيقة من عند شوشيلينو .

لقد عوّل على أن يغتنم هذه الفرصة لانتزاع سر جاك الخفي .

وفيما كان القطار ينهب بهما الأرض قال جاك :

ـ والآن أنبئني . . ألست راضياً عن حالتك؟

ـ كل الرضـــاء . . ولا ينغص عليّ إلاّ أن أراني مكرهاً على أن أتكتم على ما بيننا من صلة القربى .

ـ آه . . هذا أمر لا مفر منه يا أوفيد ! إذ لا بد من الحذر .

ـ وما الذي يدعوك إلى أن تكتم دوني سر ثروتك . . إذ عهدي بك فقيراً ليس لك سوى مرتبك؟

ـ لقد اهتديت إلى اختراع درّ عليَّ مالاً كثيراً .

ـ أي اختراع هذا؟

فلم تدركه الحيرة أمام هذا السؤال وإنما قال :

ـ لقد بعت حقوق هذا الاختراع إلى سواي . . ولم يعد من حقي أن أنسبه إلى نفسي .

وآثر سوليفر أن يلوذ بالصمت إذ عرف أن لا جدوى ترتجى من طرح هذه الأسئلة وأنها قد تثير شبهات بول هرمان .

وقال جاك بعد هنيهة ليغيّر مجرى الحديث :

ـ ولكن كيف تمضي سهراتك في نيويورك؟

ـ على مائدة القمار .

ـ آه . . إذاً فأنت من المقامرين ! . . احذر فإنه جدير بأن يدفع بك إلى التهلكة .

فقال سوليفر :

ـ لا أكتمك أن أموالي تضيع كلها على المائدة الخضراء . . ولكني أرجو أن يدركني الربح عاجلاً .

ـ سراب خادع ! وأولى بك أن تقلع عن هذه الخلّة الذميمة .

وأخيراً نزلا الفندق وتناولا العشاء في غرفتهما الخاصة .

وحمل إليهما الخادم القهوة . . وتولى أوفيد سوليفر صبها في القدحين .

واغتنم هذه الفرصة ووضع في أحد القدحين بضع نقط من إكسير الحقيقة .

تناول جاك جارود القهوة وهو لا يدري سر المكيدة المدبرة .

وبعد هنيهة ألقى براحته على جبينه وقال :

ـ إني أحس تعباً . . وصداعاً . .

وبدا عليه الاضطراب .

وابتهج سوليفر وعرف أن مفعول الإكسير قد بدأ .

وقال جاك :

ـ عليّ بقدح من الشراب .

وحمل إليه سوليفر قدحاً بعد قدح .

وفجأة بدأ جاك جارود يضحك ويقهقه . . كالمجانين .

وقال أوفيد سوليفر يخاطبه :

ـ اسمع يا بول هرمان !

فقهقه جاك مرة أخرى وقال :

ـ بول هرمان ! أحسبت أن هذا هو اسمي أيها المجنون؟

واسترسل يتحدث .

أخذ السر ينكشف . . وأخذت الأستار ترتفع . . ستراً بعد ستر . . ! حتى لم يعد هناك ما هو مخفيّ من أمر جاك .

وكان سوليفر يصغي إلى هذا الحديث بذهول وعجب .

وأخيراً حين فرغ جاك جارود من قصته أطبق فمه وأغمي عليه فحمله أوفيد إلى فراشه وهو يبتسم ابتسامة الظفر .

وقال سوليفر في نفسه :

ـ الآن عرفت سره ! إنه مدّع منتحل كما وقع في خاطري للوهلة الأولى !

وغداً يصحو من غيبوبته ولكنه لن يذكر شيئاً مما قال . . بهذا سمعت الكندي يحدث الطبيب .

وضحك سوليفر ضحكة شيطانية وقال :

ـ كان الأحمق يحسب أنني في قبضة يده ! والآن سيرى أينا الذي سيصبح في قبضة صاحبه !

إنني إذا كنت فقيراً الآن فلا شك أنني سأصبح من كبار الأغنياء ما دمت قد وقعت على هذا السر . . وسأنال من ثروة «ابن الخال» العزيزة كل ما أشتهي وأبغي !

في صباح اليوم التالي استيقظ جاك من نومه وهو يعاني صداعاً أليماً . . فالتفت إلى صاحبه وقال :

ـ ترى ما الذي دهاني !؟ إني أشعر بإعياء شديد !

ـ لقد أُصبت بالأمس بنوبة فجائية فصرعت كالمجانين وأخذت تهذي وتسبني !فصاح بجزع :

ـ أهذي ! ماذا قلت؟

ـ لا شيء . . هذيان سخيف !

ورجعا بعد يومين إلى نيويورك بعد أن أنجزا الصفقة التي حضرا من أجلها .

وما إن استقر أوفيد سوليفر في نيويورك حتى بعث برسالة إلى المستشفى الذي قيل إن ابن خاله بول هرمان مات فيه يستفسر عن حقيقة النبإ .

وبعد شهر جاءه الرد من المستشفى . . فكانت فيه صورة رسمية من الشهادة التي تثبت وفاة بول هرمان .

وانفرجت شفتا أوفيد سوليفر عن ابتسامة خبيثة وقال في نفسه :

ـ الآن أصبح جاك جارود في قبضة يدي بعد أن كنت في قبضة يده .

ـ ١٤ ـ

انقضت تسعة أعوام على هذه الحوادث .

وفي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٨٧٠ شوهد نعش

ميت يشق طرقات بلدة شيفري .

وكان في أثر النعش ثلاثة أشخاص يبكون : الأب لوجييه كاهن القرية وصديقه المصور إتيين . . وغلام في الرابعة عشرة .

أمّا الغلام فما كان إلاّ جورج ابن جان فورتييه ، وقد أصبح الآن يدعى جورج داريِيه إذ تبنته كلاريس داريِيه أخت الكاهن .

أمّا ذاك النعش فما كان يضم إلاّ جسد تلك المرأة الطيبة القلب كلاريس .

لقد حضرتها الوفاة فجاء ابنها بالتبنّي جورج من پاريس مسرعاً ليودعها الوداع الأخير وها هوذا يشيعها إلى المقر الذي لا رجعة منه .

عندما رجعوا إلى المنزل قال الكاهن يخاطب صديقه المصور :

ـ لقد أوصت أختي لجورج بكل ثروتها وأقامتني وصيّاً عليه .

ـ حسناً فعلت .

فقال الكاهن :

ـ وسأقتدي بها فأوصي له بما أملك على أن أقيمك وصيّاً . . فهل ترضى بذلك؟

ـ بكل ارتياح . . وسأوليه من حبي مثلما أوليتماه .

ـ شكراً لك . وسأكتب لك رسالة أكاشفه فيها بحقيقة مولده على أن لا تدفعها إليه إلاّ إذا بلغ الرابعة والعشرين . فهل تعدني بذلك؟

ـ بلا ريب .

ودفع الكاهن كتابين إلى المصور إتيين : أحدهما وصيته . . والآخر رسالة منه إلى جورج يكاشفه فيها بسر مولده .

ولم تمضِ أسابيع قليلة حتى لحق الكاهن بأخته . . وخلف جورج في رعاية المصوِر إتيين كاستل .

وفي الأسبوع نفسه الذي مات فيه الأب لوجييه أدركت المنية

زوجة جاك جارود .

وكان جاك يحب زوجته حبّاً شديداً فحزن عليها وتفطّر قلبه حسرات . . ولكنه وجد بعض العزاء في تلك الابنة التي خلفتها له زوجته الراحلة .

كانت ابنة ضئيلة الجسم ضعيفة البنية . . تنتابها الأمراض كثيراً . . فأوقف عليها حبه . . وأصبحت عنده هي الدنيا وما فيها .

وكان سوليفر لا يزال يمشي في ركاب جاك جارود . . كلّما نضبت أمواله كلما سأله المعونة فلا يضن عليه جاك بما سأل .

ومن أجل هذا لم يكن في حاجة إلى أن يتوعّده بإفشاء سره . . فظل جاك يجهل أن سوليفر على بيّنة من حقيقة أمره .

وكان لجورج دارييه صديق يدعى لوسيان تعرف به وهما يتلقيان العلم في مدرسة هنري الرابع .

أمّا لوسيان هذا فما كان إلاّ ابن السيد لابرو صاحب المصنع الذي اتهمت جان فورتييه بإحراقه .

وهكذا شاءت الأقدار أن تجمع بين ابن القاتلة ـ البريئة ـ وابن القتيل !

حقدت أم جورج على أب لوسيان فقتلته . . أمّا الابنان فجمعت بينهما أواصر الصداقة والمودة . . وكان كل منهما يجهل سر الآخر . . بل سر نفسه . .

وكان لوسيان قد سمع من عمته حكاية مصرع أبيه . . وعرف أن القضاء أصدر حكمه على امرأة تدعى جان فورتييه .

ولكنه كان كعمته يؤمن إيماناً أعمى بأنّ جان بريئة وأن الجاني لا بد أن يكون ذلك المدعو جاك جارود . . وأنه ما قتل أباه إلاّ ليسرق

رسومات الاختراعات .

والآن فلنعد إلى جان فورتييه .

كانت نزيلة مستشفى المجانين . . وقد أصابتها كما ذكرنا لوثة أنستها ماضيها فلم تعد تذكر منه شيئاً .

وفي خلال ذلك العام الرهيب . . عام ١٨٧٠ . . الذي اجتاحت فيه الجيوش الألمانية العاصمة باريس وضربتها بالقنابل سقطت ثلاث قنابل على مستشفى المجانين فهدمت شطراً منه . . كما اشتعلت النيران في أحد الأجنحة .

وقفت جان تنظر إلى النيران وهي تلتهم المستشفى . .

وفجأة انزاحت الحجب عن عينيها . . وانكشف الستر عن الماضي .

ذكرت ذلك الحريق الذي رأته فيما مضى . . منذ تسعة أعوام . . يلتهم مصنع السيد لابرو !

وعادت إليها ذاكرتها وشفيت من لوثة الجنون !

في صباح اليوم التالي للحادث دخل الطبيب على جان فأدهشه ما رأى من تبدّل في نظراتها . . لم يعد لها ذلك الذهول المعهود . . ولا هذا الشرود الذي كان يطالعه في عينيها !

وقالت جان تسأله :

ـ إني أعلم يا سيدي أنك طبيب . . وأنني هنا في مستشفى . . وأذكر أنه حكم عليَّ بالسجن المؤبد بتهمة السرقة والقتل وإحراق مصنع السيد لابرو المسكين . . فأي مستشفى هذا؟

ـ مستشفى المجانين .

ـ إذاً فقد كنت مجنونة ! ولكني أشعر أني شفيت الآن .

ـ وهذا ما يبدو لي . . فقد كنت مصابة بفقدان الذاكرة . . وهأنذا أرى أن ذاكرتك قد عادت إليك .

ـ وكم مضى عليّ في هذا المستشفى؟

ـ إنك هنا منذ عام ١٨٦٢ ونحن الآن في عام ١٨٧٠ .

وراحت جان تستفسر منه عن بعض الشؤون فأنبأها أن أحداً لم يسأل عنها في خلال هذه السنوات التسع .

ما إن سمعت جان هذه الكلمات حتى انفجرت باكية وقالت :

ـ رباه . . لقد كان لي ولد يدعى جورج وبنت تدعى لوسي . . فماذا حل بهما؟ وكيف لم يسأل عني أحدهما؟

وحين سكن روعها قالت للطبيب :

ـ وما يكون مصيري يا سيدي الطبيب الآن بعد أن شفيت؟

ـ تُعادين إلى السجن ثانية .

فأجهشت بالبكاء مرة أخرى وقالت :

ـ ربّاه ! أهكذا قُضي عليّ أن أمضي حياتي رهينة السجون لا ألقى ولديّ؟

وتركها الطبيب لأحزانها وانصرف .

وبعد أسبوع نقلت إلى السجن .

ما إن استقرت جان فورتييه في السجن حتى بعثت برسالتين إحداهما إلى الأب لوجييه الذي كفل ابنها جورج . . والثانية إلى المرضع التي كانت تتولى إرضاع ابنتها لوسي .

ومرت بها أيام ثلاثة تنتظر كمن يتلظى على الجمر !

وأخيراً جاءها الرد المنتظر .

الكتاب الأول من قرية شيفري . . كتبه إليها الكاهن الجديد يقول

إن الكاهن السابق قد توفي . . وإنه هو شخصياً لا يعلم شيئاً من أمر تلك الحادثة التي ترويها .

أمّا الكتاب الثاني فكان رسالتها نفسها التي كتبتها إلى المرضع . . وقد أشارت عليها مصلحة البريد بهذه العبارة :

«يعاد إلى المرسِل لأن المرسَل إليه غير معروف» .

وما إن تسلّمت جان فورتييه هاتين الرسالتين حتى كادت تجن خوفاً ويأساً وأصابها إغماء شديد لم تستفق منه إلاّ بعد ساعة .

ولـمّا سكن روعها راحت تفكّر في أمرها فقالت في نفسها :

ـ ربّاه . . أهكذا قُضي عليّ بأن لا أرى ولديّ مدى الحياة !؟ ولكن لا . . ينبغي أن أفر من هذا السجن . . ! سأهرب وأبحث عنهما . . سأنبش الأرض سعياً وراءهما حتى أهتدي إليهما .

تتابعت الأيام . . بل الأعوام . . وهي لا تجد وسيلة تتمكن بها من الفرار !

سبعة أعوام وهي في ذلك السجن . . عدا التسعة الأعوام التي أمضتها في مستشفى المجانين ! .

عذاب متصل . . وأحزان يتفطر لها الفؤاد . . قلب أم تعرف أن لها ولدين يضربان في الأرض ولا تعرف لهما مصيراً أو شأناً ! أتراهما ماتا !؟ أتراهما يتضوّران جوعاً !؟ أهما من أهل الاستقامة والشرف !؟ أم تردّيا في الهاوية فسرق الولد أو قتل وزج في السجن !؟ ووجدت الابنة المسكينة ذئباً بشرياً يسطو عليها !؟

كانت هذه الخواطر لا تفتأ تدور في رأسها . . عاماً بعد عام . . حتى انتظمت سبعة أعوام بالتمام .

كانت جان في خلال هذه الأعوام مثالاً لحسن السلوك فأمر مدير

السجن بنقلها إلى المستشفى رحمة بها . . وأمر بتعيينها ممرضة فكان لها راتب شهري تتقاضاه . . وكان لها من الحرية حظ حرمت منه طيلة الأعوام السابقة .

وما انقضى عليها عام في المستشفى حتى عينت رئيسة للممرضات .

وقد أمضت في المستشفى ثلاث سنوات . . وكانت بحكم مهنتها تحمل الأدوية إلى الأطباء في أثناء عيادتهم المرضى .

وفي يوم من الأيام اغتنمت الفرصة وسرقت زجاجة بها دواء منوم أخفتها في صدرها لحين الحاجة إليها .

وأخيراً دنت ساعة الفرار !

كانت إحدى الراهبات تشاطر جان فورتييه مخدعها . . فلمّا أمسى المساء مزجت جان بشراب الراهبة قليلاً من هذا السائل المخدر .

جرى ذلك في مساء يوم السبت وقد اعتادت الراهبات أن يغادرن السجن في صباح كل أحد للذهاب إلى الكنيسة .

وفي الصباح استيقظت جان مبكرة ونظرت إلى الراهبة فألفتها غارقة في نومها وعرفت أن المخدر هو الذي أبقاها نائمة .

وأسرعت جان إلى رئيسة الراهبات ثم قالت لها :

ـ إن الأخت منهمكة في تضميد جرح أحد المرضى وهي ترجوك أن تسمحي لها باللحاق بكنّ في الكنيسة بعد فترة وجيزة .

ـ حسناً . . وسأنبّه على البواب .

وكان هذا هو ما تبغيه جان .

ما كادت الراهبات يغادرن السجن ذاهبات إلى الكنيسة حتى بادرت جان إلى ارتداء ثياب الراهبة التي تشاطرها مخدعها وانطلقت

من السجن وقد أرخت قبعتها على وجهها فلم يفطن حارس الباب إلى حقيقة أمرها . . إذ كان يعلم أن هناك راهبة سوف تلحق بزميلاتها اللواتي غادرن قبلها .

وهكذا . . بعد عشرين عاماً . . غادرت جان فورتييه السجن للمرة الأولى . . وتنسمت نسيم الحرية .

وراحت تضرب في الأرض بحثاً عن ولديها .

*

ـ ١٥ ـ

ولنعد الآن إلى الوراء .

منذ أربعة شهور كان جاك جارود جالساً يتحدث إلى ابنته وإلى «ابن عمته» أوفيد سوليفر .

وكانت ابنته ماري قد أوفت على الثامنة عشرة . . ولكنها كانت ضئيلة الجسم واهنة الصحة إذ قرر الأطباء أنها مصابة بالسل الرئوي في مرتبته الضعيفة .

وفجأة التفتت ماري إلى أبيها وقالت :

ـ أبتاه . . ! كم تبلغ ثروتك؟

فنظر إليها باستغراب ولبث صامتاً .

فعادت تردد سؤالها فقال :

إن دخلي السنوي يبلغ مائة ألف دولار .

ـ إذاً فثروتك يمكن أن تقدّر بعشرة ملايين دولار . . عدا هذا المصنع . .؟

فأحنى رأسه إيجاباً فقالت :

ـ كم قيمة هذا المصنع؟
ـ مليون دولار .
ـ إذاً يجب أن تبيعه بهذا الثمن .
فصاح متعجِّباً :
ـ أتريدين مني أن أبيع مصنعي؟
ـ نعم .
ـ ولكن . .
ـ لا تعترض . . إنك واسع الثراء . . وما عدت في حاجة إلى العمل . . فلِمَ لا تبيع هذا المصنع على أن نسافر بعد ذلك إلى فرنسا فنقيم فيها مَدى الحياة؟ !
وجعل جاك جارود وأوفيد يتبادلان نظرات الاستغراب .
واسترسلت الفتاة تقول :
ـ إنني أحب فرنسا . . وأريد أن أعيش وأموت فيها .
فصاح جاك بلهجة المتفجع :
ـ دعي حديث الموت يا ابنتي؟
كان يعلم أن ابنته مصابة بالسلّ الرئوي . . وأن حياتها تقاس بالأعوام . . وكانت كل إشارة منها إلى الموت تملأ قلبه رعباً . . وتمزقه حزناً .
وقالت الفتاة ضاحكة :
ـ طبعاً لست أبغي من رحيلي إلى فرنسا أن أموت هناك . . ولكني تواقة إلى أن أرى وطني . . وبعد فإن الحياة في هذه البلاد تبعث السآمة في نفسي .
ـ ولم لا نقيم في فرنسا شهرين أو ثلاثة ثم نعود إلى هذه

البلاد؟ !

ولكنها أصرّت على رأيها وحاورها أبوها وأيّده سوليفر في حواره ! فما كان من الفتاة إلاّ أن انفجرت باكية .

وأمام عبراتها تخاذل الأب وتراجع . . كان يعلم أن كل دمعة تذرفها إنما هي بضعة من حياة هذه الفتاة المصدورة المسلولة ! . كان يعلم أنه إن أغضبها فقد أدناها من الموت وقضى على صحتها الناعمة المرهفة بالهلاك .

قال :

ـ حسناً . . سأحقق مشيئتك يا ابنتي . . سأبيع مصنعي هذا وأرحل إلى فرنسا . . وهناك أنشئ مصنعاً جديداً إذ لا يروق لي كما تعلمين أن أعيش دون عمل .

والتفتت الفتاة إلى أوفيد سوليفر وقالت :

ـ وأنت يا سوليفر . . ألا تنوي أن ترافقنا إلى فرنسا؟

فهز كتفيه وقال :

ـ لا أدري .

فرمته بنظرة حادة وقالت :

ـ إني أعلم أنك تحاول أن تثني أبي عن الرحيل . . ولكن جهدك سيضيع عبثاً ! إن الإقامة في هذه البلاد قاربت على نهايتها .

ثم غادرت القاعة مسرعة وعبراتها لا تزال تنحدر على وجنتيها .

حين خلا الرجلان أحدهما إلى الآخر قال سوليفر :

ـ أعزمت حقّاً على بيع مصنعك والرحيل إلى فرنسا؟

ـ هذا لا ريب فيه . . ألا ترى أن صحتها على غاية من الضعف وأنني إن عاندتها قضيت عليها بالهلاك !؟

فقال سوليفر يعاتبه :

ـ هذا الحنان منك أشبه بالضعف !

فهز جاك كتفيه وقال :

ـ ومع ذلك فأية غاية لي من البقاء في هذه البلاد؟ لقد أصبت هنا ربحاً جزيلاً . . وفي وسعي أن أنشئ في فرنسا مصنعاً يضاهي مصنعي هذا وبذلك لن أخسر شيئاً !

وساد الصمت برهة . . ثم قال سوليفر :

ـ إنَّ لي معك حديثاً . .

ـ تكلم .

ـ هيا بنا إلى مكتبي فإني أخشى أن يسمعنا أحد هنا .

بدت أمارات الاستغراب على وجه جاك جارود وقال :

ـ وهل هذا الحديث خطير إلى هذا الحد . .؟

ـ سترى .

وإذ ضمهما المكتب قال سوليفر :

ـ ما الذي تنوي أن تصنع بي بعد رحيلك؟

ـ يمكنك أن ترافقنا فأعهد إليك بعمل في مصنعي الجديد .

ـ ولكن الإقامة لا تطيب لي في فرنسا !

ـ ولم . .؟

ـ لأن البوليس الفرنسي يطلبني .

ـ وما يضيرك وقد سقط الحكم لمضي المدة . .؟

ـ إني أحب أن أبقى في هذه البلاد .

ـ فليكن إذاً . . سأسأل مَن يشتري مصنعي أن يستخدمك بأجر طيب .

فارتسمت ابتسامة واهنة على شفتي أوفيد وقال :

ـ ولكني لا أريد هذا . . ! فأنا أريد أن أشتري مصنعك ! . .

ضحك جاك وقال ساخراً :

ـ تريد أن تشتري مصنعي !! لقد كنت أحسبك يا بني من الفقراء فإذا بك من أصحاب الملايين !

فابتسم أوفيد مرة أخرى وقال :

ـ لست من أصحاب الملايين كما تتوهّم ! . . إنني فقير معدم . . ومع ذلك فسأشتري مصنعك . .

ـ هذا عجيب ! دع عنك حديث الأحاجي والألغاز وأفصح !

فقال سوليفر بهدوء :

ـ ستبيعني المصنع . . ثم تهديني شيكاً بخمسين ألف دولار لأتمكن من إدارته .

فقطب جاك جبينه وقال :

ـ ولم أفعل هذا؟

ـ ثمناً لسكوتي !

ـ ثمناً لسكوتك؟ أتحسبني أخفي أمراً أخشى أن ينكشف !؟

ـ أموقن أنت أيها الصديق العزيز؟

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أن جاك جارود لا يستطيع أن يرجع إلى فرنسا إلاّ إذا اطمأن إلى أن البوليس لن يعرف اسمه .

قفز جاك جارود واقفاً وانقض على سوليفر وقبض على ذراعه بعنف وصاح :

ـ ما هذا الاسم الذي ذكرته؟

ـ إنه اسم رجل أحرق مصنعاً في ألفورتفيل وقتل صاحبه وسرق أمواله . . وهذا الرجل هو أنت !

استولى الرعب على جاك وهتف بصوت مختنق :

ـ هذا كذب . . من أنبأك بهذا !؟

ـ شهادة وفاة بول هرمان الذي انتحلت اسمه ! . . إنَّ لديّ صورة رسمية منها .

ـ كذب وبهتان !

فقال أوفيد بهدوء :

ـ دعك من المراوغة يا ابن الخال العزيز . . إنّ لدي براهين لا تدحض . . ومع ذلك فلك أن تذهب إلى فرنسا وأنت آمن مطمئن ما دمت ستبيعني مصنعك ! ستظل دائماً ذلك الرجل الشريف البريء . . أمّا جان فورتييه فستظل دائماً هي المجرمة الأثيمة .

وساد الصمت برهة . . ثم قال جاك وقد ملك روعه :

ـ إني لا أبالي بتهديدك ! لقد سقط عني العقاب لمضي المدة !

فضحك أوفيد سوليفر وقال :

ـ مضيّ المدة . . إذا انطبق هذا على جرائم القتل والسرقة والإحراق التي ارتكبتها منذ أكثر من خمسة عشر عاماً . . فهل ينطبق على جريمة اختلاس اسم بول هرمان وهي جريمة لا تزال قائمة ولا تزال متلبّساً بها !؟

فامتقع وجه جاك وقال :

ـ أتعني أنك تنوي أن تشي بي؟

ـ هذا أمر موكول إليك ! إنك رجل واسع الثراء ولست في حاجة إلى مال جديد . . فلم لا تمنحني مصنعك؟ إنك بذلك تشتري سمعتك وهناء ابنتك المسكينة .

وزمجر جاك وقال بوحشية :

ـ والله إنَّ نفسي تحدثني بأن أقتلك .

ـ وهل يجديك هذا؟ لقد كتبت رسالة أودعتها عند مسجل العقود وأوصيت أن لا تفتح إلاّ بعد موتي . . وفي هذه الرسالة أمطت اللثام عن سرك . . فإذا قتلتني فلن تمضي أربع وعشرون ساعة حتى تجد الشرطة تنقض عليك وتسوقك إلى السجن .

وساد الصمت مرة أخرى :

وأخيراً قال جاك جارود :

ـ حسناً . . قبلت شروطك . .

ـ أحسنت ! . . بذلك تنقذ سمعتك .

ـ غداً سنذهب إلى المحامي لتحرير عقد البيع .

وفي صباح اليوم التالي أصبح أوفيد سوليفر مالكاً للمصنع دون أن يدفع دولاراً واحداً . . بل لقد أصاب أيضاً من «ابن خاله» شيكاً بخمسين ألف دولار .

بعد أسبوع كان جاك جارود في طريقه إلى فرنسا . . وحين هبطها ابتاع أرضاً ليقيم عليها مصنعاً في ضواحي پاريس .

على أنه ما كان يشرع في البناء حتى قاضته الحكومة إلى المحاكم وطالبته بأن يشق طريقاً للمرور وسط هذه الأرض .

ومضى جاك إلى صديق له من أصحاب المصارف يسأله أن يدله على محام بارع يكل إليه أمر هذه القضية .

وقال المالي صاحبه :

ـ أنا أعرف محامياً شاباً أصاب على حداثة عهده شهرة عظيمة .

ـ وما اسمه؟

ـ جورج داربيه . . رقم ١٩ شارع بونابرت .

ومضى جاك إلى مقابلة المحامي الشاب .

ولو انكشفت حجب الماضي لعرف جاك أن هذا الشاب ما هو إلاّ

جورج فورتييه . . ابن تلك المرأة التي قضى عليها بالسجن المؤبد بتهمة ما لفّقها لها إلاّ جاك جارود نفسه !

كان جورج فورتييه على رغم سنيه الخمس والعشرين معدوداً من كبار المحامين .

وقد اتخذ له مكتباً في شارع بونابرت كان الداخل إليه لا يملك إلاّ أن يعجب بتلك المكتبة النفيسة التي أهداها إليه وليّه الأب لوجييه .

وفي ركن من المكتب كنت ترى عموداً من الأبنوس أقيم فوق رأسه حصان من الخشب والكرتون .

كان هذا الحصان أثراً من آثار الطفولة يحتفظ به المحامي الشاب ويحرص عليه حرصاً شديداً . . وقد جلّله بشريط أسود إجلالاً لذكرى أمه كلاريس (أخت الكاهن) إذ لم يكن يعرف بعد أن أمه هي جان فورتييه .

وهكذا . . بعد إحدى وعشرين سنة التقى جاك جارود بابن ضحيته . . وكان كلاهما يجهل شخصية صاحبه .

روى جاك جارود للمحامي الشاب ما كان من أمر الخلاف الذي شجر بينه وبين الحكومة في شأن حق المرور في أرضه .

ولـمّا فرغ جورج داربيه من الاطلاع على الأوراق والمستندات قال :

ـ إنك على حق يا سيدي في مناهضتك الحكومة . . إن حجتك قوية وستربح القضية حتماً .

ـ إذاً أرجوك أن تتولاّها عني ! .

بكل ارتياح . .

وبعد شهر اضطرت الحكومة أن تتراجع عن دعواها وأذنت لجاك

جارود بالبناء بعد أن أيقنت من الاطلاع على مذكرات محاميه أنها خاسرة لو قاضته إلى المحاكم .

كان جاك جارود مضطراً في أغلب الأحيان إلى قضاء سحابة نهاره خارج الدار ليتولى بنفسه مراقبة البناء . .

ولكن ابنته لم تكن تلومه على تخلّفه إذ كانت كريمات أصدقاء أبيها يولينها بالزيارة من حين إلى آخر . . فكانت تجد في بقائهن ما يسري عنها .

وقد كان من الطبيعي أن جو باريس لا يلائم صحتها . . إذ لم تكد تمضي في تلك المدينة بضعة أسابيع حتى بدت عليها آثار العلة الصدرية وازدادت بروزاً . . ولكنها كانت تجهل أنها مصابة بالسل الرئوي . . وكانت إذا ما رأت في وجه أبيها الخوف والإشفاق ضحكت وعجبت لأمره .

وكانت ماري شديدة التأنق في ارتداء ثيابها فاختارت لحياكتها السيدة أوغستين أبرع خياطات باريس وأحذقهن فناً وإتقاناً .

وكان بين عاملات هذه الخياطة فتاة تدعى لوسي أبت أن تزاول عملها في مشغل الخياطة . . وإنما آثرت أن تنجز في دارها ما تعهد به إليها السيدة أوغستين .

وكانت مدام أوغستين لشدة إعجابها بلوسي توفدها في بعض الأحيان إلى بيوت عميلاتها لتقيس لهن الثياب وتصلح منها ما يحتاج إلى تصليح .

وكانت لوسي جميلة رضية الخلق . . لم يعرف الناس عنها التبذل والاستهتار شأن مثيلاتها . . كان لها خطيب يدعى لوسيان يحترف الرسم الميكانيكي علق بها وتم الاتفاق بينهما على الزواج .

- ١٦ -

لم يكن الرسام لوسيان إلاّ ابن السيد لابرو صاحب المصنع الذي قتله جاك جارود .

حين أتى الحريق على المصنع لم يبق للطفل المسكين دخل يفي بنفقاته فتكفلت به عمّته . . وإذ ماتت وهو في الحادية والعشرين من العمر اضطر أن يحترف الرسم التماساً لأسباب الرزق .

واتخذ لوسيان مسكناً له غرفة في البيت الذي تشغل لوسي الخياطة غرفة فيه .

التقيا يوماً على السلّم . . فلم يكن بدّ من التعارف .

وما لبثت الصداقة أن استحالت غراماً . . وكان لوسيان يتمنى أن يتخذ لوسي زوجة له وما كان يردّه عن تحقيق أمنيته إلاّ نضوب المال .

وانقضى عام كامل وما زال المسكين عاجزاً عن أن يدبر أمره . . وكان ما يربحه لا يكاد يسد حاجته .

ولم يكن للوسي أهل يمدون إليها يد المعونة . . لقد نشأت في أحد ملاجئ الأطفال . . ففي ذات يوم طرقت مرضع باب الملجإ وأودعته طفلة صغيرة اسمها لوسي . . هي لوسي هذه .

قالت عنها المرضع إن أم الطفلة أودعتها لديها لترضعها وكانت تواليها بالمال كل شهر . . ثم انقطعت عنها فجأة فلم يكن في وسعها إلاّ أن تودعها الملجإ .

ولا ريب أن القارئ قد أدرك أن هذه الخياطة لوسي ما هي إلاّ ابنة جان فورتييه وشقيقة جورج دارييه المحامي .

وهكذا بدأت الحلقة تضيق . . وأخذت الأقدار تلعب دورها ! . .

تعرف لوسيان لابرو بلوسي ابنة جان وأحبها . . واتصل جاك جارود بابن ضحيته جان أي المحامي جورج دارييه .

ولم يبق إلاّ أن يتم الاتصال بين جاك وابن القتيل أي الرسام لوسيان .

في ذات يوم دخلت لوسي على لوسيان وهو في غرفته فرأته شاحب الوجه غائر العينين فأخذت بيده وقالت تلومه بصوت عذب :

ـ ما هذا يا لوسيان؟ ! ألم أحذرك من إرهاق صحتك بالعمل !؟ إنك تكاد تقتل نفسك . . !

ـ إنها رسومات يلح أصحابها في سرعة إنجازها .

ـ ولكن ينبغي أن تترفق بصحتك !

ـ وما عساي أفعل؟ . . إني أقضي سحابة نهاري أتجول من مكان إلى مكان باحثاً عن عمل . . فلا مفر لي من أن أمضي الليل في إنجازها .

وساد الصمت برهة ثم قالت لوسي :

ـ إن زملاءك في المدرسة من الأغنياء فلم لا تلجأ إلى بعضهم تسألهم أن يهيّئوا لك عملاً .

فارتسمت على شفتيه ابتسامة حزينة وقال :

ـ لجأت إليهم جميعاً فما وجدت منهم إلاّ الصد والإعراض ! . .

فقالت لوسي :

ـ حتى ذلك الفتى الذي كنت لا تفتأ تمتدحه أمامي !؟

ـ أتعنين جورج دارييه زميلي في مدرسة هنري الرابع؟

ـ نعم . . فهل قابلته؟

ـ كلاّ . . فإني لا أعرف عنوانه . . وقد كان يدرس الحقوق .

ـ إذاً فهو الآن من المحامين . . ومن السهل الاهتداء إلى مقره .

فهز كتفيه وقال :

ـ إنه على أية حال لن يكون خيراً من سواه . .

ـ وما يدريك !؟ يحسن بك أن تمضي إلى لقائه .

ـ غداً أسعى إليه .

وحيّت لوسي خطيبها وانصرفت ذاهبة إلى السيدة أوغستين تحمل إليها ثوباً جديداً .

حين دخلت لوسي على السيدة أوغستين ألفتها منهمكة في تجربة ثوب على فتاة حسناء ذات شعر أشقر جميل .

وأدركت لوسي على الفور أن هذه الفتاة لا بد أن تكون واسعة الثراء . . إذ لم يكن من عادة السيدة أوغستين أن تجرب الثياب بنفسها إلاّ للمثريات من عميلاتها .

والتفتت السيدة أوغستين إلى لوسي وقالت :

ـ لقد كنت موشكة بأن أبعث في استدعائك ! . . هذا ثوب للرقص ينبغي إنجازه على عجل لأن الآنسة ماري هرمان في حاجة سريعة إليه .

فقالت ماري هرمان ابنة جاك جارود :

ـ أهذه هي الآنسة التي ستتولى خياطة ثوبي . .؟

ـ نعم . . وهي من أبرع العاملات عندي .

فقالت ماري :

ـ سأكون في انتظارك في دار أبي في الصباح عادة . . فعسى أن تنجزيه عاجلاً .

وحين انصرفت ماري هرمان ذكرت السيدة أوغستين للوسي شيئاً عن الفتاة وقالت مسترسلة :

ـ وأرجو أن تضاعفي الجهد فإنها شديدة التأنق في هندامها . .

ثم أنبأتها أن الفتاة مصدورة وإن كانت تجهل حقيقة دائها .

برّ لوسيان بوعده لخطيبته فذهب إلى دار المحكمة واستفسر عن عنوان المحامي جورج دارييه فقيل له إنه مقيم في رقم ١٩ في شارع بونابرت .

فمضى إليه مسرعاً ينشد لقاءه .

في غضون ذلك كان جورج دارييه في مكتبه منهمكاً في مراجعة إحدى القضايا حين دخل عليه وليّه المصور إتيين كاستل .

رحّب جورج بالمصور الشهير وقال له :

ـ ينبغي أن أعاتبك . . فقد مضى أسبوعان لم أرك في خلالهما .

فقال المصور معاتباً بدوره :

ـ لقد كنت منهمكاً في إنجاز بعض الصور . . ولكن كان في وسعك أنت أن تزورني .

ـ أرجو أن تلتمس لي عذراً من كثرة قضاياي .

فقال المصور باسماً :

ـ وقد التمست لك عذراً . . والدليل أني قادم اليوم لأشاطرك طعام الغداء ولأتحدث إليك في شأن لوحة أريد أن أرسمها .

ـ وما موضوعها؟

ـ لقد وقع الحادث الذي أنوي أن أبرزه على اللوحة منذ إحدى وعشرين سنة في منزل خالك الأب لوجييه كاهن قرية شيفري . . ولديك جواد مصنوع من الكرتون كنت تلاعبه عند وقوع الحادث

وأحب أن أستعيره منك .

ـ أتعني هذا الجواد؟ إنه تذكار من أمي . . ومن أجل هذا أحرص عليه !

وأشار إلى جواده الكرتوني القائم على رأس العمود الأبنوسي .

وقال المصور مسترسلاً :

ـ نعم . . هذا هو الجواد الذي أحب أن أستعيره .

ـ ولكن علام يدور موضوع اللوحة؟

ـ إنها قصة مؤثرة يتفجع لها القلب . . رجال الشرطة يقتحمون الدار ويسوقون امرأة مسكينة إلى السجن . . وسيظهر في هذه الصورة كثيرون منهم رجال الشرطة والعمدة وأمك وخالك الكاهن وأنا وأنت .

فقال جورج باستغراب :

ـ أنا؟

ـ نعم . . فقد كنت تبكي بكاءً مراً . . كأنَّ عبراتك توسلات إلى رجال الشرطة أن يطلقوا سراح هذه المرأة .

ـ عجباً . . إني لا أذكر شيئاً من هذا الحادث .

ـ هذا لأنك كنت في الثالثة من العمر . . ولكن حاول أن تستثير ذاكرتك . . وقع الحادث في حديقة . . وكان جوادك الكرتوني . . هذا الجواد . . معك . . وكنت تضمه إلى صدرك .

ـ وهل تنوي أن تبيع هذا الرسم؟

ـ ولم تسأل؟

ـ لأني أحب أن أقتنيه ما دام سيضم صورة أمي وخالي وصورتك .

فابتسم المصور وقال :

ـ اطمئن . . فإني أنوي أن أهديه إليك . . وقد أردت أن أفاجئك به عندما أفرغ منه . . ولكنك انتزعت سري مني .

وضحك الرجلان وشكره المحامي الشاب وقال يسأله :

ـ ولكن أخبرني . . ماذا جنت هذه المرأة؟

ـ لقد اتهمت بالسرقة والقتل والإحراق .

ـ وما كان مصير هذه المنكودة؟

ـ قُضي عليها بالسجن المؤبد .

ـ إذاً فقد ثبتت التهمة ضدها؟

ـ طبعاً . . فقد كانت الأدلة قوية دامغة .

ـ وما اسمها؟

ـ لقد نسيته لطول العهد به .

في هذه اللحظة دخلت الخادمة تنبئ سيدها بأن شاباً يدعى لوسيان لابرو يطلب مقابلته .

هتف جورج داربيه بابتهاج :

ـ إنه صديق لي من عهد الدراسة . . ولم نلتق منذ خمسة أعوام .

فقال المصور إتيين كاستل :

ـ لابرو؟ يخيل إليّ أنني سمعت بهذا الاسم من قبل !

وبعد لحظات دخل الزائر فتصافح الشابان بحرارة وقدّمه المحامي إلى وليّه المصوّر إتيين . . ثم راحا يتذاكران عهد الدراسة .

وقال جورج داربيه :

ـ عهدي بك مولعاً بالميكانيكيات فكيف حالك الآن؟ أرجو أن تكون مديراً لأحد المصانع !

فهزّ لوسيان رأسه وقال :

ـ الواقع أن الحظ لم يتهيأ لي .

ـ كيف ذلك . . وقد كنت أعلم أنك بارع في فنك؟

ـ ولكن براعتي لم تغن عني شيئاً فاضطررت أن أحترف رسم الآلات التماساً للرزق .

فهتف جورج داربيه :

ـ كان ينبغي أن تحضر لزيارتي قبل ذلك حتى أبادر إلى السعي لك عند من أعرف من أصحاب المصانع .

ثم قال معقّباً :

ـ أترضى بأن تتولى إدارة مصنع لصنع آلات السكك الحديدية؟

ـ هذا جل ما أتمنى .

ـ حسناً جداً . . إن من عملائي فرنسيّاً عاش في أميركا زمناً طويلاً . . ثم هبط فرنسا في العهد الأخير وأنشأ فيها مصنعاً . . وأحسب أنه لن يرفض لي رجاء . . إنه يدعى بول هرمان .

ـ بول هرمان شريك نيومي مورتيمر؟

ـ هو بعينه . . أتعرفه؟

ـ كلاّ . . ولكنّ له اسماً داوي الشهرة . . إنه مخترع آلة الخياطة الصامتة . . ومخترع آلة الصقل الحديثة وهي شبيهة بالآلة التي كان أبي منهمكاً في اختراعها قبيل مصرعه كما أنبأتني عمتي بذلك .

فانبرى المصور إتيين يقول :

ـ أكان أبوك من المخترعين؟ هل أنت ابن جول لابرو الذي احترق مصنعه منذ أكثر من عشرين عاماً؟

ـ تماماً يا سيدي . . وقد مات أبي قتيلاً في أثناء الحريق .

فقال جورج باستغراب :

ـ عجباً . . إنك لم تحدثني مطلقاً عن هذه النكبة !

ـ هذا لأنني لم أعلم بنبئها إلاّ بعد وفاة عمتي . . ولكن خبّرني يا سيدي أكنت صديقاً لأبي؟

ـ لا لم أعرفه . . ولكني سمعت الناس يرددون اسمه بعد هذا الحادث فانطبع في ذاكرتي .

ثم قال في نفسه :

ـ يا للمصادفة ! ها هوذا ابن القاتلة يصبح صديقاً لابن القتيل !

وقال جورج متسائلاً :

ـ وهل قبض على القاتل؟

فقال لوسيان مجيباً :

ـ لقد ارتكبت امرأة هذه الجرائم وعوقبت بالسجن المؤبد .

ـ امرأة؟

ـ نعم . . وقد فرت هاربة عقب الحادث ولاذت ببيت كاهن قرية شيفري ولكن الجند لحقوا بها وقبضوا عليها .

فأرسل جورج بصره إلى المصور بنظرة استفسار فقال هذا :

ـ نعم . . إنها المرأة نفسها التي حدثتك عنها والتي أنوي أن أرسمها في اللوحة .

فقال لوسيان :

ـ إذاً فقد رأيت هذه المرأة يا سيدي؟ !

ـ رأيتها وتحدثت إليها .

ـ هل اعترفت بجريمتها يا ترى؟

ـ بل أنكرتها بإيمان وإصرار . . ولكن إنكارها لم يجدها نفعاً إذ

حكم عليها . .

فقال لوسيان :

ـ ليس الحكم دليلاً على صحة التهمة . . فلطالما أخطأ القضاء .

ـ ولكن الأدلة كانت دامغة حاسمة !

ـ ربما كانت الظروف هي القاهرة . . ولكن ما هو رأيك الشخصي في هذه المتهمة ما دمت قد تابعت أطوار القضية؟

فسكت المصور هنيهة ثم قال :

ـ ربما كانت مذنبة .

فهتف لوسيان :

ـ ربما ! إذاً فأنت لست موقناً كما أيقن القضاة ! أمّا أنا فإني موقن من براءتها ! لقد قرأت يا سيدي تفاصيل الحادث في الصحف التي كانت عمتي تحتفظ بها . . وقد أيقنت بعد قراءتها أن جان فورتييه بريئة من هذه التهم الثلاث . . ولقد كان هذا هو اعتقاد عمتي أيضاً .

وقال جورج متسائلاً :

ـ وبم دافعت عن نفسها؟

فقال لوسيان :

ـ لقد اتهمت مراقب المصنع بارتكاب هذه الجرائم . . وهو يدعى جاك جارود . . وأكّدت أنه كتب إليها رسالة غرام يدعوها فيها إلى مرافقته عند فراره من فرنسا . . ولكنها لم تستطع أن تقدم هذه الرسالة إلى المحكمة .

فقال المصور إتيين :

ـ وهل غاب عنك أن جاك جارود مات شهيد إخلاصه وشهامته؟

فقال لوسيان بإصرار :

ـ إني موقن من أنه هو الجاني . . وما موته إلاّ خدعة جازت على الناس جميعاً . . وسوف لا يهدأ لي بال حتى أميط اللثام عن هذه الجريمة وأسعى إلى إنقاذ هذه المسكينة من سجنها المؤبد !

ـ وما جدوى إثبات الجريمة الآن على جاك جارود ومحاكمته فقد أصبحت غير جائزة لمضي المدة؟ !

فقال لوسيان بانفعال :

ـ سأعرف كيف أنتقم لنفسي .

ـ ترى ألا تزال جان فورتييه على قيد الحياة؟

ـ هذا ما لا أعرفه . . ولكني سأستفسر . .

فانبرى المحامي جورج داربيه يقول :

ـ يمكنني أن أتولى عنك هذا الأمر فهو هيّن عليّ بحكم مهنتي .

وتطرّق بينهما الحديث إلى ذكر الزواج فقال لوسيان :

ـ إنّ لي خطيبة تدعى لوسي ولولا أسباب الفقر لاقترنت بها في غير إمهال .

ـ ومن تكون هذه الفتاة؟

ـ إنها فتاة يتيمة نشأت في أحد ملاجئ الأطفال ولا تعرف اسم أسرتها . . ولكنها من أكرم الفتيات .

ـ يلوح لي أنك تحبها؟

ـ حبّاً جنونياً .

ـ إذاً أرجو أن أهنئك عاجلاً بالزفاف .

كانت لوسي تنتظر عودة خطيبها وقد ألحت عليها اللهفة . . فلمّا رجع ابتدرته بقولها :

ـ ماذا فعلت؟
ـ لقد أحسن استقبالي . . وألقى إليّ وعداً بمساعدتي .
وروى لها ما جرى بينه وبين صديقه القديم .
فهتفت لوسي باغتباط :
ـ آه . . لقد صدقت الأحلام . . آه . . لو صدقت . . !
في صباح اليوم التالي انطلق جورج داريبه إلى منزل جاك جارود ليتحدث إليه في شأن صديقه لوسيان لابرو .
ولكنَّ رب الدار كان غائباً . . قيل له إنه مسافر ولن يعود إلاّ بعد أسبوعين أو ثلاثة .
وساءت هذه الغيبة جورج إذ كان متلهّفاً إلى إسداء تلك الخدمة إلى صديقه .
ولكنه كان يعرف أن لماري هرمان كلمة مسموعة عند أبيها فقال في نفسه :
ـ ولم لا أتحدث إليها في الأمر وأسألها العون . .
وطلب مقابلتها من فوره .
استقبلته الفتاة باسمة فقال يسألها :
ـ كيف حالك يا آنستي الآن؟
ـ إن صحتي على ما يرام . . !
ولكن السعال فاجأها فقطع عليها الحديث فقالت :
ـ ولولا هذا السعال البغيض لكنت على أوفر عافية . . !
وكان جورج يعلم أنها مصابة بالسل الرئوي . . وأنها تجهل حقيقة دائها . فتفجّع وقال :
ـ والأطباء . . ماذا يقولون؟ !

فضحكت باستخفاف وقالت :

ـ الأطباء ! ألا تباً لهم ! لقد برمت بأدويتهم ! إنّ هذا السعال ناشئ عن التهاب بسيط في الحلق . . ومع ذلك يصفون لي عشرات من الأدوية .

ثم غيّرت مجرى الحديث وقالت :

ـ أحسبك جئت تزور أبي؟ إنه غائب عن باريس لن يعود إلاّ بعد ثلاثة أسابيع . . في أوائل الشهر المقبل .

ـ إذاً فهل لي أن أنشد عونك يا آنستي في تعيين شاب بارع من أصدقاء المدرسة مديراً لمصنع أبيك الجديد؟ إنه خريج مدرسة الفنون والصنائع .

ـ أهو صديق حميم لك؟

ـ نعم يا آنستي . . تعرفت به حين جمعتنا المدرسة . . وفي طفولته قتل أبوه وسرقت أمواله فكفلته عمته . . فلا يسعه أن يعيش دون عمل يعتمد عليه .

فقالت الفتاة ببراءة :

ـ إني أكون سعيدة يا سيدي بأن أمد إليك يد المعونة في هذا الشأن . . قل لصديقك أن يوقن من النجاح . . إن أبي لا يمكن أن يرد لي طلباً . . فليحضر صديقك إلى زيارتي في اليوم الثالث من الشهر القادم . . لأن أبي سيعود في اليوم الثاني .

وشكرها جورج وانصرف مغتبطاً . . وكتب إلى صديقه لوسيان يزف إليه البشرى .

ـ ١٧ ـ

وهكذا شاءت الأقدار أن تجمع بين الأشخاص الذين اشتركوا عن

بعد أو قرب في مأساة مصنع لابرو . . وبدأت الصلات تنعقد بينهم لتشتدّ وتقوى .

ولم يبق غائباً منهم إلاّ جان فورتييه .

هربت جان من السجن وهي بملابس الراهبات . . وأسرعت إلى حانوت لبيع الثياب فابتاعت ثوباً عادياً . . وفي ركن منزو من الغابة القريبة ارتدت ثيابها الجديدة ثم سارت إلى محطة السكة الحديد واستقلت القطار إلى پاريس .

ولم تكن جان بالغبية البلهاء . . كانت تعلم أن اكتشاف فرارها لن يطول . . وأن البوليس سيكتشف حتماً أنها سافرت إلى پاريس فيترقب وصولها والقيد مهيأ لها ينتظرها .

فلمّا بلغ القطار إحدى المحطات القريبة من پاريس هبطت منه واستقلت إحدى سيارات الأجرة إلى المدينة .

بهذه الخدعة استطاعت أن تفلت من مطارديها . . وفي زحمة المدينة الخانقة كان من المستحيل الاهتداء إليها إلاّ بعد جهود شاقة خارقة .

لم تلبث جان في پاريس إلاّ فترة وجيزة تناولت فيها الطعام . . ثم سافرت من فورها إلى قرية شيفري . . ومضت إلى بيت الكاهن .

وفي الطريق إليه استعادت في ذاكرتها تلك الصورة التي انطبعت منذ أكثر من عشرين عاماً .

رجال الشرطة يسوقونها إلى السجن . . وولدها جورج محتضن جواده الكرتوني . . وكلاريس ـ أخت الأب لوجيبه ـ تحاول أن تسري عن الطفل المسكين أحزانه وهمومه .

وطرقت جان باب الكاهن وطلبت مقابلته . . فلمّا مثلت في حضرته قالت له :

ـ سيدي الأب . . إن امرأة في باريس عـهدت إلي بأن أستـفسر منك عن مسألة تعنيها .

ـ سلي ما بدا لك يا ابنتي .

ـ ألم يكن للكاهن السابق أخت تدعى كلاريس؟

ـ نعم يا ابنتي . ولكنهـا ماتت قبـل وفاة الأب لوجيـيه بأسـابيع قليلة !

ـ وكانت هذه الأخت تتولى تربية طفل صغير؟

ـ هوذاك . . إنه ابنها كما قيل لي .

وأجفلت جان !

ابنها ! رباه ! أتكون هي الأم ولا تجرؤ أن تقول؟ !

واسترسلت قائلة :

ـ أتعرف أين هذا الغلام الآن؟

فهز رأسه وقال :

ـ كلاّ . . كـل ما بلغني أنه مـقيم في باريس وأنه زار شـيفري عند وفاة خاله ثم ما لبث أن سافر مسرعاً مع أحد أصدقاء الأب لوجييه .

ـ أتعرف اسم هذا الصديق؟

ـ كلاّ .

ـ ربما كان عمدة القرية على علم به؟

ـ محال . . فقد مات العمدة السابق وحل مكانه اثنان .

ـ وأين خادمة الكاهن؟ ألا تعرف عنها شيئاً؟

ـ لقد ماتت هي أيضاً .

ـ أماتت أخت الكاهن في هذه القرية؟

ـ نعم .

ـ إذاً فلا ريب أن اسمها مدوّن في سجلات الكنيسة . . فإذا اطلعت عليها أمكن أن نعرف منها اسم الأخت ولقبها فإني لا أعرف إلاّ أنها تدعى كلاريس . . وبهذه الطريقة يمكن أن نهتدي إلى اسم ابنها ولقبه !

ـ والحرب يا سيدتي؟ أنسيت أن الحرب هدمت ثلاثة أرباع منازل القرية وأن سجلات الكنيسة احترقت فلم يعد باقياً منها شيء .

بدت أمارات اليأس على وجه جان وقالت بمرارة :

ـ رباه ! ألا يسعني إذاً أن أعلم شيئاً؟

استغرب الكاهن ما تبدي هذه المرأة من اهتمام وحزن فقال :

ـ وما الذي يدعوك أنت شخصياً إلى هذا الاهتمام بهذه المسألة؟

وأثار سؤاله خوفها . . لقد خشيت أن تكون بإلحاحها قد أثارت ريبته فقالت مستدركة على عجل :

ـ إني قادمة إليك يا سيدي بالنيابة عن صديقة لي في باريس عهدت إليّ بالاستفسار ووعدتني بأجر جزيل إن جئتها بما تريد من بيانات . . فهي تحب أن تعرف الاسم الذي كان يدعى به ابن السيدة كلاريس أخت الكاهن .

خرجت جان من عند الكاهن دون أن تحصّل شيئاً من المعلومات التي تريدها .

ركعت عند باب الكنيسة وراحت تصلي بحرارة والعبرات تنهمر من عينيها وتقول :

ـ رباه ! ما يكون الآن وما العمل؟ إنّ ولدي يقيم في باريس كما فهمت من الكاهن . . مع صديق للأب لوجيبيه . . ولكن ترى أي

اسم قد اتخذ ما دامت كلاريس قد نسبته إليها واتخذته ابناً لها؟ !

لو أني سألت أهل القرية لرابهم أمري . . وربما تكون الصحف قد ذكرت الآن نبأ فراري . . فلا أنال من هذا الإلحاح إلاّ إثارة الشبهات وتسريع اعتقالي من جديد !

ثم تنهدت وقالت :

ـ يلوح لي أنني بدأت أفقد الرجاء في العثور على ولدي ! فلأبحث إذاً عن ابنتي لوسي .

وانطلقت من فورها إلى القرية التي كانت تقيم فيها المرضع التي أرضعت ابنتها فبلغتها عند ظهر اليوم التالي .

كانت تعلم أن المرضع غير موجودة في القرية ما دامت مصلحة البريد قد أرجعت إليها الرسالة التي كتبتها إليها وهي في السجن . . ولكنها كانت ترجو أن تستفسر عنها من أهل القرية .

سارت إلى بيت المرضع . . وحين أشرفت عليه جمدت مكانها حائرة مذهولة !

لقد اختفى المنزل ولم يعد باقياً منه أي أثر . . وفي مكانه قام منزل رحب كبير .

وراحت جان تتحدث إلى البوابة . . أنبأتها المرأة أنها من أهل القرية وأنها كانت تعرف مرضعاً تدعى السيدة فريمي وأنها ماتت في سني الحرب وكذلك مات ابنها .

فقالت جان :

ـ إنها كانت تتولى تربية طفلة تدعى لوسي منذ عشرين عاماً فهل تعرفين مصير هذه الطفلة الآن؟

ـ في ذلك العهد لم أكن مقيمة في جواني ولكن لا ريب أن

السيدة فريمي سلّمت هذه الطفلة إلى الشرطة حين تخلف أهلها عن الحضور لاستلامها فأودعت أحد الملاجئ . . فعليك بإدارة الشرطة .

وللمرة الثانية طغت موجة جديدة من اليأس على جان فورتييه !

عليها بإدارة الشرطة ! نعم إنها تعلم أن تلك هي الوسيلة الوحيدة للاهتداء إلى ابنتها ولكنها في الوقت ذاته الوسيلة الوحيدة لفقدها إلى الأبد ! فلو أن شرطياً رآها لقبض عليها وساقها إلى السجن توآ !

وفي اليوم نفسه غادرت قرية جواني واليأس يعصر فؤادها .

استأجرت جان لنفسها غرفة صغيرة تقيم فيها . . وقد كانت مقترة على نفسها خشية أن ينفد ما معها من مال قليل قبضته أجراً لها حين كانت تعمل ممرضة في مستشفى السجن .

وعلى رغم اليأس الذي انتابها كانت معولة على أن تواصل البحث عن ولديها علّها تهتدي إليهما . . ولكنها في الوقت ذاته كانت تريد عملاً تقتات من أجره إذ أوشك ما لديها من مال أن ينفد .

غادرت مسكنها . . وسارت تبحث عن حانة متواضعة تتناول فيها طعاماً . . وعلى عشرات من الأمتار أخذت عينها حانة عند بابها لوحة تحمل هذه الكلمات : «ملتقى الخبازين» .

ـ ١٨ ـ

حملت لوسي ثوب الرقص إلى بيت ابنة جاك جارود دون أن يخطر لها ببال أن المحامي جورج داربيه وعد خطيبها لوسيان بأن يجد له عملاً في مصنع والد هذه الفتاة . . فقد كتم لوسيان اسم صاحب المصنع عن لوسي عملاً بوصية جورج إذ سأله أن يتكتم الأمر عن الناس جميعاً . . وإن كان قد كاشفها بما وعده جورج .

وحين طرقت لوسي الباب كانت ماري هرمان تقول في نفسها :

ـ إني شديدة الثراء فلم لا أحاول أن أستخدم هذه الثروة في إسعاد الفقراء من الناس وتبديد أحزانهم .

كانت علّتها المزمنة تبعث في نفسها الإشفاق والرحمة فتتمنى لو انتشلت البؤساء من وهدة الفاقة . . ولكن في بعض الأحيان حين تشتد بها نوبات السعال . . كانت تنقلب على الدنيا بأسرها . . تتمنى لو أنها ألقت بالعالم كله إلى أتون متقد .

وقطع عليها دخول لوسي تصوّراتها فاستقبلتها مرحبة . . وراحت وهي تجرب الثوب تتحدث إليها . . فعلمت منها أنها يتيمة الأبوين وأنها نشأت في أحد الملاجئ . . فقالت ماري باستنكار :

ـ كيف هذا . . أتودعك ملجأ ويطاوعها قلبها على أن لا تراك؟ !

فقالت لوسي بأسى :

ـ ما من أم ترضى بأن تتخلى عن ابنتها بملء إرادتها . . وما يُدريني أي شيء حال بيني وبين أمي فيحرمني عطفها وحنوها؟

ـ ولكن ألم تحاولي أن تستفسري من الملجإ عن حقيقة نسبك؟

ـ حاولت يا سيدتي . . ولكن أنظمة الملاجئ تحرم إعطاء هذه البيانات . . فنشأت أجهل اسم أسرتي .

وبعد برهة قصيرة قالت ماري :

ـ لقد أنبأتني السيدة أوغستين أنك أبرع عاملاتها . . فلم لا تنشئين لنفسك محلاً للخياطة؟

فابتسمت لوسي وقالت :

ـ لا بد لهذا من رأس مال كبير .

ـ إنك وافرة الجمال فلم لا تتزوجين رجلاً يمنحك من المال ما

تبغين؟

تضرّج وجه لوسي حين سمعت هذه الكلمات . . فابتسمت ماري وقالت :

ـ يلوح لي أنك تفكرين فعلاً في الزواج وإلاّ لما تخضب وجهك احمراراً .

ـ هو ذاك يا سيدتي . . ولكن خطيبي فقير لا يمكن أن أرجو منه معونة مالية . . هذا إلى أنه يأبى عليّ أن أشتغل بعد الزواج .

فقالت ماري هرمان :

ـ يسرني عندما تتزوجين أن أدفع عنك كلفة الجهاز (البائنة) على شريطة أن يأذن لك زوجك بأن تخيطي لي ثيابي !

ـ إني موقنة يا سيدتي من أنه لن يرفض رجائي إذا ما سألته .

ـ أيمكنك أن تنجزي هذا الثوب يوم الخميس القادم؟ فإني ذاهبة إلى إحدى الحفلات الراقصة .

ـ سأنجزه يا سيدتي .

ـ وما هو عنوانك فقد يطيب لي أن أزورك بنفسي؟

ـ ٩ شارع بوربون يا سيدتي .

ـ حسناً . . إلى اللقاء إذاً . . وسأكون في انتظارك يوم الخميس .

حين خلت ماري هرمان بنفسها عرتها موجة من الاكتئاب وراحت تقول لنفسها :

ـ مسكينة هذه الفتاة ! إنها لقيطة لا تعرف لها أباً أو أماً ! إنها كانت خليقة أن تكون أتعس الفتيات إذ حرمت عطف الأم وحنانها ! ومع ذلك فهي سعيدة هانئة . . لماذا؟ لأنها تحب . . ولأنها وجدت من يحبها . . أما أنا الفتاة الغنية فما زلت حتى اليوم لا أجد من

يحبني ! رباه ! حقاً إن الحياة بلا حب عذاب وجحيم !

وفاجأها السعال في هذه اللحظة . . وكانت وطأته شديدة . . فوضعت منديلها على فمها وقد امتقع وجهها .

وحين رفعت منديلها راعها أن رأت فيه بقعاً دموية صغيرة .

هتفت مذعورة :

ـ رباه ! من أين هذا الدم !؟ إني أحس كأنما في صدري أتون متأجج !

ونهضت بإعياء وتناولت جرعة من الدواء . . ثم عادت إلى مكانها أمام المدفأة . . وأسلمت نفسها إلى التصورات والأحلام .

تصوّرات فتاة تبحث عن الحب وتتمناه . . ولا تعلم أنها على حافة القبر !

كانت حانة «ملتقى الخبازين» مجمع الخبازين حقّاً . . إذ كانوا يفدون عليها بعد فراغهم من أعمالهم يتناولون فيها طعاماً وشراباً .

وجلست جان فورتييه تتناول طعامها . . وأحاديث القوم تنتهي إلى أذنيها إذ كانوا يتكلمون بصوت مرتفع .

وفهمت من حديثهم أن إدارات المخابز تشعر بحاجة ماسة إلى موزعات للخبز على الدور فلا تجدهنّ لارتفاع أجر النساء .

وقالت جان :

ـ ولم لا أعمل بائعة للخبز !؟ إنني بذلك أنال ثلاثة فرنكات ونصفاً في اليوم . . وأعمل الشطر الأول من النهار ثم أمضي بقية اليوم في البحث عن ولديّ .

وتقدّمت مسرعة إلى الخباز الذي كان يتحدث عن أزمة العاملات وأنبأته بأنها تبحث عن عمل . . فقال لها :

ـ إني موقن من أن صاحبة المخبز سترحب باستخدامك . . ولكن أتعرفين باريس جيّداً؟

ـ حق المعرفة . . ولن يعسر عليّ أن أعرف المنازل التي أوزع عليها الخبز في خلال أيام قليلة .

وكتب الخباز اسمها في مفكرته . . ودعاها إلى الحضور إلى المخبز في اليوم التالي في موعد عيّنه لها . . ولكنها لم تذكر بطبيعة الحال أنها تدعى جان فورتييه . . وإنما أنبأته بأن اسمها ليزا بيرين .

في صباح اليوم التالي ذهبت جان إلى المخبز . . وبعد حديث قصير مع صاحبته عينتها موزعة للخبز على أن تتقاضى في اليوم ثلاثة فرنكات ونصفاً .

وقالت لها صاحبة المخبز :

ـ وسترافقك خادمتي في خلال اليومين الأولين ريثما تنطبع أرقام المنازل في ذاكرتك .

في صباح اليوم الثالث حملت جان فورتييه الخبز وراحت توزعه على الدور .

وكانت الخياطة لوسي إحدى عميلاتها .

حين رأت بائعة الخبز لوسي شعرت على الفور بميل شديد إليها .

لم تكن تعرف أن تلك الفتاة إنما هي ابنتها التي تنشدها وتبحث عنها . . ولكنها كانت تعرف أن هذه الفتاة وجدت لنفسها مكاناً في قلبها .

وكذلك بادلتها لوسي الشعور نفسه .

وقالت الفتاة وقد لاحظت أن جان تتنفس بصعوبة :

ـ يلوح لي أن صعود السلم أرهقك ! إذا كان الأمر كذلك فلك

أن تتركي خبزي عند البواب . . قولي له إنه للآنسة لوسي .

أجفلت جان عند سماعها هذا الاسم ! لوسي ! يا للمصادفة ! إنه هو اسم ابنتها ! ولو كانت ابنتها الآن على قيد الحياة لكانت في مثل سن هذه الفتاة . . ولكان لها جمالها !

وقالت بائعة الخبز :

ـ كلاّ يا ابنتي . . إني لست متعبة . . سأحمل إليك الخبز بنفسي كل صباح ولن أتركه عند البواب ! لقد بدأت أحبك .

ولكن لم تقل لها إنها أحبتها وإنها تتمنى أن تراها كل يوم . . لأنها تذكرها بابنتها تلك التي حرمت من لقائها منذ أكثر من عشرين عاماً !

وفي كل يوم كانت جان تتردد على لوسي . . تحمل إليها الخبز . . وهي سعيدة راضية عن هذا العمل .

لقد شعرت بميل شديد إلى هذه الفتاة . . وكانت ترقبها وهي منهمكة في خياطة الثياب بعينين محبّتين متلهّفتين . وما جسرت يوماً على أن تسألها عن ماضيها .

وفي بعض الأحيان كانت تجد لوسيان لابرو يتحدث إليها . . ولكن ما خطر ببالها يوماً أن هذا الفتى هو ابن ذلك الرجل الذي اتهمت بقتله والذي زجت بسببه في السجن عشرين عاماً !

في اليوم الثاني من الشهر التالي بعث المحامي جورج دارييه إلى صديقه الرسام لوسيان يدعوه إلى مقابلته .

وحين دخل عليه ابتدره بقوله :

ـ لقد كتبت إليّ الآنسة هرمان لأطلب إليك أن تذهب إلى زيارتها غداً في الساعة العاشرة صباحاً حتى تقدمك إلى أبيها .

ـ شكراً لك أيها الصديق .

ـ وقد كتبت رسالة إلى السيد هرمان أطريك فيها وأنبئه بما أعرف من أمرك ومن سجاياك .

ـ إني عاجز عن أن أقدّم إليك الشكر .

وفي صباح اليوم التالي دخل لوسيان على خطيبته وهو يقول :

ـ إني ذاهب الآن إلى مقابلة صاحب المصنع . . لقد سألني جورج أن أكتم اسمه إلى أن أنال المنصب . . ولكن ليس بيننا سر يكتم . . إنه يدعى بول هرمان .

فقالت لوسي على عجل :

ـ المقيم في شارع موريل . .؟

ـ هو بعينه . . أتعرفينه؟

ـ بل أعرف ابنته الآنسة ماري . . وهذا الثوب الذي بين يديّ لها ! وأرجو أن تنال يا عزيزي ما تصبو إليه .

في الساعة العاشرة كان لوسيان لابرو جالساً في قاعة الاستقبال يتحدث إلى ماري هرمان .

حين رأته أدهشها منه ما يبدو عليه من نبل الوجه وأناقة الثياب . . وقالت له باسمة :

ـ لقد أوصاني بك صديقنا المحامي جورج داريه . . وأطراك كثيراً . . ولهذا يسرني أن أتحدث إلى أبي في شأنك .

ـ إني شاكر لك يا آنستي اهتمامك بمستقبلي . . وهذا المنصب الذي أطمح إليه سينقذني من متاعبي المالية التي أعانيها .

فقالت ماري :

ـ لا أكتم عنك أن هناك كثيرين يتزاحمون على هذا المنصب . .

ولكن أبي لم يقطع في الأمر برأي بعد . . وأعتقد أنه لن يخيب رجائي . . إن من عادتي أن لا أتدخل في أعمال أبي . . ولكني أنوي هذه المرة أن أتدخل إكراماً للسيد داريه .

وعاد لوسيان يبدي لها الشكر .

ثم تطرق بينهما الحديث إلى مواضيع أخرى .

وكانت ماري تصغي إلى حديثه بقلب خافق . . وقد اضطرم في عينيها لهيب غريب . . !

وقالت :

ـ لقد دعوتك اليوم يا سيدي لأقدمك إلى أبي . . ولكن جاءتني منه برقية منذ ساعة يخطرني بأنه تخلّف يوماً في بلجيكا . . فليكن موعدنا الغد إذاً .

ثم ضحكت وقالت :

ـ من العجيب يا سيدي أنني لا أعرف اسمك حتى الآن . .؟

ـ لوسيان . . لوسيان لابرو .

فابتسمت وقالت :

ـ لن أنسى هذا الاسم . . ويمكنك أن تطمئن يا سيد لابرو .

انصرف لوسيان وخلت ماري بنفسها . . قالت :

ـ لوسيان . . ! اسم جميل ! ولكن ما هذا الشعور العجيب الذي عراني !؟ كنت في حضرته أصغي إلى كل كلمة ينطق بها بإعجاب وتقدير . . وكان يخيل إليّ أن خفقات قلبي قد اشتدت !

نعم . . لا بد أن أحمل أبي على أن يعهد إليه بإدارة مصنعه ! . .

في ذلك المساء وصل جاك جارود إلى داره كما أنبأ ابنته برقياً .

وحين دخل عليها تفطر قلبه حسرات . . لقد رآها شديدة النحول

شاحبة الوجه . . فأيقن أنّ العلة الدفينة أخذت تفتك بها!

وتحـرك قلب هذا السفّـاك الذي لم ينبض له عِـرق يـوم ارتكب جريمته الثلاثية!

كان دائماً يخادع نفسه ويقول: كلا . . إنها ستعيش!

أمّا اليوم فقد تجلّت له الحقيقة . . وعـرف أن الموت بسط ذراعيه ليحتضن فتاته الوحيدة .

ضمّها إلى صدره وقال بيأس:

ـ كيف حالك يا ابنتي؟

ـ إنني بخير . . وقد تحسّنت صحتي!

وعاودتها نوبة من السعال . . كانت مكذبة لقولها!

وأحس الأب المسكين أنه يوشك أن يجن . . وكان عذابه ممضّاً لا يطاق ولا يحتمل!

ـ ١٩ ـ

في صباح اليوم التالي دخل جاك جارود إلى مكتبه وراح يقرأ الخطابات الواردة إليه .

وكانت بينها رسالة تحمل الطابع الأميركي .

فضّها على عجل وأخذ يتلوها إذ عرف أنها من أوفيد سوليفر .

في هذه الرسالة أنبأه أوفيد أن ديون القمار أثقلت كاهله . . وأنه أساء إدارة المصنع فاضطر إلى بيعه أخيراً .

واختتم أوفيد رسالته بقوله:

«وقد بت أشعر يا ابن الخال العزيز أنه لا طاقة لي على فراقك فعولت على القدوم إلى فرنسا لأقيم قريباً منك» .

حين قرأ جاك هذه الرسالة تولاه الغضب وقال مغمغماً:

ـ تبّاً له ! لقد أوصد هذا الشقي أبواب مصنع كان خليقاً أن يدر عليه مئات الألوف ! وها هوذا ينوي الحضور إلى فرنسا ! لقد حسبت أني بإهدائه المصنع قد تخلصت من وعيده ! ولكن يلوح لي أني لن أرتاح منه وأنه سيعود ليرهقني بطلباته .

وقبيل الساعة العاشرة بقليل دخل الخادم على ماري هرمان ينبئها بأن السيد الذي كان في زيارتها بالأمس حضر مرة أخرى .

خفق قلب ماري حين سمعت هذا . . وتضرج وجهها احمراراً . . وقالت في نفسها :

ـ ما هذا؟ هل بدأ الحب ينفذ إلى قلبي !؟

وأمرت الخادم بأن يدعوه إليها .

وقالت تخاطب لوسيان حين دخل عليها :

ـ إني لم أتحدث إلى أبي في شأنك بعد يا سيدي . . . ولكنني عرفت أنه لم يعيّن أحداً في هذا المنصب حتى الآن . . فأرجوك أن تنتظرني هنيهة حتى أدعوك .

ولم يطل انتظاره . . فما كانت في حاجة إلى إقناع أبيها . . إنه لن يرفض لها رجاء . . ولا سيما أنَّ صديقه المحامي داربيه قد أطرى هذا الشاب إطراءً شديداً .

وبعد لحظات كان لوسيان في حضرة جاك جارود يدفع إليه الكتاب الذي بعث به إلى جورج داربيه .

وقال جاك يسأله :

ـ كم تبلغ سنك؟

ـ إنني في السابعة والعشرين يا سيدي .

ـ وأين ولدت؟

ـ في ألفورتفيل .

وشعر جاك أن الدماء جمدت في عروقه حين سمع اسم هذه البلدة . . . ألفورتفيل . . .؟ إنها البلدة التي فيها مصنع السيد لابرو! البلدة التي ارتكب فيها جرائمه الرهيبة!

وعاد يقول وقد غادره روعه :

ـ وهل أبواك على قيد الحياة؟

ـ بل ماتا يا سيدي .

ـ وما كانت مهنة أبيك؟

ـ كان مهندساً ميكانيكياً . . وكان له مصنع في ألفورتفيل .

امتقع وجه جاك وعرته الرعدة وقال :

ـ ما اسم أبيك . .؟

ـ جول لابرو!

فقال جاك مردداً على غير وعي منه :

ـ لابرو . . ! لابرو!

فقال لوسيان وقد رأى اضطراب جاك جارود :

ـ أكنت تعرف أبي يا سيدي؟

ـ لقد كان من أعز أصدقائي . . وهذا ما أهاج اضطرابي حين سمعت اسمه على غير انتظار! ولقد قرأت وأنا في أميركا نبأ الفاجعة الأليمة التي حلّت به .

ـ فأنت تعرف كيف مات يا سيدي إذاً؟

ـ نعم . . قتلته بوابة المصنع في أثناء الحريق .

فقال لوسيان :

ـ هذا ما قاله القضاة أمّا أنا فأعتقد أن البوابة بريئة من هذه

التهمة .

فارتعد جاك وقال :

ـ ولكن ما تقول في الأدلة التي قامت على إجرامها؟ !

ـ إنها من تدبير الظروف القاهرة . . لقد أنبأتني عمتي أن القاتل لا بد أن يكون رجلاً له غاية معينة من قتل أبي .

ـ ومن يكون هذا الرجل؟

ـ مراقب المصنع . . فقد كاشفه أبي بسر اختراع جديد ينوي إخراجه فقتله غيلة وحرق المصنع ليسرق رسومات الاختراع . . إنه يدعى جاك جارود . .

وما إن سمع جاك هذه الكلمات حتى خيل إليه أن قلبه قد كف عن الخفقان . . ولكنه تمالك روعه بجهد ملموس وقال :

ـ ولكني أذكر مما قرأت أن هذا الرجل مات شهيد شهامته حين أراد أن ينتشل أموال أبيك من النيران !

ـ تلك خدعة يا سيدي ! لا ريب أنه اقتحم النيران ثم غادر المكتب دون أن يراه أحد !

ـ ألديك برهان على ما تقول؟

ـ كلا بكل أسف .

ـ إذاً فهذه كلها ظنون وأوهام لا تستند إلى أساس . . وما دام حكم القضاء قد صدر فقد دمغ الحقيقة .

ـ كلاّ يا سيدي ! إني أعلم أن الحقيقة لم تنكشف بعد . . ولن أبخل بجهد في سبيل تبرئة هذه المتهمة البريئة .

تصبّب جبين جاك عرقاً وقال :

ـ وما يجديك ذلك الآن وقد انقضت مدة طويلة لا يمكن معها أن

يقدم القاتل الحقيقي إلى القصاص؟

ـ سأنتقم لنفسي . . لا شك أن هذا الرجل قد أثرى بما أصاب من أرباح ذلك الاختراع الذي سرقه من أبي . . فلو أني فضحته وشهّرت به لقضيت على مستقبله . . ولكان في ذلك انتقامي الأكبر!

وساد الصمت برهة . . كان جاك بادي الاضطراب والخوف معاً . . وكان يقول في نفسه :

ـ ربّاه . . ! أبعد هذه السنوات الطوال ألتقي بابن الرجل الذي قتلته . . وأسمع منه أنه مرتاب مصر على الثأر لأبيه ! .

ثم تحوّل إلى الشاب فجأة وقال :

ـ حسناً . . لقد اخترتك مديراً لمصنعي إكراماً لأبيك الذي كان من خيرة أصدقائي . . ولـمّا كان إنشاء المصنع لم يتم بعد . . فأحب أن تعمل في داري هذه إلى أن يتم تشييد المصنع . . وقد جعلت راتبك ألف فرنك في الشهر .

فراح لوسيان يشكره ويقول :

ـ إني ذاهب الآن لأتناول طعام الغداء على أن أعود فوراً لأشرع في مراجعة الرسوم .

ـ بل نتناول الغداء معاً . . فأرجوك أن تذهب إلى ماري في قاعة الاستقبال وتنبئها بذلك حتى تهيّئ لك مقعداً على المائدة .

ولـمّا خلا جاك جارود إلى نفسه قال :

ـ ويلاه . . إنه إن كشف أمري فلن يهتك الستر عني فحسب وإنما سيقتل ابنتي المحبوبة أيضاً ! ومحال أن أدعه يفعل هذا ! سأجعله يقيم إلى جواري وبذلك يسهل عليّ أن أرقب حركاته وسكناته ! فإذا بدرت منه بادرة تنطوي على الشك قتلته على الفور كما قتلت أباه

من قبل! محال أن أتركه يشهر بي فيقتل ابنتي!

مضى لوسيان إلى قاعة الاستقبال وقال لماري:

ـ ينبغي أن أشكرك يا آنستي فقد عيّنني أبوك مديراً لمصنعه.

وحين سمعت ماري هذه الكلمات عراها اضطراب شديد فاستندت إلى الكرسي فقال لها لوسيان وقد أدركه الجزع عليها:

ـ ما الذي أصابك يا آنستي؟

ـ لا شيء.. لقد أثّر فيّ الفرح تأثيراً شديداً.. إنه عارض بسيط يا سيدي وقد زال..!

فعاد لوسيان يشكرها وتناول يدها فقبّلها وهو يقول:

ـ محال أن أنسى فضلك يا آنستي..!

وأصابتها من قبلته رجفة شاملة..!

وقالت في نفسها:

ـ ربّاه.. إني أحبه حبّاً شديداً.

وأنبأها لوسيان بأنه سيتناول معهما الغداء فانسحبت لكي تأمر بإعداد المائدة.

مضت ماري إلى أبيها وراحت تشكره على أن حقق رجاءها.

وفي عينيها رأى عبرات تلتمع..!

وفجأة.. ملأ الرعب قلبه.. قال في نفسه:

ـ ترى هل أحبت ابنتي لوسيان؟! رباه!! لو وقع هذا لكانت هذه هي النكبة الكبرى.. ابنة القاتل تحب ابن القتيل!

ربّاه..! أيكون هذا..؟ اللهم رحمة بي..!

كانت جان فورتييه تتمنى أن تطيل جلستها مع لوسي إذ أحسّت نحوها بذلك الحب الشديد الذي يبعثه شعور الأمومة الخفي..

فتوسّلت إلى ذلك بأن حملت إليها قطعة من القماش وسألتها أن تخيطها لها ثوباً .

وفيما كانت جالسة معها راحت تستفسر منها عن ماضيها فقالت لها :

ـ أتحترفين الخياطة منذ زمن طويل؟

ـ منذ سبعة أعوام .

ـ وأين تعلمتها؟

ـ في الملجإ الذي نشأت فيه .

ارتعدت جان وقد ذكرت أن ابنتها هي أيضاً ربيت في ملجإ . . وأن هذه الفتاة تشترك معها في الاسم وقالت لها :

ـ إذاً فقد نشأت في ملجإ؟

ـ نعم . . وقد نزلته صغيرة وما عرفت أبي أو أمي .

ـ ومتى كان ذلك؟

ـ منذ إحدى وعشرين سنة .

ـ وكم كانت سنك إذ ذاك؟

ـ عام وبضعة شهور .

ـ ومن الذي أودعك الملجإ؟ أهلك؟

ـ لا أدري !

ـ وهذا الاسم الذي تحملينه . من أطلقه عليك؟

ـ لا أدري أيضاً . . فإن إدارة الملجإ حريصة على أن تكتم أسرارها .

وفي هذه اللحظة قرع الباب فهتفت لوسي :

ـ ها هو ذا خطيبي لوسيان قد رجع . لقد ذهب في هذا الصباح

ليقابل رجلاً من رجال الأعمال وقد وعده بأن يجد له عملاً مناسباً . . فإن فعل استطعنا أن نتزوج بعد عام .

وقصّ لوسيان على خطيبته ما كان بينه وبين جاك جارود . . أي السيد بول هرمان . . فهتفت الفتاة :

ـ أتقول حقاً ألف فرنك مرتباً شهرياً؟ هذه ثروة!

فابتسم لوسيان وقال :

ـ أو على الأقل بداية الثروة . . فإني أنوي أن أجدّد مصنع أبي في ألفورتفيل .

سرت الرجفة في أوصال جان حين سمعت هذه الكلمات وقالت بصوت المأخوذة :

ـ أكان لأبيك مصنع في ألفورتفيل؟

وإذ أحنى رأسه إيجاباً قالت :

ـ وما اسمه؟

ـ جول لابرو . . وقد مات قتيلاً في أثناء حريق شب في المصنع . . وكان ذلك منذ واحد وعشرين عاماً . .

أحسّت جان فجأة أنها توشك بأن تتهاوى على الأرض متخاذلة القوى . . إنها هاربة من السجن . . وفجأة تجد نفسها إزاء ابن الرجل الذي اتُّهمت ظلماً بقتله .

ولـمّا رأى لوسيان ما تبدي جان من اهتمام بأمر أبيه قال :

ـ لا ريب أنك سمعت عن هذا الحادث يا سيدتي إذ لم يكن للصحف من حديث سواه في ذلك العهد! وقد اتهمت بوابة المصنع . . ولكني أعتقد أنها بريئة وأن القاتل هو ذلك الرجل الذي قيل إن النار التهمته فذهب شهيد مروءته!

وروى لها ما سمع من عمته وكيف أنه يشاطرها اعتقادها في أن جاك جارود هو القاتل وأن قصة موته ليست إلاّ خدعة .

وكان لهذا الحديث في نفس جان فورتييه أثر شديد . . هز أعماقها هزات عنيفة . . وهمّت بأن تصيح به :

ـ سيدي ! هأنذا تلك المتهمة البريئة !

ولكنها أمسكت . . وقد شاع في قلبها الابتهاج إذ عرفت أن ابن القتيل لا يشاطر القضاء حكمه القاسي ضدها .

وقالت تسأله :

ـ ولكن ما الذي تنوي أن تصنع بالقاتل حين تكشف أمره .

ـ أسعى إلى الإفراج عن تلك المسكينة جان فورتييه . . وقد عهدت إلى صديق لي من كبار المحامين بأن يتحرى عنها وهي لا تزال على قيد الحياة وسأستصدر أمراً بمقابلتها وأتحدّث إليها . . فإن أيقنت من براءتها بذلت جهدي في إماطة اللثام عن الحقيقة .

وللمرة الثانية همّت أن تصيح بأنها هي المتهمة البريئة !

ولكنها أمسكت وأرغمت نفسها على الكتمان .

وبعد برهة قالت :

ـ لقد قرأت أنه كان لهذه المسكينة ولدان فما الذي حل بهما يا ترى؟

ـ لا أدري .

وشحب لونها ! رباه . . أهكذا قُضي عليها كلما سألت عن ولديها ألاّ تعلم إلاّ جواباً واحداً : لا أدري . . لا أعلم !؟

وتحوّل لوسيان إلى خطيبته وقال :

ـ إن هذا العمل الجديد سيحرمني من لقائك يا عزيزتي إلاّ في

يوم الأحد .

ـ ولماذا؟

ـ لأن السيد بول هرمان يصر عليّ أن يخصني بجناح في قصره حتى يسهل عليه الاتصال بي حين يشاء .

ـ لا بأس . . ما دام عملك يقضي بذلك فلن أتذمر .

ـ وسأخطر صاحب المنزل برغبتي في إخلاء غرفتي منذ الغد .

فانبرت جان فورتييه تقول :

ـ وكم إيجارها يا سيدي؟

ـ مائة وخمسون فرنكاً في الشهر؟

ـ إذاً سأحل مكانك فيها .

ـ فهتفت لوسي :

ـ أكون سعيدة بذلك إذ أجد في قربك ما يسري عني ما أحسه من ابتعاد لوسيان .

وفي اليوم التالي شغلت جان فورتييه الغرفة المجاورة لغرفة لوسي دون أن يخطر لها ببال أن هذه الفتاة هي ابنتها التي تبحث عنها في باريس حجراً حجراً .

ـ ٢٠ ـ

في ذلك اليوم أقام لوسيان لابرو في منزل جاك جارود يدرس الرسومات ويضع التصميمات . . وكانت ماري لا تنفك تدخل عليه مكتبه من حين إلى آخر متوسّلة إلى ذلك بجميع الحجج والمعاذير .

ولم يكن هناك خفاء في أن صحة ماري تحسّنت تحسّناً محسوساً في خلال تلك الأيام القليلة . . ولم يكن جاك من الغباوة بحيث يفوته إدراك السبب في هذا التطور الملموس .

لقد أيقن أن ابنته أحبت لوسيان . . وأن الأقدار تلعب لعبتها الجريئة الرهيبة فتجمع بين قلبي ابنة القاتل وابن القتيل !

وفطن لوسيان بدوره إلى الأمر !

وبعد شهر أيقن أن ماري تحبه فساءه الأمر وحزن حزناً شديداً . . كان يحب لوسي حبّاً لا يملك معه أن ينقض عهدها . . وفي الوقت ذاته كان يشعر نحو ماري بعاطفة من الاعتراف بالجميل لا يملك معها أن يسحق قلبها .

على أنّه كان لا يفتأ يمني النفس بقرب الفراغ من تشييد المصنع . . فإذا تم ذلك أقام في ضواحي پاريس قريباً من مكان عمله وندرت فرص اللقاء بينه وبين ماري .

ولكن خاب ظنه !

ما كاد لوسيان ينتقل إلى المصنع حتى راحت ماري تتردد على المصنع مرات غير قليلة في الأسبوع منتحلة لذلك مختلف الأسباب . . على حين كان لوسيان يتحاشى لقاءها قدر الطاقة ويندر أن يذهب إلى منزل أبيها .

وفي يوم جاءته رسالة من صديقه جورج دارييه المحامي يدعوه فيها إلى تناول الغداء معه .

فلمّا التقيا قال المحامي :

ـ لقد دعوتك لأنبئك بما كان من أمر جان فورتييه المتهمة بقتل أبيك وإحراق مصنعه !

ـ ماذا جرى لها . . هل ماتت؟

ـ كلاّ . . ولكنها فرت هاربة من السجن .

ـ فرت هاربة !؟

وروى له جورج ما كان من أمر جنونها عقب صدور الحكم عليها . . وكيف شفيت وارتدّت إليها ذاكرتها حين رأت النيران تلتهم المستشفى . . وكيف أنها استطاعت أن تهرب بعد أن أمضت نحو عشرين سنة في سجنها .

فقال لوسيان :

ـ ألم يقبضوا عليها بعد؟

ـ كلاّ . . ولكن الأمر لن يطول فقد أذيعت نشرة بأوصافها على جميع رجال الشرطة .

ـ مسكينة هذه المرأة . . منذ أيام سمعت حديثاً عنها وقيل لي إنها كانت من أنبل النساء!

ـ وممن سمعت هذا الحديث؟

ـ من بائعة الخبز التي تتردد على لوسي . . إنها امرأة تدعى ليزا بيرين . . وقد ذكرت لي أن لجان فورتييه ابناً وبنتاً .

بعد أن فرغ لوسيان من تناول الطعام مضى إلى مقابلة خطيبته لوسي . . وإذ دخل عليها ألفى بائعة الخبز برفقتها فلمّا تناهضت للانصراف استبقاها لوسيان إذ كان قد بدأ يحس نحوها ميلاً وعطفاً . . وقال :

ـ بل ابقي معنا . . وإني أرجو إذا ما تزوّجنا أن أفرد لك غرفة في دارنا .

فقالت لوسي :

ـ وأنا أتمنى هذا من كل قلبي . . وعساي أجد فيها عوضاً عن تلك الأم التي فقدتها وأنا لا أزال رضيعة أحمل على الأكتاف .

وقال لوسيان :

ـ أتذكرين هذه المتهمة البريئة جان فورتييه التي تحدثنا عنها منذ أيام؟

وروى لها ما قصّه عليه المحامي جورج دارييه عن جنونها وشفائها وفرارها من السجن . . وقال مستطرداً :

ـ ولكن لا مفرّ من أن تظفر بها الشرطة مرة أخرى . . فإنها تترصدها في كل مكان . . ولا سيما أنها تتوقع أن تمضي للبحث عن ولديها ولهذا أرصدت بعض رجالها في قريتها لمراقبتها عند قدومها .

وامتقع وجه جان حين سمعت هذه الكلمات وأشاحت بوجهها إخفاء لاضطرابها .

في صباح ذلك اليوم نفسه كانت ماري هرمان جالسة في فراشها شاردة الذهن بادية الاكتئاب .

كانت تقول لنفسها :

ـ إنني حسناء ثريّة . . وأبي من كبار الأغنياء . . ومع ذلك فلوسيان لا يحفل بي ولا يكاد يبالي بغرامي ! فما السر في هذا؟

وجعل اليأس والكبرياء يتنازعان قلبها .

وقالت في نفسها :

ـ ترى . . أيصده عني ما بيننا من فروق اجتماعية شاسعة؟ لعله لا يجسر على مكاشفتي بهواه لعلمه بفقره وثرائي !؟

لا . . لا . . لا ريب أنه يحبني . . ولا يصرفه عن مبادلتي الهوى إلاّ شعوره بأنه دوني مكانة ومركزاً !

ثم لا تلبث أن تراودها الشكوك فتقول :

ـ كلاّ . . إنه لا يحبني . . ويلاه . . إنه إن لم يكن مغرماً بي فقد قضى عليّ بالموت .

وفيما هي في هذه الخواطر جاءها أبوها إلى مخدعها يقول :

ـ ما بالك لزمت غرفتك اليوم . . هل أنت متوعكة يا ابنتي؟

فابتسمت وقالت :

ـ كلاّ يا أبتاه . . ولكني أفكر .

ـ وفيم تفكرين؟

فسكتت هنيهة ثم قالت :

ـ أبت . . دعني أطرح عليك سؤالاً .

ـ سلي ما بدا لك يا ابنتي !

ـ لقد أوفيت اليوم على التاسعة عشرة . . فهلاّ خطر لك أن تزوجني !؟

فطبع على جبينها قبلة أبوية رحيمة وقال :

ـ أتكرهين أن تظلي بقربي يا ابنتي !؟ ألا تعلمين أن وجودك إلى جانبي هو الذي يبعث في نفسي الشجاعة والجلد على العمل؟ !

ـ وهل من المستحيل أن تجمع بين الزواج وبين بقائي بقربك؟ لو أن أحداً سمعك تقول هذا لوقع في روعه أنك تكره أن تراني متزوجة !

فابتسم وقال :

ـ لا أكتمك يا ابنتي أن هذا الخاطر طاف بذهني مراراً . . وفي كل مرة كنت أحس أنني أشقى الناس .

ـ وأنا يا أبتاه . . ألا ترى أنني أنا أيضاً شقية منكودة الحظ؟ ! أم لعلك تحسب أن المال هو أساس السعادة !؟ إني أريد أن أسعد بالحب يا أبتاه .

ـ وأي نبيل يمكن أن يراك ولا يهيم بك غراماً !؟

فقالت بازدراء :

ـ في الحب يا أبتاه ليس من الضروري أن يكون المحب نبيلاً . . لو أني أحببت عاملاً صغيراً لكنت أيضاً سعيدة .

وخفق قلب الأب إذ أدرك ما ترمي إليه ابنته بهذا الحديث .

لم يعد خافياً عليه أنها إنما تعني لوسيان لابرو !

وساد السكون طويلاً .

ثم قال الأب :

ـ إني ذاهب اليوم إلى مكتب المحامي جورج داربيه فقد انقضى زمن لم أره !

أشرق وجه الفتاة وقالت :

ـ وسأصحبك يا أبتاه .

ولا عجب فقد كانت تعلم أن الحديث بين الرجلين لا بد أن يدور حول لوسيان . . ولشدّ ما كان يسرها أن تسمع الناس يتحدثون عنه !

بعد نصف ساعة كان جاك جارود وابنته في زيارة جورج داربيه المحامي . . وكما توقعت ماري دار الحديث حول لوسيان واشترك فيه المصور إتيين كاستل الذي كان حاضراً .

قالت ماري :

ـ أليس للوسيان أسرة؟

ـ كلاً . . فقد حدثت جريمة ذهب أبوه ضحيتها .

فقالت الفتاة :

ـ جريمة ! إنه لم يحدثني بشيء من ذلك . ارووا لي القصة رجاءً .

وأنبأوها بإيجاز بما كان من مصرع والد لوسيان وكيف أنه لم يمت موتاً طبيعياً في أثناء الحريق وإنما قتل قتلاً . . وكيف اتُّهمت جان

بقتله . . مع أن لوسيان ابنه يرتاب في إجرامها .

وقالت ماري :

ـ ولكن كيف يرتاب في إجرام هذه المرأة جان فورتييه ما دام القضاء قد أدانها . .؟

ـ إنه يعتقد أن القضاء قد أخطأ . . وكان صمّم على مقابلتها في سجنها للاستفسار منها عن الحقيقة . . ولكن الأمر بات مستحيلاً .

فقالت ماري مستفسرة :

ـ ولم بات مستحيلاً؟ أماتت هذه المرأة؟

ـ كلاّ . . ولكنها فرت هاربة !

امتقع وجه جاك جارود وقال بصوت المضطرب :

ـ أهربت . .؟

ـ نعم . . ولكن لا بد من القبض عليها عاجلاً فإن رجال الشرطة يترصدونها في كل مكان .

فقالت ماري :

ـ ولكن ما تجدي لوسيان معرفة القاتل والاقتصاص منه مع أن ذلك مستحيل لمضي المدة؟

ـ حسبه أن يشهّر به ويفضحه بين أصدقائه . . لا شك أنه أصبح الآن من الأغنياء بما أصاب من وراء الاختراع المسروق .

فقالت ماري :

ـ الحق إنه انتقام رهيب ولا سيما إذا كان لهذا الجاني الأثيم أسرة يحبها . . ولكنه انتقام عادل . وإني لأتمنى أن يظفر لوسيان بقاتل أبيه !

وكان جاك يحس من هذه الكلمات مثلما يحس المقتول وسكين

خصمه تجري على عنقه!

لا أفجع على قلب الأب الذي يحب ابنته أن يسمع من بين شفتيها مثل هذا الحكم القاسي يصدر ضده.

وبعد صمت قصير قال جورج:

ـ إن لوسيان يحاول أن يقتصد الآن ما يستطيع من مرتبه حتى يجدّد مصنع أبيه الذي احترق في ألفورتفيل.. وتلك هي الأمنية التي يجيش بها صدره.

فقالت ماري:

ـ إنها أمنية صعبة المنال.. ولا بد له أن ينتظر طويلاً.. إلاّ إذا أراد أبي أن لا يطول انتظاره.

فتحوّل إليها أبوها يقول:

ـ كيف يكون الأمر منوطاً بإرادتي؟

ـ فقالت الفتاة:

ـ لقد أنبأتني منذ أيام أنك تنوي أن تنشىء مصنعاً جديداً.. فهلاّ يستطيع لوسيان إدارته؟

ـ طبعاً.. وسوف أعهد إليه بالأمر.

فقالت ماري ببساطة:

ـ إذاً اجعله شريكاً لك..!

أذهلت هذه الكلمات جورج والمصور إتيين.. وأراد أبوها أن يعترض ولكنها بادرته مقاطعة بقولها:

ـ ولم الاعتراض يا أبي؟! إنها شركة على قدم المساواة.. أنت تقدّم المال.. ولوسيان يقدم عمله وإدارته.. وبعد فإنك بحاجة إلى شيء من الراحة.. ولوسيان فيما سمعت منك جدير بالثقة.

ـ إنه جدير بكل ثقة يا ابنتي . . ولكن المشروع خطير لا يقدم عليه المرء إلاّ بعد التروّي وإنعام الفكر . . على أني أوافق مبدئياً على ما أشرت به .

وحين نهض الأب وابنته مزمعين على الانصراف قالت الفتاة تخاطب المصوّر :

ـ إني سعيدة بلقائك يا سيدي ويسرني أن أزيّن قصر أبي ببعض لوحاتك الخالدة . . فهل ترسل إليّ بعضها مع لوحات أخرى لمصورين آخرين على أن تختارها بنفسك؟

ـ بكل ارتياح يا آنستي . . وإني شاكر لك ما أوليتني من ثقة وشرف !

حين خلا المحامي والمصور أحدهما إلى الآخر قال جورج :

ـ ما الذي فطنت إليه في أثناء هذه الزيارة . .؟

ـ فطنت إلى أن ماري هرمان مفتونة بلوسيان .

ـ أصبت . . ولا شك عندي أنها ستتزوجه .

فقال المصور :

ـ إني لا أشاطرك رأيك هذا . . ألم تفطن إلى أن أباها كان بَرِماً بهذا الحديث !؟

ـ ولكنه يحبها ويكره أن يرفض لها طلباً .

ـ يجوز . . ولكني أعتقد أنه يمقت فكرة زواجها من لوسيان مقتاً قد يطغى حتى على حبه لابنته . . ومع ذلك فسوف نرى .

في خلال ذلك كانت المركبة تشق الطرقات حاملة جاك جارود وابنته وكل منهما غارق في خواطره لا يلقي إلى صاحبه كلمة .

كانت ماري تفكر في ذلك الاقتراح الجريء الذي ألقته إلى

أبيها . . وكيف سألته في غير تردد أن يتخذ لوسيان شريكاً دون أن تبالي بما قد يثيره هذا الاقتراح في ذهن المحامي والمصور من ظنون .

وكان جاك يفكر فيما سمع عن فرار جان فورتييه من سجنها . . وكيف أنها جاءت پاريس تبحث عن ولديها .

وجعل يقول لنفسه :

ـ ليت شعري ما يكون من شأني إذا كشفت جان شخصيتي قبل أن يقبض عليها؟ ولكن لا . . ينبغي أن تقبض عليها الشرطة . . قبل أن تفضحني وتقتل ابنتي!

وذكر في هذه اللحظة الرسالة التي جاءته من أوڤيد سوليفر ينذره فيها بقدومه . . وقال في نفسه :

ـ ربّاه! ما هذه النكبات التي توشك أن تتوالى . . أيكون في پاريس شخصان يعرفان سرّي!؟ ولكني لا أخشى أوڤيد . . إن في وسعي أن ألجم لسانه بالمال . . أمّا جان فورتييه . .!

وتصبّب جبينه عرقاً . .

القسم الثاني

التكفير

- ١ -

في ذات صباح وصل أوفيد سوليفر پاريس قادماً من أميركا . . فذهب من فوره إلى دار «ابن خاله» جاك جارود فقيل له إنه ذهب إلى مصنعه فمضى إليه من فوره .

قرع أوفيد باب المكتب ودخل . . وما إن وقعت عليه أنظار جاك حتى بهت وشحب لونه . . وقال في اضطراب :

ـ أهذا أنت؟

ـ نعم . . ولكن لِمَ تستقبلني بهذا البرود !؟ أساءك قدومي يا ابن الخال العزيز؟

وتمالك جاك روعه وبسط يده يصافح أوفيد ودعاه إلى الجلوس . ثم قال يسأله :

ـ ولكن لِمَ جئت تزورني؟

ـ لأسألكَ أن تجد لي عملاً في مصنعك ! . .

فصاح بغضب :

ـ تبّاً لك . . ! أهكذا تضيع ذلك المصنع العظيم الذي تنازلت لك عنه في نيويورك؟

ـ إنه القمار . . ! هو الذي أفسد حياتي . . وجعل إدارتي سيئة . . ! فقد أتت المائدة الخضراء على كل أموالي فلم يعد باقياً لديَّ إلاّ بضعة دولارات لا تغني من الأمر شيئاً . . ولهذا أرجوك أن تعيّنني

مديراً لمصنعك .

ـ محال . .

ـ وما السبب . .؟

ـ إن مدير مصنعي الحالي هو ابن الرجل الذي قتلته . . ابن جول لابرو . . ! وإذا اجتمعتما فقد يجري لسانك بكلمة تكون فيها فضيحتي والقضاء عليّ .

فقال أوفيد :

ـ ولكنني سأكون حذراً .

ـ على أية حال لا أستطيع أن أجد لك عملاً في مصنعي . . لقد منحتك مصنعاً هائلاً وخمسين ألف دولار . . فإذا كنت ضيّعت كل هذه بحماقتك وسوء تصرفك فلا يمكن أن تحسبني مسؤولاً ومطالباً بأن أعوّض عليك ما خسرت .

فقال أوفيد بصوت هادئ :

ـ إذاً فقد عولت على أن تتخلى عني !؟

ـ بلا ريب ! أنت الذي جنيت على نفسك !

ـ وأنت الذي ستجني على نفسك !

فقال جاك بوحشية :

ـ أتحسبني أبالي بتهديدك !؟ إني أعلم ما يجول في خاطرك . . إنك تقول لنفسك : إذا أبى أن يعطيني من المال ما أشاء توعدته بالفضيحة فيضطر أن يحشو فمي بالمال حتى لا أتكلم !

ـ كلاّ يا صاح ! لو أنك فضحتني لما أصبت مني فرنكاً واحداً !

ـ وكيف ذلك؟

ـ إذا عرفت أنك مصر على هتك سرّي أطلقت النار على نفسي

واسترحت من شرورك فتؤول ثروتي إلى ابنتي ولا تنال منها شيئاً! فمن الخير لك أن تكتم سري . . لأنك قد تنال مني في حياتي ما لا تناله بعد مماتي!

وساد الصمت برهة . .

وعرف أوفيد أن جاك صادق في قوله . . وأن اليأس قد يدفعه إلى الانتحار . . ولن يستفيد شيئاً من موته .

وقال :

ـ ولكن كيف يطاوعك قلبك على أن تتخلى عني !؟

ـ ولكني لن أتخلى عنك . . سأمدك بالمال على أن لا تحاول مقابلتي . سأنقدك كل شهر ألف فرنك .

ـ ألف فرنك !؟ هذا قليل !

ـ إذا أقلعت عن المقامرة كان فوق الكفاية . . وبعد . . فليس في وسعي أن أعطيك أكثر من هذا! وسأعطيك الآن مرتب الشهر الأول مع خمسة آلاف فرنك تؤثث بها دارك .

وفتح خزانته ودفع إليه ستة آلاف فرنك .

وفيما هما في الحديث قرع الباب ودخل الخادم ينبئ سيده بأن السيد لوسيان لابرو يطلب مقابلته .

ونهض أوفيد لينصرف ولكنه قبل أن يغادر الغرفة ألقى على لوسيان نظرة فاحصة وقال في نفسه :

ـ إذاً فقد تصادق القاتل وابن القتيل !؟ ألا ما أعجب تصاريف القدر!

حين خلا جاك جارود بنفسه راح يقول :

ـ يا لحظّي! هل تخلت عني الأقدار؟ وهل بدأت العاصفة تنذر

بالهبوب؟

جان فورتييه هربت من السجن . . وأوفيد سوليفر يتوعدني . . ولوسيان لابرو يبحث عني ليفضحني!

ربّاه! ما أشد حرج الموقف! لا ينقذني من هذا المأزق إلاّ أن أقتل هؤلاء الثلاثة . . ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟!

راح جاك يتروى في الأمر ويحاول أن يقع على وسيلة يقضي بها على خصومه الثلاثة .

وإذ أدركه اليأس انفرجت أساريره فجأة وقال في نفسه وهو يهز كتفيه بغير اكتراث :

ـ ولم الخوف؟ وأي شر أخشى وقد ألجمت لسان أوفيد بأموالي . . ولوسيان مقيّد بما أغمره به من فضل ومساعدات . . أمّا جان فلا ريب أن السجن مصيرها! . كلا! . ليس ثمة ما أخشى من الثلاثة .

في غضون ذلك كانت حالة ماري الصحية تسوء يوماً بعد يوم . . كان الحب في أول الأمر بلسماً لعلّتها المزمنة . . أما الآن فقد انقلب شراً يضاعف منها!

ولم يكن هناك خفاء في أن الحب الذي أفادها في عهده الأول قد بدأ الآن يقتلها ويقضي عليها لما رأت من انصراف لوسيان وإعراضه عنها .

وكان أبوها أشد إدراكاً لعلة ابنته من سائر الأطباء ولكن ما حيلته؟ وأي دواء يمكنه أن يقدم إليها فيشفيها!؟

وفي ذات يوم لم تجد ماري بدّاً من مكاشفته بما في نفسها .

دخل عليها يوماً فرآها شاحبة فأخذ بيدها وقال برفق :

ـ ما بك يا ابنتي؟ أمريضة أنت؟

وعرتها نوبة من السعال فقال :

ـ أتتألمين يا ماري؟

فأجابت :

ـ كل الألم يا أبتاه !

ومن عين «السفّاك الدموي» انحدرت دمعة رحمةً وإشفاقاً وقال :

ـ وأين تحسين الألم؟

ـ هنا . . فوق موضع القلب !

تألّم جاك وعصر الحزن فؤاده . . فوق موضع القلب ! . ترى هل أقبلت الساعة الرهيبة؟

وقال :

ـ ولكني ما سمعت منك هذا إلاّ اليوم !

ـ لأن علتي لم تشتد إلاّ منذ عهد قريب منذ غشي الحب فؤادي .

نظر إليها برهة ثم قال :

ـ أهو لوسيان لابرو الذي تحبينه؟

غضت من بصرها وأحنت رأسها إيجاباً . . وقالت :

ـ لقد سرى حبه في دمائي يا أبتاه ! ومحال أن أنساه . .

امتقع وجه الأب وقال بغضب مكتوم :

ـ ولكن هذا الحب جنون !

فانفجرت ماري تبكي وقالت ونشيج البكاء يقطع كلماتها :

ـ ليس في العالم قوة يمكن أن تنزع هذا الغرام من قلبي يا أبتاه .

ثم ما لبثت أن أردفت تقول :

ـ ولكن لم تكره أن أتزوج لوسيان !؟ إن كان فقيراً فقد كنا نحن فقراء في مستهل حياتنا ! وما حاجته إلى المال ولدينا من المال ما يكفي؟ ! وهو بعد ليس بالفتى الخامل . . إنَّ له مستقبلاً باهراً !

ومع ذلك فالحب يا أبتاه ليس سلعة تُعرض ! لو أنه كان ذميم الصفات لما ملكت إلاّ أن أحبه !

اتخذه لك شريكاً . . وزوّجني إياه . . ولنعش نحن الثلاثة معاً .

بذلك نصبح كلّنا سعداء !

لبث جاك جارود صامتاً لا يجيب وقد استغرقته الخواطر .

وقالت الفتاة :

ـ إنني أعرف أنك تحبني يا أبتاه . . فإذا كنت لا تريد أن أموت فزوّجني لوسيان .

فهتف الأب بجزع :

ـ تموتين !

ـ نعم . . ألا ترى أن العلة تحزّ في بدني !؟ مذ أحببته ازدادت العلة وطأة علي ! ولا يشفيني إلاّ أن أتخذه زوجاً .

فقال الأب بصوت المذهول :

ـ سليني ما شئت يا ابنتي أحقّق رجاءك . . ولكن لا تطلبي مني أن أزوجك لوسيان . إن من المستحيل أن يصبح لك زوجاً .

فقالت بإصرار :

ـ ولكني لن أتخذ منه بديلاً !

وفجأة شحب لونها وارتجفت أوصالها . . وغمغمت :

ـ قلبي . . أحس أني أختنق !

وتهاوى رأسها على مسند المقعد وأغمي عليها .

وفي جنون وثب أبوها واقفاً وقد ظن أنها ماتت . .

أخذ بيدها بصوت يقطع نياط القلوب راح يقول :

ـ ماري . . حبيبتي ماري . . تكلّمي . . إني راضٍ بكل ما تريدين ! سأزوجك من لوسيان ! أقسم على ذلك . . ولكن تكَلّمي ! حبيبتي !

ولكنها لم تتكلّم ولم تجب !

ووثب يدق الجرس بعنف وهو يصيح :

ـ ربّاه ! لقد قتلتها ! ويحي !

وأسرعت إحدى الخادمات تلبي النداء . . وأدركت أن سيدتها مغمى عليها فبادرت تنضح وجهها بالعطر .

وتحركت ماري . . واختلج جفناها .

وانفرجت أسارير الأب وغمغم :

ـ إذاً فقد كان مغمىً عليها !

وبرفق حملها إلى فراشها وأرقدها على سريرها .

وحانت منه لفتة . . وبين شفتيها رأى نقطة من الدم .

وهنا أمام هذا المشهد . . مشهد ابنته الوحيدة تبصق دماً . . لم يملك ذلك الوحش إلاّ أن بكى ! . .

انهمرت العبرات من عينيه . . وبدا كالأطفال ينشج ويهتز بدنه بانفعال .

وفتحت ماري عينيها ببطء . . جالت ببصرها في الغرفة ثم غمغمت بصوت لا يكاد يسمع :

ـ لوسيان ! . . لوسيان ! . .

هتف أبوها بصوت مختنق :

ـ اطمئني يا ابنتي . . ستعيشين لكي تحبيه . . وتسعدي إلى جانبه !

ودبت الحياة في أوصال الفتاة وقالت :

ـ أترضى أن أتزوجه . .؟

ـ نعم يا ابنتي . . وأقسم لك على ذلك . . لكن عيشي لأجلي . ولأجله !

فابتمست وقالت بصوت يخالطه الإعياء :

ـ سأعيش وسأكون سعيدة ! . .

كان جاك يحب ابنته . . وكان موتها لا شك خليقاً أن يقضي عليه . ولم تكن لديه ريبة في أن هذا الزواج ينبغي أن يتم بينها وبين لوسيان .

وقال في نفسه :

ـ وما يدريني أن هذا الزواج سيكون درعاً تقيني من انتقام لوسيان إذا انكشف له أمري . . إذ ليس معقولاً أن يشهّر بوالد زوجته . . !

وصح عزمه على أن يفاتح لوسيان في أمر الزواج .

دعا إليه لوسيان وقال له :

ـ إني أريد يا بنيّ أن أحدثك في أمر خطير !

وكان بادي الاضطراب لا يدري كيف يستهل الحديث .

وبعد سكتة قصيرة استطرد :

ـ لقد أخبرني جورج داريبه أنك تنوي أن تجدّد مصنع أبيك في ألفورتفيل .

ـ هذا صحيح يا سيدي . وهذه الأمنية تجيش في صدري منذ أعوام .

ـ اعلم إذاً أن أمنيتك وشيكة أن تتحقق . وسأكون لك عوناً على تحقيقها . . !

ـ حقاً؟

ـ نعم . . إني أنوي أن أنشئ مصنعاً جديداً . . وقد اخترت لبنائه مدينة ألفورتفيل . . وسأقيمه على الأرض التي قام عليها مصنع أبيك .

فقال لوسيان :

ـ إني آسف يا سيدي . . فأنا لا أنوي أن أبيع هذه الأرض !

ـ وهل سألتك أن تبيعني إياها !؟

فبدت أمارات الدهش على وجه لوسيان وقال :

ـ ماذا تعني يا سيدي؟

ـ أعني أني سأتخذك شريكاً لي . أقدم إليك المال وأنت تتولى الإدارة . . إني في حاجة إلى شريك أمين شريف . . فقد تقدّمت بي الأعوام وأصبحت في حاجة إلى الراحة .

ساد السكون هنيهة . . وكان لوسيان لا يكاد يصدق أذنيه . . كيف هذا . . .؟ أيتخذه بول هرمان شريكاً . .؟ وما الذي يحمله على هذا؟

وقال لوسيان :

ـ سيدي ! أنا لم أعمل بعد ما أستحق عليه هذه المكافأة !

قال جاك جارود بصوت هادئ :

ـ أتعلم يا سيد لابرو كيف انفتحت أمامي أبواب الثراء ! . وكيف شاركت نيومي مورتيمر وقد كنت عاملاً بسيطاً؟

ـ طبعاً . . بجدك ونبوغك !

ـ هذا أمر طبيعي . . ولكن الخطوة الكبرى كانت حين زوّجني مورتيمر ابنته واتخذني له شريكاً . . فَلِمَ لا أجعل من مورتيمر قدوة

لي !؟ أتخذك شريكاً وأقدم إليك نصف ثروتي الباقي بائنة لابنتي عند زواجك بها !

وارتعد لوسيان وقال بصوت المتلعثم :

ـ أتعني أن أتزوج الآنسة ماري؟

ـ هو ذاك ! وأي حائل يقوم دون هذا الزواج؟ إن ابنتي تحبك وقد اختارتك زوجاً لها .

ساد الصمت هنيهة . . وبصوت متحشرج قال لوسيان :

ـ سيدي . . إنّ هذا العطف الذي تبديه نحوي يجعلني عاجزاً عن شكرك . . ولكن يؤسفني أن أراني مضطراً إلى الاعتذار عن قبول هذا الاقتراح .

بدت أمارات الدهش على وجه جاك وقال :

ـ ماذا تقول؟ أترفض أن تتزوج ابنتي؟ وما السبب؟

ـ لأنني يا سيدي رجل ذو كرامة يأبى أن يمرغها في التراب .

فقال جاك جارود على عجل :

ـ ما هذا الذي تقول !؟ يلوح لي أنك أسأت فهم حديثي . . أتحسبني أحاول أن أغريك بالمال !؟ ألم أقل إن ماري هامت بك حبّاً واختارتك زوجاً؟

فقال لوسيان :

ـ فهمت هذا يا سيدي . . ولكني لا زلت مصراً على الرفض .

ـ وما السبب؟

ـ إني أحب فتاة أقسمت أن أتزوجها . . ومحال أن أحنث بعهدي .

ـ وهذه الفتاة التي أحببت . . أتراها فقيرة !؟

ـ إنها لا تملك مالاً .

ـ وهل تحسب أن الحب يدوم مدى الحياة !؟ تزوج ابنتي يبق لك المال حين يفنى الحب .

ـ إن حبي لا يفنى يا سيدي !

ـ وماري . . ألا تعلم أن رفضك هذا يمكن أن يقتلها !؟

ـ إنها لا تلبث أن تنساني يا سيدي .

ـ وهذه الثروة التي أعرضها عليك ! إنك بهذا الرفض تطأ مستقبلك بقدمك !

ـ إني آسف يا سيدي . . إنَّ قلبي ليس بالسلعة المعروضة للبيع !

ثم انحنى أمام جاك وغادر الغرفة .

حين خلا جاك بنفسه صاح كالمجانين :

ـ إنه لا يحب ابنتي ! . . يؤثر عليها فتاة فقيرة !

ولكن هذا لن يكون . إذا أبى أن يتزوجها قتلها !

ومحال أن أسمح لمخلوق بأن يقتل ابنتي ! محال !

ـ ٢ ـ

بعد ظهر ذلك اليوم ذهبت ماري إلى زيارة خياطتها السيدة أوغستين فلمّا وجدت عندها لوسي أقبلت عليها تقول بلهجة عتاب :

ـ أين أنت يا لوسي !؟ لِمَ انقطعت عن زيارتي بعد أن أنجزت فستان الرقص !؟ إن حديثك يروقني !

فشكرتها لوسي على تلطفها . . واستطردت ماري تقول :

ـ وفي نيّتي أن أزورك يوماً ما . . أنت تقيمين في شارع بوربون رقم ٩ أليس كذلك؟

ـ هو ذاك يا سيدتي . . وفي زيارتك شرف لي !

وأمضت ماري أكثر من ساعتين عند الخياطة وأوصت على الكثير من الثياب .

وأخيراً رجعت إلى دارها .

رجعت لكي تترقب ما يحمل إليها أبوها من الأنباء .

وحين رجع في المساء أقبل عليها يقول وهو يعانقها :

ـ أراك الآن خيراً مما كنت في الصباح يا ابنتي !

ـ لقد أفادني النوم كثيراً . . ولكن خبّرني أي نبأ لديك؟ هل تحدثت إلى لوسيان؟

ـ تحدثت إليه يا ابنتي . . ويمكنني أن أقول إن الحياة ليست قاتمة مظلمة كما كنت تتوهمين .

ـ إنك طبعاً لم تنبئه بأنني أحبه !

ـ وهل تفوتني يا ابنتي مراعاة التقاليد؟ لقد قلت له إنه إن خطبك فلن أتردد في القبول .

ـ وما كان جوابه؟

ـ إنه لم يكد يصدّق . . قال إن ما بيننا من تباين الثروة والمركز الاجتماعي يجعل الأمر يبدو شبه مستحيل .

ـ وإلى أي شيء انتهى الحديث بينكما؟

ـ لقد رضي أخيراً ولكنه اشترط شرطاً !

ـ أي شرط؟

ـ إنه رجل نبيل الصفات يكره أن تكون لي يد عنده . . ولهذا سألني أن أمهله حتى يصيب ثروة يرجوها من اختراع يوشك أن يبرزه .

فقالت الفتاة :

ـ إن هذه الصفات النبيلة تحملني على تقديره . . ولكن أتراه يحبني كما أحبه؟

فقال أبوها مجيباً :

ـ ومَن ذا الذي يملك أن لا يحبك !؟

نظرت ماري إلى أبيها وقالت :

ـ أبي ! أتراوغني؟ ليس في قولك هذا ما يمكن أن يعدّ جواباً على سؤالي !

فقال أبوها بشيء من الارتياب :

ـ إنه لم يجبني بصراحة . . ولكنني كنت أقرأ في عينيه من الحب آيات صارخة !

خفق قلب الفتاة وقالت :

ـ ألست واهماً؟

ـ محال ! فالعين مرآة الحب .

وسكتت الفتاة هنيهة ثم عادت تقول :

ـ ولكن هل يطول الانتظار؟

ـ لا أدري . . بضعة شهور في الغالب .

ـ وفي خلال هذه الفترة . . أيكون ما بيني وبين لوسيان مثلما يكون بين خطيبين؟

ـ وهل غاب عنك أنه شديد الحياء؟

ـ ولكن أيرده الحياء عن مكاشفتي بحبه؟

ـ إنه سيتردّد على دارنا كثيراً على أي الأحوال .

وقالت الفتاة وقد نمت نبرات صوتها عن الابتهاج :

ـ أبي . . أرجو أن تبادر بإعلان خطبتنا .

ـ سأفعل يا ابنتي !

وجلسا يتناولان العشاء معاً .

كانت ماري طيلة السهرة مشرقة الوجه باسمة الثغر . . وكان أبوها كلما نظر إليها يقول في نفسه :

ـ لا بدّ أن أحتال على تزويجها بلوسيان . . لو أنه لم يتزوجها لماتت حزناً وغماً !

في صباح اليوم التالي دعا جاك جارود مدير مصنعه لوسيان لابرو إلى مكتبه وكاشفه بأن في مدينة بلغراد صفقة عظيمة ينبغي أن يسافر أحدهما لإبرامها وقال :

ـ ولديّ من الأسباب ما يحول دون سفري فهل تحب أن تنوب عني؟

فقال لوسيان :

ـ بكل ارتياح يا سيدي . . فمتى تريد مني أن أسافر؟

ـ غداً . . وسأمنحك خمسة آلاف فرنك مكافأة إضافية لنفقات هذه الرحلة . . وأرجوك أن تبعث إليّ في كل يوم برسالة تنبئني فيها بما عقدت من صفقات وأبرمت من عقود .

وإذ خلا جاك جارود بنفسه قال :

ـ ستستغرق هذه الرحلة أسبوعين على الأقل . . وفي خلال هذه الفترة أكون قد اهتديت إلى هذه الفتاة التي يحبها لوسيان فأتدبّر الأمر معها . . فإن أبت الابتعاد عنه قتلتها بغير تردد .

والأمر لا يحتمل إمهالاً . . فإمّا حياة ابنتي وإمّا حياة هذه الفتاة . . ! وأي أب يرضى بأن يضحي بابنته !؟

أمّا أوڤيد سوليفر فسيكون أداتي في ارتكاب هذه الجريمة . . وهو

في سبيل المال لا يمكن أن يحجم عن شيء!

وبعد . . فإن إقدامه على قتل الفتاة خليق أن يجعله في قبضة يدي كما أنا الآن في قبضة يده!

وفرك كفّيه ابتهاجاً .

في ذلك المساء بعث جاك جارود إلى أوفيد سوليفر يدعوه إلى مقابلته .

وفي صراحة كاشفه بما في نفسه .

حدّثه عن غرام ابنته بلوسيان لابرو . . وإعراضه عنها لغرامه بفتاة فقيرة . . وكيف عرض عليه نصف ثروته فأبى أن يحنث بعهده للفتاة .

وقال :

ـ وأنا رجل لا أحب في هذه الدنيا غير ابنتي . . ومن أجلها لا أحجم عن أن أضحي بكل شيء . . ولا يمكن أن أظل مكتوف اليدين وأنا أراها تذبل وتذوي أمامي!

ـ وماذا تبغي؟

ـ أريد أن أزوج ابنتي بلوسيان لابرو!

ـ ولكنه منصرف عنها إلى فتاته!

فقال جارود بوحشية :

ـ إذاً ينبغي أن تقتل فتاته!

ـ وهل انتدبتني لأداء هذه المهمة؟

ـ بلا شك . . وستنال الأجر الذي تبغي!

ـ ولكن ما اسم هذه الفتاة؟ وما هو عنوانها؟

ـ هذا ما لا أدريه . . ولكن عليك أن تتدبر الأمر . لقد أقصيت

لوسيان بأن أوفدته إلى بلغراد في مهمة تستنفد منه أسبوعين على الأقل . . وسيسافر غداً أو بعد غد . . ولا بد أن يمضي الليلة أو غداً إلى مقابلة خطيبته وتوديعها قبل سفره . . فإذا ترصّدتَ خطواته أمكنك أن تهتدي إلى عنوان الفتاة .

وذكر له عنوان لابرو .

وقال أوفيد باسماً :

ـ يمكنك إذاً أن تعتمد عليّ في القضاء على هذه الفتاة . . ولكن لا تنس أنني سأسألك أجراً كبيراً !

ـ ولن أساومك !

وانصرف أوفيد سوليفر وهو يمنّي نفسه بالأجر الضخم الذي سيصيبه عاجلاً .

كانت ماري هرمان من أسعد الفتيات .

باتت ليلتها تحلم بقرب زواجها من لوسيان لابرو . . وعلى رغم العلة الوبيلة التي تنخر في صدرها سرى في وجنتيها تورّد بعثه الحب .

ولكنها حين عرفت أن لوسيان مسافر إلى بلغراد . . وأن غيبته ستطول أسبوعين أو ثلاثة . . امتقع لونها وأدركها الشحوب .

ولكنّ أباها استدرك الموقف بقوله :

ـ إني ما أوفدته إلى بلغراد يا ابنتي إلاّ تمهيداً لإشراكه معي . يجب أن يتحمّل مسؤولية تصريف الأمور وحده . .

وسرّي عنها . . ووجدت في هذه الحجّة ما خفّف عنها لوعة الفراق .

وفي الساعة نفسها التي جرى فيها هذا الحديث بين الأب وابنته

كان أوڤيد سوليفر يرصد باب لوسيان لابرو وقد تنكر في زي كهل ليس من السهل اكتشاف حقيقة أمره .

وبعد ساعة غادر لوسيان داره فانطلق أوڤيد في أثره وهو يقول في نفسه :

ـ ترى من تكون هذه الفتاة الي يحبها لوسيان . .؟

ومضى لوسيان إلى الدار التي تشغل لوسي غرفة منها وصعد إليها على حين انزوى أوڤيد على قرب يرقب ما يجري .

استقبلت لوسي خطيبها بابتهاج وقالت تعاتبه :

ـ لقد أبطأت يا لوسيان . . وقد كاد الجوع يقتلني !

فضحك وقال :

ـ إذاً هيا بنا فقد كاد يقتلني أنا أيضاً !

ثم ما لبث أن أردف :

ـ على أنه ينبغي أولاً أن أكاشفك بنبإ هام وإن كنت أعلم أنه يسوؤك .

فقالت وقد سرى القلق إلى نفسها :

ـ أي نبإ يا ترى؟

ـ إني مسافر إلى بلغراد .

وحدّثها بالأمر .

فابتسمت وقالت :

ـ هذا النبأ يسوؤني ويسعدني في آن واحد . . يسوؤني منه فراقك ويسعدني أنك أصبحت أهلاً لثقة السيد هرمان . . ومن أجل هذا سأصبر على هذه الأسابيع الثلاثة لا أتذمر ولا أشكو .

فابتسم وقال :

ـ أمّا أنا فأشكو !

ـ مني؟

ـ بل من عـملي وفي نيـتي أن لا ألبث طويلاً في خدمـة السيـد هرمان .

دهشت لوسي وقالت :

ـ ولكن ما السبب؟

ـ إنه سبب خطير . . وسأنبئك به فيما بعد .

ـ ولم لا يكون الآن؟

ـ لأنني أريد أن أتحدث إليك الآن في شؤون أخرى .

ثم قال على الفور مغيّراً الحديث :

ـ كنت أتمنى أن تلازمك السيدة ليزا بيرين في أثناء غيبتي .

ـ هذا متـعـذر الآن . . فإن صاحبـة المخبـز لا تزال طريحة الفراش وهي مضطرة لهذا أن تسهر على تمريضها . .

فيمـا كـان هذا الحديث يدور بين الخطيبين طرق البـاب ودخلت بوابة المنزل تنبئ لوسي بأن سيدة تنتظرها في مركبتها عند الباب .

وهبطت لوسـي مسرعـة لترى هـذه الزائرة فألفـتهـا الآنسـة مـاري هرمان .

تبادلت الفتاتان التحية وقالت ماري :

ـ إني ذاهبة يا لوسي لأتنزّه في غابة بولونيـا فهل لك أن ترافـقيني فتؤنسي وحدتي . . . !

بدا الارتياح على وجه لوسي وقالت :

ـ ما كان أحب إليّ من هذا . . ولكنّ في زيارتي ضيفاً لا أستطيع أن أدعه وأنصرف .

فقالت ماري باسمة :

ـ وهل هذا الضيف عزيز عندك إلى هذا الحد . .؟

فارتسمت ابتسامة على شفتي لوسي وقالت :

ـ ذاك سرّي . . فإن أردت أن تتبيّنيه فاصعدي معي . . وإني موقنة من أن الأمر سيكون عندك مفاجأة مدهشة .

وأثارت هذه الكلمة فضول ماري هرمان .

نزلت من مركبتها وأخذت ترتقي السلم . . وكانت غرفة لوسي واقعة في الطابق الأخير . . والسلم عال مرتفع . . وأنهكها الصعود ولكنها ثابرت وتحاملت على نفسها إذ لم تكن تعرف أنها مصدورة . . !

وأخيراً بلغت الغرفة .

دفعت لوسي الباب وقالت :

ـ تفضلي يا سيدتي بالدخول .

ووقع بصر ماري على لوسيان . . ورآها كما رأته . . وصاح الاثنان صيحة دهش . . وألقت ماري بيدها فوق قلبها وقد سرى الإعياء إليها فجأة .

وقالت لوسي دون أن تفطن إلى ما عرا صاحبيها من اضطراب :

ـ إنك تعرفينه طبعاً يا سيدتي؟ !

لم تجب ماري على هذا السؤال . . كانت كمن لا يسمع أو يفهم . . وإنما التفتت إلى لوسيان وقالت :

ـ لم أكن أتوقع أن أراك هنا يا سيدي !

جمد لوسيان صامتاً لا يجيب . . ولكن لوسي انبرت تقول عنه :

ـ إنّنا صديقان يا سيدتي . . وقد اعتاد أن يزورني كل يوم أحد .

فقالت لوسي وهي تغالب عواطفها :

ـ أتعرفينه منذ عهد طويل؟

ـ منذ عامين . . فقد كان يقيم في هذا المنزل . . وقد استحالت صداقتنا حباً وهو الآن خطيبي . . وعاجلاً أزف إليه .

وكان لوسيان واقفاً كالمصعوق . . كان يعلم أن كل كلمة تنطق بها لوسي إنما هي طعنة مسددة إلى قلب هذه الفتاة المسلولة . . ولكن ما حيلته في الأمر . . وما الذي يسعه أن يفعل ليتلافى هذا الموقف؟

إنه يحب لوسي لا ماري . . وليس في وسعه أن يخادع الفتاة أو أن يقدّم إليها قلبه كأنه سلعة تباع وتشرى .

وعجبت لوسي حين رأت ما عرا ماري من شحوب واضطراب وأقبلت عليها تقول بحنان :

ـ ما بك يا سيدتي؟ هل أرهقك صعود السلم؟ تفضلي بالجلوس .

غالبت ماري ما بنفسها وقالت :

ـ ليس بي شيء ! إني منصرفة ما دام ليس في وسعك مرافقتي . .

ثم تحوّلت إلى لوسيان وقالت :

ـ لقد سألتني لوسي أن أصعد إلى غرفتها وقالت إنني سألقى فيها مفاجأة تدهشني . . وقد صدقت يا سيدي ! ولكني موقنة من أن الأمر عند أبي سيكون مفاجأة أجل وأعظم !

ثم أولته ظهرها ومشت إلى الباب .

كانت لوسي في عجب مما رأت . . تسائل نفسها عن سر هذا الاضطراب الفجائي الذي انتاب ماري . . وما شمل الموقف بغتة من

برود غير طبيعي . .

وكان لوسيان حزيناً مكتئباً يعلم أن هذا الموقف قد دفع بالفتاة المسكينة إلى القبر!

وقالت لوسي تسأله :

ـ ما الذي أصاب ماري حتى طرأ عليها فجأة هذا التغيّر العجيب؟

فقال مراوغاً :

ـ ربما أرهقها صعود السلم!

فغمغمت لوسي :

ـ مسكينة! إن السل يكاد يقتلها!

فغمغم لوسيان :

ـ مسكينة!

وفي سره قال :

ـ إن الحب يوشك أن يقتلها!

ـ ٣ ـ

كان أوڤيد سوليفر وهو في مكمنه يرى من يدخل بيت لوسي أو يخرج منه . . وقد رأى ماري وهي تصعد الدرج . . ثم رآها وهي تعود مسرعة وقد عراها اضطراب شديد .

وقد عجب للأمر وراح يسائل نفسه عن سر هذه الزيارة . . وأية علاقة بين ماري هرمان ومنافستها خطيبة لوسيان لابرو؟

وتقدم من البواب وقال يسأله :

ـ من تكون هذه السيدة التي دعت صاحبة المركبة إلى الصعود؟

ـ إنها خياطة تدعى لوسي . . وهي فتاة شريفة . . فإذا كنت تطمع في هواها فخير لك أن تقطع الرجاء . . إن لها خطيباً يدعى السيد لوسيان لابرو .

وألقى عليه أوفيد بضعة أسئلة ثم انصرف وهو يقول في نفسه :

ـ لا بد أن أحمل إلى جاك نبأ زيارة ابنته لخطيبة لوسيان .

حين استقلّت ماري مركبتها انطلقت مسرعة إلى دارها . . ودخلت على أبيها تسير في إعياء .

رفع رأسه إليها وإذ رآها شاحبة الوجه هب واقفاً وهو يقول :

ـ ابنتي ! . . ابنتي ! . . ما بك أيتها العزيزة !؟

تهالكت على أحد المقاعد وقالت بصوت ضعيف :

ـ لقد خدعتني ! . . لقد كذبت عليّ ! . . إن لوسيان لا يحبني . . إنه يحب فتاة أخرى ! وسيتزوج هذه الفتاة ! .

وصاح الأب المسكين :

ـ وكيف عرفت هذا؟ مَن كشف لك هذا السر !؟ إني ما كتمت عنك هذا الأمر إلاّ ليقيني من أنني سأقتلع هذا الحب من قلب لوسيان ! ولكن من أفضى إليك بهذا السر؟

ـ من أفضى به إلي !؟ الفتاة نفسها ! . . إنها سعيدة مزهوة بحبها !

ـ إذاً فقد رأيتها؟ مَن تكون هذه الفتاة !؟

ـ خياطة تدعى لوسي ! . . لقد رأيتها واقفة إلى جانب خطيبها ! . . وكدت أموت غمّاً ! . . ولا أدري كيف لم أمت ! .

فقال جاك جارود :

ـ إنه لا يحب هذه الفتاة يا ابنتي ! . ولن يتزوجها ! .

ـ ولكن لم كذبت عليّ يا أبتاه !؟ لم كتمت عني الحقيقة؟

وصاح الأب وقلبه يتمزّق :

ـ ماري . . ابنتي العزيزة . . اعلمي أني أحبك . . وأني ما كذبت عليك إلاّ لأني لم أكن أطيق أن أرى دموعك وعذابك ! .

ـ إذاً فقد كنت تعرف أنه يحب فتاة أخرى !؟

ـ إنه هو نفسه الذي كاشفني بذلك . . وقد رجوته أن يتروى في الأمر وأن يقارن بين الزواج بامرأة فقيرة وامرأة تملك الملايين . . وقد كذبت عليك لأنني موقن من الفوز . . سأقهر منافستك وأرغمها على الخروج من حياة لوسيان بأية وسيلة . . فما كنت لأدعك حزينة يائسة وأنا واقف مكتوف اليدين ! عاجلاً سترينه يا ابنتي جاثياً عند قدميك يتوسل إليك أن تحبيه وأن تسعديه ! وستكونين إذ ذاك أسعد النساء .

فهزت كتفيها وغمغمت بلهجة يائسة :

ـ سأكون أسعد النساء ! . كانت السعادة عندي حلماً وتبدّد ! .

فصاح جاك جارود وهو يتفجع :

ـ أقسم لك بذكرى أمك أنك ستتزوجين لوسيان ! .

فقالت لوسي :

ـ أبي . . افعل هذا تنقذني من الموت ! . . إنه يحبها . . ويؤثرها عليّ . . فتاة لقيطة نشأت في الملجإ . . لا أب لها ولا أم . . تشقيني هذا الشقاء كله !؟

فقال أبوها :

ـ اطمئني . . إنه لا يحبها . . ربما كانت صديقته . . وسيتخلى عنها إذا ما تزوجك ! .

وامتقع وجه ماري وهتفت بصوت مختنق :

ـ لشد ما أبغض هذه الفتاة . . ! لقد قضت على هنائي !؟ . .

فقال أبوها متوسّلاً :

ـ لقد أقسمت لك بذكرى أمك أنك ستصبحين زوجة لوسيان . . ومحال أن أحنث بهذا القسم . . !

ـ وهذه الفتاة؟

ـ سيهجرها .

ـ وإن لم يهجرها؟

ـ أبعدها عنه بوسيلة ما . . فهيّا اذهبي إلى غرفتك يا ابنتي ودعيني أتدبر الأمر .

ما كادت ماري تغادر مكتب أبيها حتى جاء أوفيد سوليفر يزوره .

روى له أوفيد ما كان من زيارة ابنته لخطيبة لوسيان وقال متسائلاً :

ـ وقد جئت أسألك عن سر هذه الزيارة العجيبة .

فقال جاك جارود مجيباً :

ـ لقد أنبأتني ابنتي بكل شيء . . إن هذه الفتاة هي خياطتها . . !

وروى له ما عرف من أمر الفتاة وكيف أنها لقيطة لا تعرف لها أباً أو أماً .

وقال يسأله :

ـ وعلام عزمت الآن . .؟

ـ لا أدري . . ولكني سأراقب لوسي مراقبة دقيقة ثم أضع خطتي بعد ذلك . . ولكني لا بد لتحقيق هذا الأمر من نفقات كثيرة .

ـ لا تبال بالأمر . . أنفق كما تشاء . كل ما أبغي هو أن أزوج ابنتي بلوسيان ولو أنفقت على تحقيق هذه الغاية نصف ثروتي . . !

ودفع إليه أوراقاً نقدية قيمتها عشرون ألف فرنك وقال :

ـ هذه لنفقاتك . . أمّا مكافأتك فلها حساب آخر .

أمضت لوسي سحابة نهارها مع خطيبها لوسيان يتنزّهان في إحدى الحدائق .

وفي المساء رجعا إلى دارهما فقال لوسيان وقد رأى غرفة ليزا بيرين مطفأة الأنوار :

ـ إن بائعة الخبز لم تعد بعد . . !

ـ هذا لأنها تتولى تمريض صاحبة المخبز . .

وفيما هما يتناولان العشاء قرع الباب ودخلت عليهما جان فورتييه .

أنبأها لوسيان بسفره إلى بلغراد وقال :

ـ ترى هل شُفيت صاحبة المخبز حتى أعهد إليك بملازمة لوسي في أثناء غيبتي؟

فقالت جان في أسف :

ـ ما كان أحب إليّ أن أفعل هذا . . ولكن لا يسعني أن أتخلى عن صاحبة المخبز وهي في محنتها . . على أني سأحاول دائماً أن أزورها كلّما تهيأت لي الفرصة .

وشكرها لوسيان . . وفي صباح اليوم التالي كان في طريقه إلى بلغراد .

ـ ٤ ـ

كان أوڤيد سوليفر رجلاً بلا قلب .

في سبيل الحصول على المال لم يكن يحجم عن شيء . . ولقد وعد جاك جارود بأن يقتل لوسي . . وأقسم أن يبر بوعده دون أن

تأخذه رحمة بشبابها أو جمالها!

ولكن ما كان في وسعه أن يقتلها إلاّ إذا راقبها ودرس حركاتها وسكناتها وعرف متى تغادر دارها ومتى تعود إليها عند ذهابها إلى مشغل السيدة أوغستين.

وتنكّر في زي الحمّالين ومضى إلى المشغل وطلب مقابلة لوسي.. فقيل له إنها تعمل في منزلها ولا تحضر إلى المشغل إلاّ لتقدّم ما تنجز من ثياب.. فقال:

- وأين منزلها؟

- في شارع بوربون.. أتراك تحمل رسالة إليها؟

- كلاّ.. ولكن أحد النبلاء أوفدني إليها لأسرّ لها كلاماً.

وضحكت العاملة التي كان أوفيد يتحدث إليها وقالت بتهكم:

- اذهب إذاً إليها في دارها! والله لقد كنا نحسبها فتاة طاهرة. فإذا بها على شاكلتنا مستهترة لها علاقات خفية بالنبلاء! وأرجوك أن تبلغها عني أنه لا يجمل بها بعد هذا أن تخادعنا وتتظاهر بالعفاف!

ولـمّا انصرف أوفيد أقبل على بوابة المشغل وراح يستفسر منها عن اسم العاملة التي كان يتحدث إليها.

ونظرت إليه البوابة بازدراء.. فنقدها قطعة ذهبية أطلقت لسانها فقالت:

- إنها تدعى أماندا.. ولست تستفسر عنها لحسابك الخاص بطبيعة الحال.. فإنها باهظة النفقات.

- كلاّ.. وإنما لحساب أحد النبلاء.

- إذا كان على استعداد لأن يبذل فسينال منها كل ما يريد!

- إنه واسع الثراء لا يبالي بالإنفاق.

وفي مساء ذلك اليوم . . حين همّت أماندا بمغادرة المشغل دعتها البوابة وأسرّت إليها بفحوى الحديث الذي جرى بينها وبين الحمّال وقالت :

ـ فلك إذاً أن تنتظري صديقاً جديداً .

فقالت أماندا ضاحكة :

ـ وهل أطريتني عنده؟

ـ كل الإطراء !

ـ حسناً . . إذا تحقق ما أصبو إليه حشوت جيوبك بالمال .

وما كادت أماندا تبتعد عن المشغل حتى شعرت بأن هناك من يتعقّبها .

ولم يداخلها شك في أن مطاردها هو ذلك النبيل الذي حدثتها عنه البوابة بأنه أوفد حمّالاً يستفسر عنها في الصباح .

وتمهّلت أماندا في سيرها حتى لحق بها الرجل . . ألفته كهلاً في الخمسين من العمر . . ولكنه كان أنيق الثياب تدل سمته على الثراء .

وما كان هذا الرجل إلاّ أوفيد متنكّراً .

حيّاها برشاقة فردّت عليه تحيته . . ثم أردفت تقول :

ـ ولكني لم أتشرف بمعرفتك من قبل يا سيدي !؟

فقال مجيباً في لباقة :

ـ هذا لأن المعجبين بك كثيرون فيستحيل أن تعرفيهم جميعاً .

وسرّها منه هذا الجواب الظريف اللبق فابتسمت . . فقال :

ـ وهذه الابتسامة هي في ذاتها بطاقة أقدمها إليك ! . . والآن وقد بتنا صديقين أتسمحين لي بأن أدعوك إلى تناول الطعام معي؟

وبعد ربع ساعة كانا في مطعم أنيق يتناولان العشاء . .

وحين فرغا من العشاء استقلاّ مركبة وأمر أوفيد السائق بأن يمضي بهما إلى دار أماندا .

وعند الباب قال وهو يودّعها :

ـ غداً نلتقي .

ـ أين؟

ـ عند الظهر . . وفي المطعم الذي اعتدت أن تتناولي فيه طعامك .

ـ أتعرفه إذاً؟

ـ كما أعرف كل شيء عنك .

وعند ظهر اليوم التالي التقيا في المطعم فقالت أماندا :

ـ ينبغي أن أعجل بتناول طعامي . . فإني ذاهبة إلى إحدى العاملات بثوب للرقص لكي تنجزه .

ـ وهل منزلها بعيد؟

ـ في شارع بوربون .

وعلم أنها ذاهبة إلى لوسي .

وفي الطريق إلى شارع بوربون راح يستدرجها في الحديث فعلم أن هذا الثوب لزوجة عمدة كارين دي كولومب إذ أنها مدعوة إلى الحفلة السنوية التي تقيمها زوجة مدير مقاطعة السين .

وقال أوفيد :

ـ ولم لا تعهد السيدة أوغستين بهذا الثوب إلى عاملة أخرى؟

ـ لأن لوسي سريعة في إنجاز عملها . . تصور أنها ستفرغ من هذا الثوب بعد غد وتذهب إلى كارين دي كولومب لتجربه زوجة العمدة .

ـ ولكن هذه البلدة بعيدة!

ـ إنها نزهة جميلة بالسكة الحديد . . فإذا ما هبطت من القطار قطعت الغابة سيراً على الأقدام . . على أني أبغض هذه النزهة ليلاً إذ تنعدم أقدام المارة في الغابة . . أمّا في النهار فهي من أمتع النزهات . . وهذه السيدة شديدة التأنق وقد أبقتني مرة أنا ولوسي حتى الساعة العاشرة مساء .

فضحك أوفيد وقال :

ـ لا ريب أن الخوف استولى عليكما!

ـ لو كنت مكاننا يا صديقي لمت رعباً . . فالطريق مظلمة مقفرة .

وعندما وقفت المركبة بباب لوسي صعدت إليها أماندا على حين بقي أوفيد في المركبة يترقّب عودتها .

وبعد نصف ساعة رجعت أماندا إلى المشغل بعد أن اتفقت مع أوفيد على اللقاء في المساء .

كان لوسيان وهو في طريقه إلى بلغراد لا يفكر مرة في خطيبته لوسي إلاّ تراءت لعينيه صورة ماري هرمان . . معذبة . . مسلولة . . تبصق دماً! .

أيامها معدودة على ظهر الأرض . . وتنشد قبل أن تموت أن يسعدها الحب ولو يوماً واحداً .

وكان كلّما ذكرها كلّما أخذه الحزن وعصر فؤاده .

وقال في نفسه :

ـ إن هذه الفتاة على حافة القبر . . فلم لا أجاملها في حياتها القصيرة بأن أتظاهر بالعطف عليها بل بحبها حتى تقضي ما بقي لها من أيام!؟ عندما أرجع إلى پاريس سأتحدث إلى لوسي في الأمر .

وعندما بعث إلى بول هرمان برسالته الأولى ذيلها بسطرين تحدث فيهما عن ابنته ماري . . «فسأله أن يبلغها أطيب تمنياته . . وأنها على ما بينهما من بعد المسافة ماثلة في ذهنه وأن من المحال أن ينسى يوماً واحداً أنه مدين لها بما أصاب في حياته من منصب ذي شأن» .

وما كاد جاك يقرأ هذه الرسالة حتى اغتبط بها اغتباطاً شديداً ورأى في كلمات لوسيان بشيراً بالحب المنتظر . . فطار بها إلى ابنته وأطلعها عليها . . وهو يقول :

ـ أرأيت !؟ ها هو ذا قد بدأ يحبك .

فقالت ماري في أسى :

ـ أتظن ذلك يا أبتاه؟ إنه في هذه الرسالة لا يتحدث عني إلاّ من ناحية اعترافه بفضلي عليه ! . ولكني أريد حديثاً غير هذا ! . أريد حديث الحب لا حديث الاعتراف بالجميل ! .

ـ ولكن ألا ترين يا ابنتي من خلال سطوره أنه بدأ يفكر فيك؟ إن هذا التفكير يوشك أن يطغى على تفكيره في لوسي ! .

فقالت ماري بمرارة :

ـ لا تخدع نفسك يا أبت ! .

ولم يزد أبوها على ذلك شيئاً وإنما قال في نفسه :

ـ ما يدريني أنها على صواب فيما تقول . . وأنه لم يدفعه إلى كتابة هذه الكلمات إلاّ شعوره بفضلها عليه لا شعوره بالحب لها ! .

ولكن لا بدّ من أن أجمع بينهما ! . لا بد من إزالة لوسي من الطريق ! .

وجلس إلى مكتبه فبعث برسالة إلى لوسيان اختتمها بقوله :

«إن ماري مريضة جداً . . والحب هو علاجها الوحيد ! . فالدواء

بيدك كما ترى . . فهل تدعها تموت !؟» .

في صباح اليوم التالي سافر أوفيد سوليفر إلى كارين دي كولومب وعاين الطريق من محطة السكة الحديد إلى بيت العمدة . . فألفاها كما ذكرت له أماندا مقفرة تقطع غابة لا يمر فيها من الناس إلاّ القليلون في النهار فما بالك في الليل . . فقال في نفسه :

ـ عندما تهم لوسي بالعودة من بيت العمدة بعد أن تجرب الثوب لزوجته أكون في انتظارها في هذه الغابة المقفرة المظلمة . . فأعاجلها بطعنة تكون القاضية .

ولـمّا رجع من كارين دي كولومب انطلق من فوره إلى مقابلة جاك جارود وقال له :

ـ لقد آن الأوان ! .

وأدرك جاك ما يرمي إليه بهذه الكلمات فقال :

ـ أحقاً حانت ساعة الضربة القاضية؟

ـ وستكون قاضية . . لا ريب في ذلك ! .

وروى له ما كان من أبحاثه وكيف تعرف بإحدى زميلات لوسي بعد أن تقدّم إليها باسم البارون أرنولد دي ريس فاستقى منها المعلومات التي ستهوّن عليه مهمته .

ثم قال مسترسلاً :

ـ وعليك في الغد أن تبقى في مصنعك حتى منتصف الليل . . وسأحضر لزيارتك نهاراً فتزعم أن بيني وبينك عملاً هامّاً خطيراً . . ونحبس أنفسنا في مكتبك حتى منتصف الليل . . ولكني في المساء أتسلل سرّاً فأضرب ضربتي القاضية ثم أرتد إليك سرّاً دون أن يشعر أحد . . فإن ذلك سهل ميسور ! .

ـ ميسور جداً .

ـ حسناً . . هذا تدبير أريد به إقصاء الشبهة عن نفسي . . حتى إذا وقع المستحيل واتجهت إليّ الشبهات أمكنني أن أثبت أنني كنت معك من بعد الظهر إلى منتصف الليل نعمل معاً . . ومحال أن يتطرق الشك إلى شهادة رجل الأعمال العظيم السيد بول هرمان ! .

فضحك جاك وقال :

ـ إذاً غداً تموت لوسي؟

ـ وبعد ذلك لا يكون أمام لوسيان إلاّ أن يتحوّل إلى ابنتك .

وفي الساعة الخامسة من مساء اليوم التالي التقى أوفيد بصاحبته أماندا عند مغادرتها المشغل إذ كان في انتظارها على ناصية الشارع .

قالت له :

ـ إنني ذاهبة يا بارون أرنولد إلى مقابلة لوسي في شارع بوربون .

فقال لها :

ـ سأرافقك إذاً .

ودعاها إلى المركبة التي كانت في الانتظار .

والآن خطوة إلى الوراء .

حين كانت لوسي في طريقها إلى محطة كارين دي كولومب راجعة من منزل العمدة التقت بجان فورتييه .

دهشت المرأتان من هذا اللقاء غير المتوقع . . وسألتها جان عمّا أتى بها إلى هذه الضواحي البعيدة . . فكاشفتها بأمرها وقالت :

ـ وأنت؟ ما الذي جاء بك إلى كارين دي كولومب؟

ـ جئت أستدعي والدة صاحبة المخبز .

ـ ماذا أصابها؟ هل اشتدت عليها وطأة الداء؟

ـ نعم . . لقد شعرت بأنها تعاني سكرات الموت فأرادت أن ترى أمها . . ومنذ عام لم تلتق المرأتان إذ شجر خلاف بين الأم وزوج ابنتها فأقسم أن لا تزور حماته بيته . . ولكني سأرجوها الآن أن تتغاضى عن هذا الخصام وأن تحضر لتودع ابنتها الوداع الأخير .

وقالت لوسي :

ـ كنت أحب أن أرافقك يا سيدة بيرين . . ولكني مضطرة إلى أن أمضي إلى داري من فوري فأصلح هذا الثوب ثم أعود به إلى صاحبته مرة أخرى في الساعة التاسعة .

وتصافحت المرأتان واتخذت كل منهما طريقها .

حين مضت جان فورتييه إلى منزل والدة صاحبة المخبز لم تجد أن مهمتها سهلة ميسورة كما توقعت .

أبت الأم أن تمضي إلى زيارة ابنتها المريضة الطريحة على فراش الموت وقالت بغضب :

ـ يهينني زوجها ويطردني من داره . . ثم أعود إلى زيارته دون أن يعتذر ! أهون عندي أن تموت ابنتي دون أن أراها من أن أذهب إليها قبل أن يبعث إليّ زوجها برسالة يعتذر فيها .

وألحّت عليها جان . . وحاولت . . وتوسّلت بكل الوسائل . . ولكنها كانت محاولات غير مجدية .

ومضت إلى المحتضرة تقص عليها النبأ وتكاشفها بخيبة مسعاها .

بكت المرأة المسكينة وغمغمت بصوت يخالطه عذاب الموت :

ـ ربّاه ! أقضي عليّ بأن أموت دون أن أتزوّد من أمي بالنظرة الأخيرة؟

وفي الساعة السادسة من مساء هذا اليوم نفسه مضى أوفيد

سوليفر إلى مصنع جاك جارود . . وجلسا يتباحثان في مكتبه . فدعا جاك الخادم وقال له :

ـ إنّ لديّ ما يشغلني الليلة . . وسأبقى حتى منتصف الليل أتباحث مع هذا السيد المهندس . . فإذا حان موعد انصرافك المعتاد فلا تنتظرني .

وحين أوصد باب المكتب عليه وعلى أوفيد أخرج هذا من طيات ثيابه مدية كبيرة وقال هو يبتسم :

ـ ستغيب هذه المدية في صدرها وقد اشتريتها من دكان تقع تحت بيت لوسي وأنا في انتظار أماندا حين صعدت إليها .

فارتعد جاك وقال :

ـ إنها مدية رهيبة !

ـ ولكنّ حياة ابنتك معلقة بها إنها مدية الحياة والموت في آن واحد !

ـ وهل تذهب لوسي الليلة إلى بيت العمدة؟

ـ نعم . . في الساعة التاسعة . . فكن مطمئناً .

حين رجع زوج صاحبة المخبز من عمله في المساء وعلم بما كان بين جان فورتييه وحماته تولاه الغضب وقال :

ـ ويحها ! ابنتها على سرير الموت وتأبى أن تحضر لوداعها .

فراحت جان تتوسّل إليه أن يبعث إلى حماته بكتاب اعتذار وقالت :

ـ إنك تفعل هذا من أجل زوجتك التي تحبها . . لا من أجل حماتك . . أتريد أن تجعل زوجتك في ساعاتها الأخيرة أشقى النساء؟ !

ومـا تردّد الرجل لحظة . . تناول القلم وكـتب رسـالة اعتـذار إلى حماته دعاها فيها إلى زيارة ابنتها .

وطارت جان فورتييه بالكتاب إلى كارين دي كولومب فبلغتها في الساعة العاشرة مساء .

رأت الحماة رسالة الاعتذار فطابت نفسها وقالت :

ـ انتظري حتى أرتدي ثيابي فأرافقك .

وفي غـضـون ذلك كـانت لوسي في كـارين دي كـولومب أيضـاً تجرب ثوب زوجة العمـدة . . فلمّا أنجزت مهمتـها انصرفت عائدة إلى المحطة تشق طريقها في هذا الطريق المظلم .

وهناك . . في الغابة كان أوڤيد سوليفر ينتظرها ومديته مشرعة في يده .

وكانت طعنة أطلقت لوسي على أثرها صرخة داوية . .

ولكن أوڤيد لم يرحم هذه المسكينة المضرجة بدمها بل رفع المدية وأهوى بها على صدرها للمرة الثانية .

وأصـاب نصل المدية جسـمـاً مـعـدنيّاً فـانكسر . . ولـكنه لم يحـفل بذلك . . كان موقناً أن الطعنة الأولى قضت عليها .

ومدّ يده يتـحسّس هـذا الجسم المعـدني الذي انكسـر عـليه النصل فألفاه ساعة وسلسلتها فقال في نفسه :

ـ فـلأسـرقـهـا حـتى يقـع في الأذهان أن السـرقـة هي الـدافع إلى الجريمة .

وما كـاد يدس الساعـة في جيبه حتى سمـع وقع أقدام فـانطلق يعدو مسرعاً إلى الغابة وتوارى في ظلماتها .

وكـان وقـع الأقدام التي تقترب لامرأتين . . لقـد سمعتا الصـرخة

الداوية فأسرعتا إلى مصدر الصوت لتتبيّنا ما حدث .

وصاحت إحدى المرأتين :

ـ انظري ها هوذا رجل يركض هارباً ! .

وقالت الأخرى :

ـ ترى ما الذي فعل ! .

وجالتا ببصرهما هنا وهناك فرأتا لوسي ممدة على الأرض والدماء تنزف من جرحها بغزارة .

انحنت المرأتان فوق المصابة . . ثم ما لبثت إحداهما أن صاحت بجزع :

ـ رباه ! إنها لوسي ! .

فما كانت هاتان المرأتان إلاّ جان فورتييه ووالدة صاحبة المخبز وهما في طريقهما إلى المرأة المحتضرة .

مالت جان فورتييه فوق لوسي وراحت تقول :

ـ رباه . . لقد قتلها ذلك الشقي ! ولكن ها هو ذا نبضها لا يزال يدق ! أسرعي إلى مركز الشرطة ليبعث إليّ بطبيب . . وسأبقى بجوارها .

ـ إنك تعرفينها إذاً؟

ـ نعم إنها جارة لي

بعد نصف ساعة كان رجال الشرطة قد حضروا ونقلوا المصابة إلى مركز الشرطة وتولى المفتّش التحقيق .

وإذ فرغ الطبيب الذي حضر من فحصها قال :

ـ إن الجرح عميق وبالغ الخطورة . . ولكني أرجو أن لا يكون قاتلاً . . فإن نصل المدية لم يبلغ الرئة لحسن الحظ .

فقال مفتش الشرطة :

ـ وإلى أين ننقل المصابة فليس في هذه القرية مستشفى؟

فقال الطبيب :

ـ يمكن أن أفرد لها غرفة في داري وأتولى العناية بها على أن تلازمها هذه المرأة (وأشار إلى جان) فإنها صديقة لها فيما أرى .

فقالت جان :

ـ سألازمها ليل نهار يا سيدي الطبيب . . ولكني أتوسل إليك أن تنقذها .

ـ إني أرجو أن يكون لها من شبابها ما يرد عنها غائلة الموت .

أمّا المفتّش فوضع تقريراً عن الحادث أبدى فيه رأيه بأن السرقة هي الدافع إلى الجريمة .

وبينما كانت هذه الحوادث تجري في ضاحية كارين دي كولومب كان سوليفر قد بلغ المصنع وتسلل إليه من بابه الخلفي دون أن يراه أحد . . ودخل المكتب حيث كان جاك في انتظاره متلهّفاً .

قال أوفيد باقتضاب :

ـ قضي الأمر ! .

ورفع جاك عينيه إلى السماء شاكراً .

وأسرع أوفيد فخلع ثيابه القروية التي كان متنكراً فيها . . وارتدى ثيابه العادية التي كان قد أودعها لدى جاك . ثم قال :

ـ والآن نغادر المكتب معاً وكأننا قضينا السهرة كلها في البحث والمشاورة .

وبعد لحظات غادر المصنع وتولّى البواب إغلاق الباب خلفهما ودعا إحدى المركبات لهما ! .

في صباح اليوم التالي تولى رجال الشرطة تفتيش الغابة على مقربة من مكان الحادث . . ولكنهم لم يهتدوا إلى شيء ذي بال .

وعند الظهر أفاقت لوسي من إغمائها . . وإذ رأت جان فورتييه إلى جوارها ابتسمت وحركت عينيها شاكرة .

واغتنم مفتش الشرطة هذه الفرصة فطرح عليها طائفة من الأسئلة لم تسفر عن شيء جديد . . نعم . . إنه كان على صواب حين اعتقد أن السرقة هي الدافع . . لقد سرق منها كيس نقود به ثلاثون فرنكاً وساعة ذهبية وسلسلتها .

كلاّ . . إنها لم تر وجه القاتل إذ فاجأها في الظلام . . ولا ترتاب في أحد وليس لها أعداء .

رقم الساعة؟ كلاّ . . إنها لا تذكر هذا الرقم . . وخطيبها لوسيان لابرو هو الذي أهداها هذه الساعة .

وجاء الطبيب يفحصها مرة أخرى فقال :

ـ جرحك ليس خطراً يا ابنتي . . وسأضمده لك الليلة مرة أخرى . . وبعد ذلك يمكنك أن تعودي إلى بيتك إذا شئت .

وغمغمت لوسي تقول :

ـ ليزا بيرين . . إنك ستبقين معي . . أليس كذلك؟

فهتفت جان فورتييه :

ـ وهل يطاوعني قلبي أيتها العزيزة على أن أفارقك؟ ! ولكني سأغيب ساعة واحدة أرى فيها صاحبة المخبز لأطمئن عليها ثم أعود إليك .

وانطلقت جان إلى صاحبة المخبز فألفت زوجها يبكي بكاء مرّاً فعرفت أن الكارثة قد وقعت . . وأن المنية أنشبت أظفارها في

المسكينة .

في غضون ذلك كانت السيدة أوغستين الخياطة فريسة القلق . . لقد ذهبت لوسي بثوب الرقص إلى زوجة العمدة ولكنها لم تعد إليها لتنبئها بما تم هناك .

وعهدت إلى العاملة أماندا بأن تتحرى الأمر . . فلمّا غادرت هذه الأخيرة المشغل وجدت أوفيد أي البارون أرنولد دي ريس كما كانت تظن في انتظارها وصحبها إلى دار لوسي .

أنبأتهما البوابة أن لوسي لم تعد منذ خرجت في الليلة السابقة فرجعت أماندا بالنبإ إلى رئيستها . . واطمأن أوفيد إلى أن مديته قضت على الفتاة بلا ريب وإلاّ فلو أنها كانت على قيد الحياة لحضرت الشرطة إلى دارها . . أمّا وهو يجهل شخصيتها فلا سبيل له إلى معرفة مسكنها .

ـ ٥ ـ

كان الطبيب قد قرر نقل لوسي إلى دارها في المساء . . ولكنه حين عادها للمرة الثانية وجدها قد أصيبت بالحمى على غير انتظار . . فلم ير بداً من إبقائها حتى تزول الحمى عنها .

وكانت جان فورتييه قد رجعت من پاريس فأقامت إلى جانب المصابة تسهر عليها .

وقالت لوسي بصوت خافت :

ـ إني أترقّب رسالة من لوسيان فأرجو أن تحضري إلي الرسائل التي وردت باسمي إلى داري . . واتصلي بالسيدة أوغستين وأنبئيها بما حدث .

فقال المفتّش :

ـ إني أشير بضرورة الكتمان . . فلا تقولي لها إنها أصيبت بطعنة . . اذكري لها أية حادثة تشائين .

ومضت جان إلى پاريس وأنبأت بوابة البيت أن لوسي عثرت في الطريق فأُصيبت بالتواء القدم وأنها في منزل صديقة لها وستعود بعد بضعة أيام .

وساقت السبب نفسه إلى السيدة أوغستين .

وفي صباح اليوم التالي رجعت إلى كارين دي كولومب تحمل إلى لوسي رسالتين وجدتهما في دارها .

كانت الرسالتان من خطيبها لوسيان . . وقد أقلقه أنها لم تجب على رسالته الأولى فألحقها بأخرى .

وقالت لوسي :

ـ لا بد أن أكتب إليه بنفسي . . وإلاّ أزعجه أن يرى الرسالة بغير خطي .

وتحاملت على نفسها وخطت إليه رسالة موجزة وهي مستلقية على ظهرها . . وقد كاشفته بما أصابها وقالت :

«والدليل على أن جرحي بسيط أني أكتب إليك هذه الرسالة بنفسي» .

وفي الوقت الذي كانت فيه لوسي مبتهجة أشد الابتهاج برسالتي خطيبها كانت أماندا ثائرة هائجة حين فرغت من تلاوة رسالة جاءتها من أوڤيد .

في هذه الرسالة كاشفها البارون أرنولد دي ريس بأن مهمة عاجلة دعته إلى السفر . . وأن رحلته قد تطول .

وأودع الرسالة ورقة نقدية بألف فرنك .

وعرفت أماندا ـ من تجاربها السابقة ـ أن الرحلة المزعومة ما هي إلاّ حجة تُلتمس تسويغاً للمقاطعة.

وساءها الأمر كثيراً فقد كانت تمنّي نفسها بأن تنال من البارون مالاً غير قليل لما رأته من بذخه وإسرافه.

أمّا أوڤيد فقد انصرف عنها إذ لم تعد له حاجة إليها.. اتصل بها ليجمع معلومات عن لوسي.. أمّا وقد قتلها فما حاجته بعد ذلك إلى الاتصال بهذه الفتاة؟!

حين تلقّى لوسيان رسالة لوسي كاد يجن إشفاقاً عليها.. وخطر له أن يقطع رحلته فوراً وأن يعود إلى پاريس.

ولكن الحكمة لم تلبث أن تغلبت عليه.. فإن الأمر ليس خاصّاً به وحده ومن الحماقة أن يحبط هذه المفاوضات التجارية وأن يخون الأمانة التي عهد بها إليه جاك لأن خطيبته مريضة!

أمّا ماري هرمان فلم يكن هناك شك في أنها كانت تتعذب لفراق لوسيان.. فقد ازدادت شحوباً وازدادت العلة تمكّناً من بدنها.

على أن أباها كان يمنّي النفس بقرب زواجها من لوسيان ما دامت العقبة القائمة في الطريق قد أزيحت.

فما دامت لوسي قد ماتت فلن يكون أمام لوسيان إلاّ أن يتزوج ماري.

وفي يوم كان جاك جالساً يتحدث إلى ابنته حين دخل الخادم ينبئ سيدته بأن الخياطة لوسي أتت تحمل الثياب الجديدة.

وثب جاك واقفاً وقد امتقع وجهه وصاح:

ـ لوسي! أهي لوسي التي حضرت؟

ولم تدرك ماري السر الحقيقي لانفعال أبيها.. وظنته اهتاج غضباً

إذ حضرت لوسي إلى دارها بعد أن علمت ابنته أنها صديقة لوسيان . . وقالت :

ـ هوّن عليك يا أبتاه . . فإنني لن أستقبلها ! .

وتمالك جاك روعه . . وغالب اضطرابه وقال في نفسه :

ـ كيف هذا !؟ هل خدعني أوفيد وابتز أموالي !؟ ألم يقل لي إنه قتل الفتاة؟ !

وأقبل على ابنته يقول :

ـ إنني أبغض هذه الفتاة يا ابنتي . . وقد أهاج الغضب انفعالي رغماً عني . . ولكن لا داعي لأن توصدي بابك في وجهها فإنها لم تجن ذنباً ! وليس من اللائق أن ننحدر إلى مستواها .

ـ أصبت يا أبي .

وأمرت الخادم بإدخالها .

ودخلت لوسي تسير بخطوات بطيئة . . بادية الإعياء . . شاحبة الوجه .

وقالت :

ـ معذرة يا سيدتي إذا كنت قد تخلّفت عنك أياماً . . فقد اعتدى عليّ أحد اللصوص وطعنني بمديته . . فلما شفيت بادرت إليك بالثياب .

فقالت ماري :

ـ ولم طعنك بالمدية؟

ـ ابتغاء السرقة .

وروت لها ما وقع . . وجاك جارود يصغي إليها بانتباه شديد :

وقال جاك يسألها :

ـ إذاً فهو لص؟ فهل عرفته؟

ـ كلاّ يا سيدي .

وفجأة حملق جاك في الفتاة! عجباً! إنه يذكر هذا الوجه . . وهذه الملامح . . بل هذا الصوت أيضاً!

إنها شبيهة بامرأة كان يعرفها في شبابه .

وتجسّمت الصورة أمام عينيه .

وقال في نفسه :

ـ آه . . إنها شبيهة بجان فورتييه!

وذكر في هذه اللحظة ما عرف من أمر هذه الفتاة وكيف أنها لقيطة نشأت في أحد الملاجئ فقال في نفسه :

ـ ربّاه! أتكون هذه الفتاة هي ابنة جان فورتييه؟!.

وإذ فرغت لوسي من قصتها قالت لها ماري بخشونة :

ـ حسناً . . اتركي الثياب فإنني لن أجربها الآن . . وإذا أردت شيئاً أخطرت السيدة أوغستين بأن تبعث إليّ بأماندا أو سواها!

وانصرفت لوسي وهي تسائل نفسها عن السر في غضب ماري هرمان عليها وخشونتها معها . . وهي لم تُسئ إليها مطلقاً . .

في مساء اليوم نفسه أرسل جاك جارود يدعو أوڤيد سوليفر إلى مقابلته . . فلمّا دخل عليه ابتدره بقوله :

ـ اليوم رأيت لوسي!

فهب أوڤيد واقفاً وصاح :

ـ ماذا تقول!؟ لوسي!

ـ نعم! إنهاعلى قيد الحياة . . لم تكن الطعنة قاتلة!

وروى له ما حدث .

وهتف أوفيد :

ـ يا لسوء الحظ ! على أن من حسن حظي أنها لم تتبيّن وجهي وأن الشرطة تعتقد أن السرقة هي دافع الجريمة .

وبعد صمت قصير قال أوفيد :

ـ إذاً ينبغي أن أقوم بالمحاولة مرة أخرى .

ـ لو أننا فعلنا لاستُهدفنا للأخطار وأثرنا الشبهات . . فما تكون فتاة واحدة هدفاً للصوص مرتين في خلال عشرة أيام . .

ـ إذاً هل رجعت عن عزمك؟

ـ وكيف أتراجع وحياة ابنتي معلقة على زواجها بلوسيان؟

ـ وعلام عزمت إذاً؟

ـ لوسي لقيطة . . وأودعت الملجإ في عام ١٨٦١ أو ١٨٦٢ وقيّدت في السجل برقم ٩ وأريد أن أعرف جميع البيانات الخاصة بها والمدوّنة في السجل . . حتى ولو دعا الأمر إلى سرقة هذا السجل نفسه .

ـ وأية فائدة تجنيها من هذا العمل؟

ـ اليوم قابلت لوسي للمرة الأولى . . فهل تعلم أنها تشبه جان فورتييه شبهاً شديداً !

فقال أوفيد باستغراب :

ـ أتعني أن . . .

ـ نعم . . من المحتمل جداً أنها ابنة جان فورتييه ! الشبه واحد والسن واحدة . . وقد أودعت الملجإ كابنة جان . . فإذا ثبت ذلك فمحال أن يتزوج لوسيان لابرو ابنة المرأة التي قتلت أباه .

ـ ولكنه يعتقد كما أنبأتني أن جان فورتييه بريئة !

ـ ولكن هذا الاعتقاد لا يغير من حكم القضاء ولا من حكم الناس . . وإذا تزوج ابنة جان قضى على سمعته قضاء مبرماً ! . فإذا كنت أخفقت في قتل لوسي فسوف أقتلها بطريقة أخرى ! .

وفرك كفّيه ابتهاجاً وقال مستطرداً :

ـ يجب أن تتزوج ابنتي من لوسيان ! . هذا هو هدفي في هذه الحياة وسأبلغه بكل وسيلة ممكنة . . مشروعة كانت أو غير مشروعة ! . .

بعد أن انصرفت لوسي أحست ماري هرمان بانقباض شديد . . فأمرت بإعداد مركبتها وذهبت إلى زيارة صديقها المصور إتيين كاستل علها تجد في مشاهدة صوره ولوحاته ما يسري عنها هذا الحزن الذي شاع في نفسها .

وأزاح إتيين الستار عن لوحة كبيرة بالحجم الطبيعي وقال :

ـ أتروقك هذه اللوحة يا ترى؟

ـ إنها تحفة رائعة . . ولكن هذا عجيب ! يخيل إلي أنني رأيت من قبل هذه المرأة التي يحيط بها رجال الشرطة . . أو على الأقل رأيت فتاة تشبهها شبهاً عجيباً .

فقال المصور متسائلاً :

ـ ومن تكون هذه الفتاة؟

ـ عاملة عند الخياطة أوغستين تدعى لوسي . . أتعرفها؟

ـ كلاّ يا سيدتي . . وأين تقيم هذه الفتاة؟

ـ في رقم ٩ بشارع بوربون .

ـ إن هذا يحدث كثيراً . . .

ثم انتقل الحديث إلى ناحية أخرى . . إذ سألته أن يرسم لها

صورة بالحجم الطبيعي حتى تهديها إلى أبيها في يوم مولده . .

فوعدها المصور بأن ينجزها قبل انقضاء الشهرين الباقيين .

وتطرّق بينهما الحديث إلى المصانع والاختراعات فقال إتيين :

ـ لقد كان جدك مورتيمر من كبار المخترعين فيما عرفت .

ـ هذا صحيح . . وكذلك أبي . . ومن أعظم اختراعاتهما آلة الخياطة الصامتة وآلة الصقل .

فقال إتيين باستغراب :

ـ آلة الصقل !؟

ـ نعم . . وهي تصقل حتى الأجسام المقعرة وغير المستوية .

ـ وهل أقام أبوك في أميركا كثيراً؟

ـ نحو اثنين وعشرين عاماً . . لقد استقرّ فيها سنة ١٨٦١ .

ولـمّا انصرفت ماري وقف إتيين يتأمل اللوحة ويقول في نفسه :

ـ عجباً . . إذاً فلوسي تشبه جان فورتييه شبهاً عجيباً ! . وقد نشأت لوسي في الملجإ . . فهل تكون يا ترى ابنة جان !؟

ـ ٦ ـ

لم يكد يمضي يوم واحد على الحديث الذي دار بين أوفيد وجاك جارود حتى كان أوفيد قد هبط قرية جواني يتحرى عن لوسي ويعود إلى صاحبه بنبإ عن ماضيها .

أمضى أوفيد في الفندق ساعة تحدث فيها إلى صاحبه وسأله أن يرشده إلى امرأة عجوز من أهل القرية . . إذ أنه في حاجة إلى الاستفسار عن حادث قديم العهد .

وذهب أوفيد إلى زيارة هذه المرأة وقال لها :

ـ إنك تعرفين طبعاً أسماء جميع المرضعات اللائي كنّ في هذه القرية منذ عشرين سنة . . ولقد كان عند إحدى هذه المرضعات طفلة أودعتها أم تدعى السيدة فورتييه . . فهل تعرفين اسم هذه المرضع؟

فقالت المرأة :

ـ هذا سؤال صعب .

ـ سأعينك على التذكر . . إنّ الأم اتُّهمت منذ عشرين سنة بالسرقة والقتل وإحراق مصنع السيد لابرو ! .

فهتفت العجوز :

ـ آه . . لقد تذكرت هذا الحادث . . إنه كان حديث أهل القرية . . نعم . . لقد كان لهذه الشقية طفلة عند المرضعة السيدة فريمي .

ـ وأين السيدة فريمي فإني أحب أن أتحدث إليها؟

ـ لقد ماتت . .

ـ وابنة جان فورتييه ! ما كان مصيرها؟

ـ أغلب الظن أنها أودعت ملجإ اللقطاء كما جرت بذلك العادة إذا ماتت الأم أو انقطع أجر المرضع . . فاذهب إلى دار العمدية فلديهم سجل واف يتضمن جميع البيانات التي تسأل عنها .

مضى أوڤيد سوليفر إلى دار العمدية وهو يقول في نفسه :

ـ والآن ما العمل !؟ لو أني طلبت هذه البيانات لأثرت الشبهات ولظن القوم أني موفد من قبل جان فورتييه الهاربة . . فأضع نفسي بذلك في مأزق حرج .

ولكن لم يكن في وسعه إلاّ أن يستفسر .

دخل دار العمدية . . ولكنه لم يمض مباشرة إلى قسم السجلات

وإنما دخل مكتباً رأى فيه موظفاً شاباً جالساً على انفراد .

حيّاه وقال :

ـ أتسمح يا سيدي بأن أوجّه إليك سؤالاً؟

ـ بكل ارتياح .

ـ أتعلم اسم العمدة الذي كان يتولى الأمر في هذه القرية في عام ١٨٦١؟

ـ بكل تأكيد يا سيدي . . إنه يدعى دشمان . . وهو عمي .

ـ أهو في جواني؟ .

ـ كلا . . إنه مقيم في ديجون .

ـ إن لي سؤالاً آخر عن حادث وقع في سنة ١٨٦١ .

ـ قد يكون في وسعي أن أدلي إليك بما تطلب من بيانات .

وفي هذه اللحظة فتح الباب ودخل رجل قروي ما إن رآه الفتى حتى شحب وجهه وبدا عليه الفزع وقال بارتباك :

ـ إنني يا سيدي . .

فقاطعه الزائر بوحشية :

ـ دعك من الألقاب وأعد إليّ مالي . . !

ـ أرجوك أن تمهلني قليلاً .

ـ أمهلك . .؟ إنك منذ ستة شهور لا تسألني إلاّ أن أمهلك . . غداً آخر موعد بيننا . . فإذا لم تنقدني الألف فرنك قدّمت إلى الشرطة السند الذي زوّرت عليه توقيع عمك . . وهذا هو إنذاري الأخير .

اغتنم أوفيد هذه الفرصة وقال :

ـ يؤسفني أنني حضرت هذا الحديث المزعج . . ولكن ما الذي حدث؟

فقال الفتى مجيباً :

ـ إن هذا السيد شريك لعمي في تجارة الخمر . . وقد حملني الطيش على أن أزوّر توقيع عمي على سندين دفعتهما إليه وأخذت منه الألف فرنك . . وأنا أرجو أن أتمكن من إيفائه حقه في موعد السداد قبل أن يقدّم السندين إلى عمي ويطالبه بقيمتهما . . وهو الآن يتوعّدني بأن يكشف أمري ويلقي بي في السجن .

وقال تاجر الخمور :

ـ هأنذا للمرة الأخيرة أمهلك يوماً واحداً .

وانصرف على الفور . . فقال أوڤيد :

ـ وما الذي دفعك إلى هذه الفعلة الشائنة؟

ـ غرامي بامرأة لا تستحق إلاّ أن تجلد بالسياط . . حين نضبت أموالي غضبت عليّ ونبذتني . . والآن ليس لي إلاّ أن أختار بين السجن أو الانتحار .

فسكت أوڤيد هنيهة ثم قال :

ـ هل حان موعد انصرافك؟

ـ نعم .

ـ إذاً هيا نذهب إلى تاجر الخمور . . !

ـ وما الفائدة والألف فرنك ليست معي . . إنني لا أحب أن أُستهدف مرة أخرى لإهاناته .

فابتسم أوڤيد وقال :

ـ إن الألف فرنك ليست معك . . ولكنها معي ! . .

ـ ماذا تقول يا سيدي؟

ـ سأوفي عنك الدين . .

ـ ولكن . . .

ـ لا تعترض . . إني لقاء ذلك سأسألك أن تسدي إليّ خدمة صغيرة .

وبعد نصف ساعة أخرج أوفيد من محفظته أوراقاً نقدية بألف فرنك ووضع مكانها السندين المزورين .

قال أوفيد سوليفر يخاطب الفتى وهما جالسان يتناولان الطعام في أحد المطاعم :

ـ إذاً فقد تركتك هذه المرأة بعد أن تورطت في الديون !

ـ نعم يا سيدي . . فلا زلت مطالباً بألفي فرنك .

ـ سأوفيها عنك أيضاً .

ـ لا داعٍ لذلك يا سيدي . . فقد وعدني الدائنون بإمهالي ! . .

ـ وإذا حلّ موعد السداد وعجزت . . ما يكون من أمرك . .؟ كلاّ . . إنني سأفي عنك دينك كله على أن تؤدي لي هذه الخدمة .

ـ إني رهن إشارتك يا سيدي .

ـ منذ اثنين وعشرينِ عاماً كانت لي عشيقة رزقت مني طفلة . . فلمّا علمت أن زوجها يوشك أن يعود من رحلته أودعت هذه الطفلة عند إحدى المرضعات في جواني . . وقد غادرت فرنسا إذ ذاك في رحلة طويلة وعندما رجعت من سفري لم أجد أثراً لعشيقتي ولست أعلم لها مقراً . . أمّا المرضع فتدعى فريمي . . ورجائي إليك أن تساعدني في البحث عن ابنتي .

فقال الفتى :

ـ هذه البيانات مدونة يا سيدي في سجل العمدية .

ـ أيمكن أن تأتيني بصورة منها؟

ـ إنك تسألني أمراً خطيراً يا سيدي . . ولكنني لن أتردد في إجابتك إلى ما تبغي فقد أسديتني جميلاً لا يجحد .

فقال أوفيد باسماً :

ـ ولكن إياك أن تعود ثانية إلى حماقتك فترتمي عند قدمي هذه المرأة . . أكانت جميلة؟

ـ إني لم أر يا سيدي من هي أجمل من أماندا أو أرشق منها !

وهتف أوفيد :

ـ أماندا ! هذا عجيب !

ـ أتعرفها يا سيدي؟

ـ صفها لي أولاً!

فلمّا وصفها الفتى قال أوفيد :

ـ هي بعينها . . ولكنها ليست في جواني الآن .

ـ لقد بارحتها إلى پاريس منذ شهور بعد أن ارتكبت بعض الجرائم !

ـ أية جرائم .

وعرف أوفيد من حديث الفتى أن أماندا كانت عاملة في أحد المحلات في هذه البلدة فارتكبت جريمة سرقة وهمّت صاحبة المحل بأن تشكوها لولا أن توسّلت إليها أماندا باكية فصفحت عنها بعد أن استكتبتها اعترافاً بالسرقة وأمهلتها عاماً لإيفاء ثمن ما سرقته . . وقد زوّرت السندين وقدمت إليها الألف فرنك لتدفعها إلى صاحبة الحانوت ولكنها بددتها . . ثم هجرتني ورحلت إلى پاريس .

ـ وما هو عنوان هذا الحانوت؟

ـ رقم ٧٤ بالشارع الكبير .

بعد ساعة كان أوفيد في الحانوت رقم ٧٤ بالشارع الكبير .

قال لصاحبته :

ـ كانت عندك عاملة تدعى أماندا . . وقد سرقت منك بعض البضائع وقد أوفدتني إليك لأستعيد منك الإقرار وأنقدك ثمن ما سرقت .

وحدث هنا ما حدث في السندين اللذين زورهما دشمان . . أخرج أوفيد من محفظته ورقة نقدية بألف فرنك ومكانها وضع الإقرار الذي تعترف فيه أماندا بأنها سارقة .

وفي مساء اليوم التالي التقى أوفيد بالفتى دشمان في الموعد المضروب فدفع إليه ورقة وهو يقول :

ـ إني لم أنسخ لك صورة من السجل وإنما انتزعت الورقة نفسها وجئتك بها . . فقد كان لديّ عمل كثير لم يدع لي وقتاً للنسخ .

ألقى أوفيد نظرة عجلى على ورقة السجل فوجد فيها جميع البيانات المنشودة . . ولم يعد يخالجه شك في أن لوسي هي ابنة جان فورتييه .

دسّ أوفيد السجل في جيبه وصافح الفتى وشكره بحرارة . . فقال هذا في تردد :

ـ ولكن أتسمح لي قبل انصرافك أن تعطيني السندين المزورين ! . .

فقال أوفيد باستغراب :

ـ السندان المزوران ! آه ! . لقد مزقتهما فكن مطمئناً .

ولكنه كان كاذباً في قوله . . لقد احتفظ بالسندين كما احتفظ

بإقرار السرقة وهو يقول في نفسه :

ـ ما يدريني أنني قد أحتاج إلى هذه الأوراق يوماً ما ! . إنها في يدي تصبح سلاحاً أرغم به دشمان وأماندا على الرضوخ لإرادتي وعدم الوشاية بي .

ـ ٧ ـ

عثر رجال الشرطة في أثناء تفتيشهم الغابة التي وقع فيها الاعتداء على لوسي على قطعتي المدية التي طُعنت بها الفتاة المسكينة .

ضُمّت القطعتان إحداهما إلى الأخرى فتطابقتا . . وكان اسم البائع وعنوانه مكتوبين عليهما . . وهذا نصه :

«روشار . . بائع أسلحة ـ ٩ شارع بوربون» .

ودهش مفتّش الشرطة حين قرأ هذا العنوان وقال في نفسه :

ـ عجباً . . إنه عنوان لوسي أيضاً . . إنها تقيم في هذا المنزل ذاته !

وكان من رأي قاضي التحقيق أن الجريمة لم ترتكب عفواً كما كان الرأي للوهلة الأولى . . والدليل على ذلك شراء المدية من المنزل نفسه الذي تقيم فيه لوسي . . وقال القاضي :

ـ فالمعتدي إذاً يعرفها حق المعرفة . . إلاّ إذا كانت المصادفة قد لعبت دوراً عجيباً غير مألوف !

وانتقل التحقيق إلى حانوت بائع الأسلحة .

وراحت العاملة التي باعت المدية تصف الشاري للقاضي فقالت :

ـ إنه كهل في الخامسة والخمسين متأنق الثوب له رشاقة الشبان . . ولا تبدو على وجهه سمة المجرمين .

وصعد القاضي إلى مسكن لوسي المقيمة في الطابق الأعلى من المنزل وأنبأها بما أسفر عنه التحقيق مع بائع الأسلحة فعجبت للأمر

وقالت :

ـ ولكني موقنة من أن المعتدي عليّ كان رثّ الثياب !

ـ من المحتمل أنه كان متنكّراً .

ـ هذا جائز .

بعد أن انصرف القاضي ومفتّش الشرطة مضت لوسي إلى مشغل السيدة أوغستين تحمل إليها ما أنجزت من ثياب جديدة .

قالت الخياطة الشهيرة تسألها :

ـ ألم يهتد رجال الشرطة بعد إلى المعتدي الأثيم؟

ـ كلاّ . . ولكن الأمل قد اشتد في اعتقاله .

وروت لها ما كان من عثور الشرطة على المدية ومعرفة أوصاف الرجل الذي ابتاعها من بائع الأسلحة الذي يستأجر حانوتاً في المنزل نفسه الذي تقيم فيه .

وكانت أماندا تصغي إلى هذا الحديث باهتمام شديد .

وقالت السيدة أوغستين :

ـ إني أشاطر القاضي رأيه . . إن هذا المعتدي يعرفك من قبل على ما أظنّ . . وما من شك في أنه يحقد عليك حقداً شديداً .

ـ ولكني لم أُسئ إلى أحد ! فلم يحقد عليّ؟

وتذكّرت أماندا عند ذلك الحمال الذي جاء يوماً يسألها عن لوسي وعن عنوانها فقالت :

ـ أليس لك عشيق نبذته فنقم عليك بعد أن هجرته؟

فابتسمت لوسي وقالت :

ـ ما عشقني أحد حتى اليوم !

فقالت السيدة أوغستين :

ـ الحق أن هذا الحادث غامض مبهم . . ولكنني أرجو أن تنجلي هذه الظلمات عاجلاً .

ـ ٨ ـ

كان أوفيد قد انقطع عن مقابلة أماندا حين ظن أنه قتل لوسي فلم يعد في حاجة إلى المعلومات التي تمدّه بها . . ولكنه حين عرف أن لوسي لا تزال على قيد الحياة عاد يتصل بأماندا عقب عودته من جواني مزوّداً بإقرار السرقة التي اقترفتها .

وفي ذلك المساء كانا على موعد لقاء .

قالت له أماندا :

ـ أعلمت بما أصاب لوسي؟

فهتف متجاهلاً :

ـ ومن تكون لوسي هذه؟

ـ تلك الخياطة المقيمة في شارع بوربون والتي رافقتني إلى دارها يوماً ما . .

ـ ماذا أصابها؟

ـ أُصيبت بطعنة مدية كادت تقضي على حياتها .

وروت له تفاصيل الحادث . . والتطوّر الجديد الذي طرأ على اتجاه القضية . . وقالت :

ـ وقد عثروا على المدية وعرفوا من البائع أوصاف الشاري .

امتقع وجه أوفيد حين سمع هذه الكلمات وعراه اضطراب ظاهر . . فقالت أماندا :

ـ ما هذا الاضطراب؟ أمريض أنت؟

فضبط أعصابه بجهد كبير وقال :

ـ كلاّ . . ولكن هذه القصة المحزنة هدّت أعصابي .

ثم قال مسترسلاً :

ـ ولكن أي دافع لهذا الكهل المتأنق إلى قتل لوسي؟

ـ هذا ما سوف يكشفه التحقيق . . ولكن الشيء الغريب أن هذا الكهل اشترى الخنجر في الساعة نفسها التي كنت أنت فيها تنتظرني في المركبة عند باب لوسي فلا شك أنك رأيته .

فقال أوفيد بصوت هادئ :

ـ كان ينبغي أن أراه . . ولكنني لم أكن ملقياً بالاً إلى باب الحانوت .

وكانت أماندا ترقبه بدقة وهو يقول ذلك . . ولم يخف عليها أن عينيه كانتا ترسلان وميضاً من الخوف .

وعاد أوفيد يقول :

ـ وهل ترجو الشرطة أن توفّق إلى اعتقال هذا الكهل؟

ـ طبعاً . . والتحقيق يتقدم من يوم إلى آخر . . ولكن لِمَ أراك شديد الاهتمام بأمر هذا الكهل !؟ أتراك تعرف شخصاً تنطبقَ عليه هذه الأوصاف؟

كان هذا التلميح أوضح من أن يحتاج إلى تفسير . . لقد أدرك أوفيد على الفور أن أماندا ترتاب في أمره . . وأنها تعتقد أنه هو الذي ابتاع المدية حين كان في انتظارها على قيد خطوات من حانوت بائع الأسلحة .

وقال أوفيد :

ـ فلندع هذا الحديث جانباً وأعيريني سمعك لأروي لك ما شهدت من غرائب وعجائب في أثناء رحلتي .

ـ وماذا رأيت؟

ـ لقد جمعت نماذج من خطوط بعض المشاهير من الأحياء .

ـ حقاً؟ ومن أي الدول؟

ـ من فرنسا . . ومن جواني بالذات .

ـ ونظر إليها أوفيد متفرّساً فرآها ترتعد .

وقالت تسأله متظاهرة بعدم الاكتراث :

ـ أهي بلدة جميلة؟

ـ نعم . . وقد تعرفت فيها بصاحبة حانوت للثياب فزوّدتني بأنموذج خطي نقدتها ثمناً له ألف فرنك .

شحب وجه أماندا وأخذتها رعدة شاملة . . . فقال أوفيد مسترسلاً كمن يروي حكاية ظريفة :

ـ وهذا الأنموذج مذيّل بتوقيع فتاة تدعى أماندا ريجامي . . أليس هذا هو اسمك؟

ولم يعد ثمة مجال للمراوغة أو الإنكار .

قالت أماندا وهي ترتعد :

ـ ولم تسألني ما دمت تعلم كل شيء؟

ـ وما الذي يخيفك من ذلك !؟ لقد علمت بالأمر مصادفة . . ولما كنت لك صديقاً مخلصاً فقد بادرت إلى دفع دينك واسترداد الإقرار حتى أردّ عنك العار .

فقالت الفتاة :

ـ شكراً . . لقد اقترفت هذه الفعلة في ساعة طيش وجنون . . ولكن أين الإقرار؟

ـ في خزانتي . . إني أحتفظ به .

ـ ألا تنوي أن تعيده إليّ؟

ـ كلاّ . . فإني أحب كما قلت لك أن أحتفظ بنماذج الخطوط .

فقالت بغضب :

ـ دع المراوغة جانباً يا بارون . . إن لك غرضاً خفيّاً من وراء الاحتفاظ بالإقرار الذي كتبته أعترف فيه على نفسي بالسرقة . .

فما هو هذا الغرض الخفي؟ أتريد أن تشهّر بي وترميني في السجن؟

فقال باسماً :

ـ إنني أحبك . . ومحال أن يخطر ببالي أن أسيء إليك .

ـ إذاً؟

ـ كل ما في الأمر أن التجارب علّمتني أن أحذر النساء . . ولهذا سأحتفظ بهذا الإقرار ليكون في يدي سلاحاً أستعمله حين تدعو الحاجة .

ـ إذاً فقد أصبحتُ خاضعة لإرادتك!

ـ وهل في هذا ما يضيرك؟

فقالت تسأله بعد برهة :

ـ كيف علمت بهذا الإقرار؟

ـ مصادفة واتفاقاً .

فقالت بلهجة ذات مغزى :

ـ وكذلك ابتاع المعتدي على لوسي المدية من الحانوت القائم تحت بيتها . . مصادفة واتفاقاً!

وعند هذا التعريض لم يعد لدى أوفيد شك في أنها تعرف أنه هو المعتدي فقال :

ـ مهما يكن من الأمر فإن المعتدي على لوسي لن يساق إلى السجن فإن لديه سلاحاً يرد به عن نفسه كيد خصومه!

وحين همّ بالانصراف قالت له:

ـ ما هو عنوانك فقد يدعوني الأمر إلى الكتابة إليك؟

ـ حاذري أن تكتبي إليّ.. فإن لي زوجة وأولاداً!

وحين خلت أماندا بنفسها قالت:

ـ إن البارون يعلم علم اليقين أنني أرتاب في أمره.. ولكن كيف أشي به وفي يده هذا الإقرار يتوعدني به في كل لحظة!؟

ولكن ما هو سره؟ ولم حاول أن يقتل لوسي؟

ينبغي من الآن فصاعداً أن أترصّد خطواته وأعرف عنوانه.. وعند ذلك يهون عليّ اكتشاف سره.

ذهب أوفيد سوليفر إلى مقابلة جاك جارود وأطلعه على الورقة التي انتزعها من السجل وقال:

ـ لم يعد هناك شك في أن لوسي الخياطة هي ابنة جان فورتييه.

فقال جاك:

ـ ومع ذلك فينبغي الاستيثاق من الأمر إلى غايته القصوى قبل أن نقدم على أي عمل.

ـ سأذهب إذاً إلى الملجإ وأسأل عن الطفلة التي أودعت فيه يوم ٦ نيسان/ أبريل من عام ١٨٦٢ وما كان مصيرها بعد ذلك.. ولكن أخبرني متى يعود لوسيان من رحلته؟

ـ بعد أربعة أيام أو خمسة.

وفي الساعة الخامسة مساء عاد أوفيد إلى مقابلة جاك جارود وقال له:

ـ لقد ذهبت إلى الملجإ واطّلعت على السجلاّت .

ـ وماذا عرفت؟

ـ عرفت أن لوسي الخياطة هي ابنة جان فورتييه .

فقال جاك بابتهاج :

ـ الآن يمكن أن نضرب الضربة القاضية . . وسنرى إذا كان لوسيان لابرو سيرضى بأن يتزوج ابنة المرأة التي قتلت أباه؟

ـ ٩ ـ

بعد أربعة أيام كانت في باريس فتاتان تنتظران عودة رجل واحد . . وكل واحدة منهما تعتقد أنه يحبها وأنه لن يتزوج سواها .

أمّا هاتان الفتاتان فهما لوسي وماري هرمان . . وأمّا الرجل فلوسيان لابرو العائد من رحلته إلى بلغراد .

استقبلته لوسي وقد تندت عيناها بالعبرات . . فقال وهو يضمها إلى صدره :

ـ ربّاه ! إنها كانت وشيكة بأن تكون فجيعة ساحقة . . لو أنني تلقّيت يوماً برقية تنبئني بموتك ! لو أن هذا حدث لمت حزناً !

فضحكت وقالت :

ـ فلندع هذه التقوّلات . . وحسبك أن تراني أمامك على أتم صحة !

ـ ولكن كيف وقع لك هذا الحادث؟

وراحت تروي له تفاصيل الاعتداء الذي كادت تذهب ضحيته .

وفي صباح اليوم التالي مضى لوسيان إلى المصنع فاستقبله جاك مرحباً وقال له :

- إني سعيد بأن انتدبتك لهذه المهمة فقد أحسنت أداءها . . وجاءتني من أصدقائي من رجال الأعمال رسائل كثيرة يطرونك فيها .

وبعد أن روى له لوسيان نتائج رحلته قال :

- ولكن أخبرني أولاً يا سيدي . . كيف حال الآنسة ماري؟

- مسكينة . . لقد اشتدّت وطأة الداء عليها .

- ولكني أرجو ألاّ يكون الأمر خطيراً !

- إنك ستراها الليلة فأنت مدعو لتناول العشاء عندنا . . والمسكينة متلهفة إلى لقائك ولا حديث لها إلاّ عنك .

وفي المساء مضى لوسيان إلى منزل جاك جارود .

كانت ماري جالسة في صدر القاعة . . فلمّا رأته مقبلاً همّت واقفة . . ولكنها ما لبثت أن توجعت وتهاوت على مقعدها منهوكة القوى وقد شحب وجهها .

أسرع إليها أبوها جزعاً فقالت :

- إني أحس إعياء خفيفاً يا أبتاه . . ولكنه قد زال . . ما كدت أرى لوسيان حتى تبدّدت أوجاعي . . فإن حبي له يطغى على آلامي .

فقال لوسيان :

- وأنا سعيد برؤيتك يا آنستي .

- أتقول حقاً؟

- بكل تأكيد !

فأشرق وجهها وانفرجت أساريرها . . وقالت :

- لم إذاً لا تزورنا كل يوم؟ إنه ليسرّني أن أدعوك لتناول العشاء

معنا كل ليلة .

فاشتدّ ارتباك لوسيان وقال :

ـ إنك يا آنستي تطوقين عنقي بأفضالك !

فظنت هذا القول منه قبولاً ولكنه ما لبث أن أردف :

ـ إنَّ أعمالي تشغل كل وقتي يا آنستي فهلاّ أعفيتني من . . .

فقاطعته بقولها :

ـ ستزورنا في عطلة أيام الآحاد . . وأرجو أن تزورنا أيضاً في هذه الأيام .

ونظرت إليه نظرة ذات معنى . . فأدرك أنها تشير بذلك إلى زيارته للوسي أيام الآحاد فقال :

ـ ولكن لي أصدقاء يا آنستي لا يتسنى لي أن أزورهم إلاّ في أيام الآحاد !

طغى اليأس على قلبها واشتعلت نيران حقدها على غريمتها وقالت :

ـ فأنت تردني خائبة إذاً !

فتدخّل أبوها في الأمر بقوله :

ـ إن من الإنصاف يا ابنتي أن ندع له يوماً من أيام الأسبوع يكون فيه مطلق الحرية يفعل ما يشاء .

فقالت بيأس :

ـ أصبت يا أبتاه ! والآن قد عرفت أنني أسرفت في مطالبي . . وما كان ينبغي أن أمنّي النفس بتحقيق هذه الأحلام .

ولاذت بالصمت . . وسرت في وجهها سحابة من الاكتئاب .

وشعر لوسيان بالرثاء لها :

وحين غادر البيت عقب العشاء أحس كأن وقراً ثقيلاً انزاح عن كتفيه وراح يقول لنفسه :

ـ مسكينة هذه الفتاة . . إنها لن تعيش طويلاً . . ومن القسوة أن أدعها تموت معذبة ! ولكن كيف أخادعها فأزعم لها أني أحبها . . على حين أني أحب سواها؟ !

أما ماري فالتفتت إلى أبيها عقب انصراف لوسيان وقالت بمرارة ويأس :

ـ أبت . . أرأيت أنه لم يحبني بعد !

ـ وكيف يا ابنتي؟ ألم يقبل بأن يتناول العشاء هنا كل ليلة؟

ـ ولكنه قبل الدعوة مُكرهاً .

ثم هتفت بيأس شديد :

ـ أبت . . لقد طال انتظاري . . وطال عذابي . . ولا بد أن أجد وسيلة أقطع بها الشك باليقين . . نعم . . يجب أن أفعل شيئاً .

وارتاع جاك لما كان يبدو عليها من انفعال شديد وهي تنطق بهذه الكلمات وقال :

ـ ابنتي . . تريّثي . . إن لوسيان سيتزوجك حتماً . . وثقي بما أقول .

ولكنها نهضت فجأة وغادرت الغرفة ولاذت بمخدعها .

غير أن النوم لم يطرق جفنيها لحظة واحدة .

وكذلك بات جاك أرقاً لا ينام . . لقد خطر له أن ابنته تفكر في الانتحار . . وأن هذا ما كانت تعنيه حين قالت إنه ينبغي أن تعمل شيئاً ما .

في صباح اليوم التالي دعا جاك جارود مدير مصنعه لوسيان لابرو إلى مكتبه وقال له :

ـ ينبغي أن أقدّم إليك الشكر على تلطّفك مع ماري بالأمس . . ولكن خبرني ما رأيك في صحتها؟

فقال لوسيان :

ـ إنني أرى يا سيدي أنها بحاجة إلى عناية مضاعفة .

فهز الأب المسكين رأسه بيأس وقال :

ـ إذاً فقد صدق الأطباء . . إن ابنتي في خطر يا لوسيان . . إنها مقضيّ عليها بالموت ! ويأسها من غرامك يضاعف علتها . . ولا سبيل إلى إنقاذها من الموت إلاّ بالزواج منك !

فقال لوسيان بارتباك :

ـ بالزواج مني !

ـ نعم . . إن حياتها رهينة بكلمة تخرج من بين شفتيك . . إني أهبك ثروتي كلها لكي تنقذ حياة ابنتي !

فقال لوسيان بلهجة المتوجّع :

ـ سيدي . . إني أقدّر موقفك الأليم . . ولكني أرجوك أن تدرك أنني أتعذب مذ عرفت أن الآنسة ماري تحبني ! ولكن كيف يسعني أن أتخلى عن حبي للوسي !؟ لو أنك في موقفي هذا يا سيدي أكنت ترضى أن تحنث بعهدك؟

فقال جاك بمرارة :

ـ لا تسلني رأيي يا لوسيان . . إنه ليس إلاّ رأي رجل يرى ابنته على شفا الموت فلا يبالي بما يقول أو يفعل في سبيل إنقاذها من الموت ! إنني أراها كل يوم تذبل أمام عينيّ كالزهرة المسكينة ولا أستطيع أن أمدّ يداً لإنقاذها ولو كان في بذل حياتي أو دمائي ما ينجّيها لبذلتها في غير تردد . . إنني أحدثك يا لوسيان بلهفة الرجل

الذي يعلم أن موت ابنته إنما هو بمثابة موته هو نفسه .

ولبث لوسيان صامتاً لا يجيب فقال جاك :

ـ فأنت مصرّ على الزواج بلوسي إذاً؟

ـ ولا يسعني أن أتراجع يا سيدي .

فقال جاك بصرامة :

ـ إذاً دعني أكاشفك بأمر أعلم أنه سينال منك . . ولكنك أنت الذي دفعتني إلى هذا الموقف ! زواجك من لوسي خليق أن يلوث شرفك ويجعل اسمك مضغة في الأفواه .

فقطّب لوسيان جبينه وقال :

ـ ماذا تعني يا سيدي؟ يُخيل إلي أنك تهين الفتاة التي أحبها !

ـ بل هي التي تهينك حين تتقدم إليك بحبها !

ـ سيدي !

ـ أتعلم من هي تلك الفتاة التي تنوي أن تسبغ عليها اسمك الطاهر الشريف؟

ـ إنها فتاة طاهرة شريفة .

ـ أخطأت يا لوسيان !

فانبعث الفتى واقفاً وقد احمرّ وجهه غضباً وصاح :

ـ سيدي ! أرجوك أن لا تهين زوجتي أكثر من ذلك .

ـ إنها لقيطة ربيت في الملاجئ لا تعرف لها أباً أو أماً .

ـ هذا الخبر ليس جديداً علي يا سيدي . . ! ومع ذلك فالعار إنما يلحق أبويها !

ـ هذا قول لا يأخذ به إلاّ الشعراء وأصحاب الخيال . . ومع ذلك فهل علمت ابنة من هذه الفتاة؟

ـ ابنة من؟

فقال جاك جارود بهدوء :

ـ ابنة المرأة التي قتلت أباك . . ابنة جان فورتييه !

حملق لوسيان في جاك جارود كالمذهول . . وإذ وعى معنى كلماته انطلقت من فمه صرخة يأس داوية . . ثم هوى على الأرض مغمياً عليه .

بينما كان هذا الحديث يدور بين بول هرمان ولوسيان لابرو . . كانت ماري هرمان في دار لوسي تتحدث إليها .

قالت :

ـ ألك دخل غير ما يأتيك من خياطة الثياب؟

ـ كلاّ .

ـ هل تريدين أن أدفع إليك بثروة كبيرة تغنيك عن العمل؟

فقالت لوسي في دهش :

ـ ماذا تعنين يا سيدتي؟

ـ أتحبين أن أتحدث إليك بصراحة؟

ـ بلا ريب .

ـ سأعطيك ربع مليون فرنك . . بل أكثر من ذلك إذا شئت !

فاشتد استغراب لوسي وقالت في نفسها :

ـ ماذا دهاها ! أتراها جُنّت؟

ثم رفعت صوتها وقالت :

ـ ولكن لم هذا العطاء السخيّ يا سيدتي؟

ـ لكي تبرحي فرنسا فوراً على أن لا تعودي إليها !

ـ عجباً! إنني لا أدرك ما تعنين!

وساد الصمت برهة ثم قالت ماري:

ـ إنني أحب لوسيان لابرو.. وأريد أن أتزوجه.. فارحلي عن هذه البلاد وخذي من المال ما شئت!.. لقد سلبتني الهناء.. ويكاد المرض يقتلني! أمّا إن تزوجت لوسيان فقد أصبح أسعد النساء!

هبت لوسي واقفة وقالت:

ـ إذاً فهذا سبب غضبك عليّ.. وقد كنت أُسائل نفسي عن سره فلا أتبيّنه! سيدتي.. أتحسبين أنَّني خليقة أن أرضى بهذه المساومة!؟

ـ ولم لا ترضين؟ أتريدين أن أضاعف المبلغ؟ إنني على استعداد.

فقالت لوسي بأنفة وكبرياء:

ـ إنني أرفض يا سيدتي حتى ولو منحتني الملايين التي لا تحصى.. أتعرفين السبب؟ إذاً فاعلمي أنني أحب لوسيان.. وأن الحب ليس سلعة تقدّر بالمال! إنني أحبه وهو يحبني. فلندع له إذاً حق الاختيار! وبعد.. فأظن أن الحديث قد انتهى وأن في وسعك أن تنصرفي.

ولكن ماري لم تنصرف؟

تلك الفتاة المتكبّرة المتعجرفة نسيت في هذه اللحظة كبرياءها وعجرفتها.

جثت على ركبتيها أمام لوسي.. وبسطت لها ذراعيها وقالت بصوت مختنق وعبراتها تجري على وجنتيها:

ـ لوسي.. ألا ترين أنني أتعذّب!؟ ألا ترين أنني أذوي وأموت!؟ إن يأس الحب هو الذي يقتلني.. فدعيني أضرع إليك جاثية وألتمس منك أن تهبيني الحياة. إنك إن رفضت فقد قضيت عليّ بالموت!

وأخذت لوسي بيد الفتاة وقد أدركتها الشفقة عليها وقالت :

ـ سيدتي . . انهضي . . إن قلبي يتقطّع حسرات لأجلك . . ولكن لا يسعني أن أفعل شيئاً . . إن القلوب ليست سلعة تباع وتشرى !

فاتقدت عينا ماري غضباً وصاحت :

ـ إذاً فأنت ترفضين؟

ـ أرفض وأنا حزينة متوجعة لأجلك !

فصاحت ماري بوحشية :

ـ إذاً . . سأنتقم . . ! سأنتقم !

وغادرت الغرفة على عجل !

لم تكد ماري هرمان تنصرف حتى أقبلت جان فورتييه تزور لوسي .

راعها ما رأته في عينيها من أمارات الحزن فقالت لها :

ـ ما بالك يا ابنتي؟

وكان لهذه الكلمة العطوفة هزة عميقة في نفس لوسي . . فما إن سمعتها حتى ترامت بين ذراعيّ جان . . وراحت تبكي كما تبكي طفلة صغيرة محزونة تشعر بدفء صدر الأم الحنون .

وحين سكن روعها قالت :

ـ إنني أتعذب !

وروت لها ما دار بينها وبين ماري هرمان .

ـ ١٠ ـ

أفاق لوسيان لابرو من إغمائه والتفت إلى جاك جارود وقال :

ـ سيدي . . ! إنها تهمة خطيرة تلك التي ألصقتها بلوسي . . فهل

لديك البرهان؟

ـ بلا ريب .

ودفع إليه ورقة السجل المنزوعة التي تثبت أن لوسي هي ابنة جان فورتييه .

اطلع لوسيان على السجل ثم قال :

ـ صدقت . . انها ابنة جان فورتييه !

ـ أي ابنة المرأة التي قتلت أباك !

ـ ولكنني مقتنع ببراءتها !

ـ وهل يعفيك اقتناعك من حكم القضاء وحكم الناس؟

وما يقول عنك الناس إذا عرفوا أنك تزوجت بابنة المرأة التي قتلت أباك؟

فهتف لوسيان بلهجة يائسة :

ـ أصبت . . إن زواجي بها بات مستحيلاً !

ـ أرأيت يا بني أنني أسديتك النصح !

وكان المسكين على حال من اليأس لا يمكن وصفها . . وكان وجهه شاحباً كمن قضى مريضاً شهوراً طويلة .

وقال الأب مسترسلاً :

ـ لقد أنقذتك يا بني من العار الذي كان خليقاً أن يلطخ اسمك مدى الحياة . . ولقاء هذا أسألك أن تنقذ ابنتي من الموت .

ـ ولكني لا أستطيع !

ـ إنني أعلم أنك رجل نبيل . . وقد أنقذتك فكيف لا تنقذ ابنتي؟

ـ سيدي . . إن الأمر ليس هيّناً إلى الدرجة التي تتصوّرها . إنّ هذه الصدمة قاتلة ساحقة . . ولا بد لي من الاعتكاف أياماً أداوي

فيها جرح قلبي .

ـ وابنتي !؟ إن هذا الإعراض منك يقتلها !

ـ أطلعها يا سيدي على السبب حتى تعلم أن ليس في وسعي أن أتزوج لوسي .

ـ ولكن متى تتزوج ابنتي؟

ـ أمهلني يا سيدي ! أمهلني أياماً أتروى فيها وأتدبّر الأمر . . ألا ترى أنني أتعذب !؟

ـ حسناً . . سنصبر إذاً !

ـ أتأذن لي بأن أحتجب عن العمل يومين؟

ـ لك ما تشاء .

وانصرف لوسيان وهو يقول في نفسه :

ـ نعم . . يستحيل أن أتزوج ابنة المرأة التي قتلت أبي !

مسكينة لوسي ! إن هذه الصدمة ستقتلها ! ولكن ما حيلتي !؟ إنني أتعذب ! أتعذب أكثر من عذابها المنتظر !

سار لوسيان هائماً على وجهه في طرقات پاريس . . كان كالمذهول المشدوه لا يدري ما يفعل !

لم يكن هناك شك في أنه عدل عن الزواج من لوسي . . ولكن الصدمة ـ كما قال ـ سحقت قلبه وردته أشبه بالمجانين .

وقادته قدماه إلى المخبز الذي تعمل فيه جان فورتييه . . وإذ رأته وهي جالسة في الردهة أسرعت إليه تقول :

ـ سيد لوسيان . . أأنت في حاجة إليّ؟ ولكن ما هذا الذي يبدو على وجهك من أمارات الانفعال والاضطراب !؟ ماذا؟ ! أتبكي؟ أخبرني بما جرى ! إنك تريد أن تحدثني عن لوسي ! رباه ! كان قلبي

عند الصباح يحدثني بأن هناك نكبة توشك أن تحل بنا مذ زارت الآنسة هرمان لوسي .

فقال باستغراب :

ـ أزارت الآنسة ماري هرمان لوسي اليوم؟

ـ نعم . .

ـ وما السبب؟

فروت له ما حدث . . فقال في هدوء :

ـ إنني ألتمس للآنسة ماري عذراً عن غرامها !

فنظرت إليه جان بارتياب وقالت :

ـ ماذا !؟ أما من كلمة مماثلة عن لوسي !؟ ألا تعلم أن هذه المقابلة كانت عذاباً لها؟

ـ إنها طبعاً جديرة بالعطف !

ـ جديرة بالعطف؟ ! ما هذه الكلمات؟ كأني بعاطفتك نحوها قد فترت ! ألم تعد تحبها؟

ـ ربما .

امتقع وجه جان وصاحت بيأس :

ـ ماذا . . ألم تعد تحب لوسي؟ أنت تهذي؟

ـ هناك حائل يصدني عنها !

ـ ولِمَ لمْ يصدك بالأمس؟

ـ لأني لم أعلمه إلاّ اليوم .

قالت جان بغضب :

ـ إني أعرف مصدر هذه الأكاذيب والمفتريات . . ترى أي أكذوبة ألصقوها بها !

ـ ليست هناك أكاذيب أو مفتريات يا سيدتي . . وإنما حقائق . . حقائق دامغة .

ـ ماذا تعني . . أفصح !؟

ـ يستحيل أن أتزوج لوسي !

ـ ولكن لماذا؟ لماذا؟

ـ لأنها ابنة المرأة التي قتلت أبي !

فصاحت جان فورتييه بيأس وقالت :

ـ ابنة المرأة التي قتلت أباك ! ابنة جان فورتييه !

ـ نعم !

ـ لوسي . . ابنة جان الهاربة من السجن؟

ـ تماماً !

وكاد السر ينطلق من بين شفتيها . . كادت تصيح :

ـ إذاً فلوسي هي ابنتي التي أبحث عنها منذ شهور ! ابنتي إلى جواري ! وعلى قيد خطوة مني وأنا لا أعلم !

ولكنها تماسكت وتجلّدت . . وقالت :

ـ هذا نبأ غريب . . وقد أذهلني . . ولكن أتأخذ الفتاة بجريمة أمها !؟

ـ وهل يسعني أن أفعل غير هذا !؟ ما يقول الناس عني إذا عرفوا أنني تزوجت ابنة تلك التي سفكت دماء أبي !؟

ـ ولكنك تعتقد أنها بريئة .

ـ وهل ينجّيني هذا الاعتقاد من اتهامات الناس؟

قبل أن أتزوج لوسي ينبغي أن أبرهن عن براءة أمها .

ـ سيدتي . . إن لي رجاء عندك . . اذهبي إلى لوسي . . وكاشفيها

بما عرفت مني! قولي لها إن بيننا هوة عميقة يستحيل اجتيازها!

لقد تحطّم قلبي لفراقها! ولكن الشرف يقضي عليّ بذلك!

فقالت جان بمرارة:

ـ إنك تعهد إليّ يا سيدي بمهمة فوق الطاقة.. أتريد مني أن أكاشف لوسي بسر مولدها كأنما لا يكفيها يأس الحب حتى أضيف إليه عار الفضيحة!؟

كلاّ يا سيدي! لا تكل إليّ هذه المهمة أرجوك!

وأولته ظهرها وانصرفت مسرعة والحزن يقطع نياط قلبها.

إذاً فلوسي ابنتها!

لقد حدثها قلبها بهذا.. وهذا الحب الذي تحسه الفتاة إنما بعثه في قلبها نداء الأمومة الخفي.

ولكن ما أفدح النكبة! في أي ظرف أليم اهتدت إلى ابنتها!

إنها بدلاً من أن تضمّها إلى صدرها وتعانقها ستجد نفسها مكرهة على أن تتباعد عنها وتخفي عنها شخصيتها!

بدل أن تقول لها: أنا أمك.. ستضطر أن تصيح: كلاّ.. كلاّ.. إنني لست أمك..

ويا له من عذاب ممضّ يوم تنكر الأم أمومتها!

ـ ١١ ـ

كان أوڤيد سوليفر في خوف دائم من عشيقته أماندا.

عرف أنها ترتاب في أمره وتكاد تؤمن بأنه هو المعتدي على لوسي.. ولكنه كان موقناً من أنها لم تهتد بعد إلى عنوانه وأنها تظن أنه يدعى البارون أرنولد دي ريس.. ولكنه كان يخشى أن

تتعقبه سراً فتكشف أمره .

وقال في نفسه :

ـ ينبغي أن أنتزع منها سرّها وأعرف ما تبطن . . وإلى أي مدى بلغت شكوكها بي . . فلم لا أستعمل إكسير الحقيقة كما استعملته من قبل . . يوم انتزعت من جاك جارود سره .

وإذ عزم على ذلك دعاها إلى قضاء أسبوع على ضفاف السين بالقرب من فونتنبلو .

لبّت أماندا الدعوة فسبقها إلى القرية وحجز لنفسه غرفة في فندق «محلة الصيادين» وسألها أن تلحق به .

وفيما كان يتنزّه في غابة الملك رأى جماعة مستلقين على العشب يتبادلون الحديث .

وكان أحدهم يقول :

ـ وشاءت الأقدار أن نسافر إلى أميركا على باخرة واحدة في عام ١٨٦١ . . وقد تعرفت إذ ذاك بالمخترع الشهير نيومي مورتيمر وابنته وبفرنسي يدعى بول هرمان تزوج الفتاة فيما بعد .

فضحك أحد الحاضرين وقال :

ـ لقد ذكّرتني بما حدث . . فقد سرق أحد اللصوص مالي ولكن بول هرمان رآه فأعاد إليّ المال المسروق .

ـ ولكني لم أسمع بهذا الحادث؟

ـ هذا لأن بول هرمان رجاني أن أعفو عن الرجل إكراماً لأسرته .

وعاد الرجل ـ وهو طبيب ـ يقول :

ـ وعلى هذه الباخرة . . وكان اسمها لوردمير فيما أذكر . . لقيت كندياً حدثني عن دواء معروف باسم «إكسير الحقيقة» إذا شرب منه

الإنسان انطلق يتحدث بكل ما يبطن .

ـ وهل جربته؟

ـ مراراً ونجحت التجربة .

ونظر أوفيد في ساعته فألفى أن موعد القطار قد دنا . . فانطلق إلى المحطة واستقبل أماندا عند قدومها ومضى بها إلى الفندق .

وفي اليوم التالي لزم أوفيد غرفته بحجة الصداع فخرجت أماندا وحدها تتنزّه .

على أنها ما كادت تغادر الفندق حتى بادر إلى زجاجة الشراب فمزج بها قدراً من هذا السائل الهندي العجيب المعروف باسم إكسير الحقيقة .

وفيما كانت أماندا راجعة إلى الفندق رأت حشداً من الناس يزحمون الطريق . . فاقتربت من القوم فرأت شاباً ممدّداً على الأرض والدماء تنزف منه وقيل لها إن سيارة صدمته .

ما كادت أماندا تتأمل وجه المصاب حتى هتفت باستغراب :

ـ عجباً ! دشمان !

فقال أحد الحاضرين يسألها :

ـ أتعرفينه؟

فقالت مستدركة :

ـ كلاّ . . إنه شبيه برجل أعرفه !

وجاء الطبيب مسرعاً ففحص المصاب وأمر بنقله إلى الفندق .

أمر أوفيد سوليفر أن يرسل بالطعام إلى غرفته في الفندق . . وجلس إلى المائدة وأماندا قبالته .

وراح يقدم إليها الشراب الممزوج بإكسير الحقيقة .

وما كاد يستقر في جوفها حتى بدأت الأعراض المعهودة تبدو عليها . . ظمأ شديد . . وإعياء . . ثم ضحكات مرتفعة .

وما هي إلاّ لحظات حتى انطلق لسانها وبدأت تعترف بكل ما تبطن .

وعرف أوڤيد أنها عالمة بسره وأنه هو المعتدي على لوسي . . وأن في نيتها أن تتعقّبه وأن تفضح أمره .

وكانت هي تتحدث تتكلم بصوت مرتفع حاد النبرات فصاح بها أوڤيد :

ـ اصمتي . . خفضي من صوتك !

فصرخت :

ـ أنت . . كلاّ . . محال أن أسكت . . يجب أن يعرف الناس جميعاً أنك لص قاتل .

ثم اشتد بها الانفعال فأُصيبت بنوبة عنيفة . . وأخذت تهذي . . ثم تضحك ثم اختنق صوتها . . ولم تعد الكلمات تخرج من حلقها .

وفجأة هوت إلى الأرض غائبة عن الصواب .

أسرع إليها أوڤيد فجس يدها فوجدها باردة مثلجة ونبضها ضعيفاً فأدركه الخوف وخشي أن يكون الإكسير قد قتلها .

أفرغ في الحوض ما بقي من زجاجة الشراب وفتح باب الغرفة فألفى صاحبة الفندق على قيد خطوات تتحدث إلى رجل كهل .

وقال أوڤيد يسألها :

ـ أريد طبيباً . . لقد أغمي على صديقتي .

فتقدم الكهل الذي كان يتحدث إلى صاحبة الفندق وقال :

ـ إنني طبيب يا سيدي . . وقد جئت إلى الفندق لأعالج جريحاً .

ـ أرجوك أن تفحصها إذاً !

فحص الطبيب أماندا وسقاها دواء أخرجه من حقيبته . .

ثم التفت إلى أوفيد وقال :

ـ لو أنني تأخرت ربع ساعة لماتت هذه المرأة ! ولكن أخبرني . . لم سقيتها من إكسير الحقيقة؟

فقال أوفيد مراوغاً :

ـ إكسير الحقيقة !؟

ـ دعك من الإنكار ! لا ريب أنك أردت أن تنتزع أسرار هذه المرأة . . ولكنك تجاوزت المقدار فكدت تقتلها .

ـ إنني فعلت هذا يا سيدي . . لأسباب خطيرة .

ـ ليس من شأني أن أبحث الأسباب !! لولاي لكنت الآن مسوقاً إلى السجن ! إنني لن أبلغ الشرطة على شرط أن تعدني بأن لا تعود إلى هذه الفعلة مرة أخرى .

ـ أعدك بذلك يا سيدي .

وانصرف الطبيب بعد أن وعد بالعودة مرة أخرى في المساء .

أبت جان فورتييه أن تكاشف ابنتها لوسي بأن لوسيان هجرها . . إذ لم يطاوعها قلبها على تحطيم فؤاد ابنتها .

ولكن جاء يوم الأحد . . ولم يحضر لوسيان إلى زيارتها كالمعتاد .

دبت الشكوك إلى قلب لوسي . . وبدأ الحزن يطغى عليها . .

وحاولت جان أن تسري عنها . . ولكن الفتاة كانت متوجسة . . جعلت تقول :

ـ لا ريب أنهم أغروه بالمال على هجري . . ما يدريني أنهم عرضوا عليه ربع مليون أو نصف مليون كما عرضوا عليّ لقاء أن

يتخلى عني؟ !

وتتابعت ساعات النهار وهي في الانتظار . . تارة تثبُ إلى النافذة وتأخذ الطريق بعينيها ! . .وتارة ترتمي على فراشها وتسلم نفسها إلى البكاء .

وهبط الليل . . ولم تطق المسكينة صبراً . . قالت :

ـ إني ذاهبة إلى داره لأرى ما صرفه عني !

ولقيها البواب بقوله :

ـ إن السيد لوسيان لابرو مسافر منذ يومين .

ـ سافر ! ألا تعلم وجهته؟

ـ كلاّ .

ـ ومتى يعود؟

ـ لا أدري !

عادت لوسي وقد أدهشها هذا السفر الفجائي وأثار مخاوفها .

على أنها ما إن ابتعدت خطوات حتى لمحت عيناها نافذة لوسيان . . رأت الضوء ينبعث منها . . إنه لم يسافر إذاً !

ورجعت إلى البواب غاضبة ثائرة .

وقال الرجل يدافع عن نفسه :

ـ إنه هو الذي أمرني بأن أنبئك أنه مسافر إذا سألت عنه !

ـ هو الذي أمرك بذلك؟

ـ نعم . . وقد وصفك لي . . ألست أنت الآنسة لوسي؟

وما كانت لوسي في حاجة إلى المزيد .

رجعت إلى غرفتها وهي تبكي بكاء مراً . . ترامت على صدر جان وجعلت تقول :

ـ لقد هجرني . لقد تخلّى عني !

وروت لها ما كان من أمرها مع البواب .

وهتفت بصوت مختنق :

ـ والآن ما قيمة الحياة بعد أن هجرني !؟ إن الموت عندي أعذب من الحياة .

وراحت جان تسري عنها بكلماتها . . وحنانها . . والمسكينة تبكي بكاء مراً ملحاً . . وصاحت :

ـ لا بدّ لي من مقابلته . . ينبغي أن أعلم السر في هجره لي !

ـ لا داعي لذلك يا ابنتي . . إنّ علمك بالحقيقة قد يضاعف من عذابك .

ـ ما هذا الذي تقولين !؟ أتراك تعرفين شيئاً؟

ـ كلاّ يا ابنتي . . إني لا أعرف شيئاً .

ـ ولكن لماذا هجرني؟ لأني لقيطة ! لأني فقيرة ! ولكنه كان يعرف ذلك من قبل ! لا بد أن أذهب إليه . . إني ذاهبة إليه فوراً . . وسأرغمه على أن يكاشفني بكل شيء !

وحاولت جان أن تثني ابنتها عن الذهاب . . فقالت :

ـ إن لوسيان يحبك . . وما خانك . . ولكن زواجكما مستحيل .

ـ مستحيل !؟ ولماذا؟ لا ريب أنك تعرفين شيئاً . . تكلّمي ! أكان أبي لصاً ! أو قاتلاً؟

فصاحت جان :

ـ لا تهيني أباك يا ابنتي فقد كان من أشرف الرجال !

ـ أتكون أمي إذاً هي أصل البلاء؟

ولاذت جان بالصمت . . لم يكن في وسعها أن تقول :

ـ نعم . . إن أمك هي سبب البلاء . . وإن كانت بريئة شريفة . . وأنا هذه الأم التي سحقت فؤادك .

ـ تكلّمي . . ما بالك ساكتة !؟ لماذا هجرني لوسيان !؟ إني أكاد أجن .

وكانت المسكينة أشبه بالمجانين .

وصاحت :

ـ إذا عرفت السبب هانت عليّ نكبتي والتمست للوسيان عذراً .

وأمام هذا الإلحاح لم تجد جان بدّاً من الكلام . . قالت :

ـ لوسيان لا يستطيع أن يتزوجك . . لأن . .

واستعصى عليها الكلام . . ولكنها ما لبثت أن قالت بصوت مختنق :

ـ لأن أمك هي تلك المرأة المتهمة بقتل أبيه !

فصرخت لوسي صرخة داوية . . وجمدت كالمصعوقة .

وبعد برهة قالت :

ـ إذاً فأمي هي التي قتلت جول لابرو وأحرقت مصنعه؟

ـ أمك بريئة يا ابنتي فلا تدنسي إيمانك بها !

ـ ولكنهم أدانوها !

ـ ظلماً ! أنسيت أن لوسيان نفسه يعتقد أنها بريئة؟

ـ ما دام هذا هو اعتقاده فلماذا هجرني؟

ـ لأن حكم الناس وحكم القضاء أقوى من اقتناعه !

ـ أكنت تعرفين أمي يا سيدتي؟

ـ إنها من أشرف النساء يا ابنتي .

ـ وهل هي بريئة؟

ـ إنها بريئة فلا تلعنيها !

ـ لست ألعنها ! إنني أطلب لها الرحمة ! ولكن كيف يسعني أن أنسى أنها كانت مصدر عذابي !

ـ وهي يا ابنتي ! ألم تتعذب هي أيضاً؟ حرمت منك ومن أخيك !

ـ أكان لي أخ يا سيدتي؟

ـ نعم . . ولا يدري أحد مصيره الآن . . وقد هربت أمك من السجن لا لتنعم بالحرية وإنما لتبحث عنك وعنه .

وظلت جان تتحدث إلى لوسي وتحاول أن تسري عنها حتى سكن روعها فلاذت بسريرها واستغرقت في النوم .

وفي تلك الليلة لم يغمض لجان فورتييه جفن .

ظلت طول الليل تبكي وتتعذب كما لم تتعذب أم من قبل !

ـ ١٢ ـ

في ذات يوم ذهب المصور إتيين كاستل يزور صديقه المهندس لوسيان لابرو فألفاه نحيلاً بادي الحزن فقال له :

ـ ما لي أراك يا صديقي حزيناً مهموماً وقد كان ينبغي أن تكون فرحاً؟ لقد زارتني ماري هرمان وأنبأتني أن أباها ينوي أن يتخذك شريكاً .

فقال لوسيان بأسى :

ـ إنك لم تعلم يا صديقي بالنكبة التي حلت بي ولو أنك علمت بها لما طرحت عليّ هذا السؤال !

ـ أية نكبة؟

ـ لقد انقطع ما بيني وبين لوسي!
ـ كيف هذا؟ ما السبب!؟ كنت أعرف أنك هائم بها!
فروى له لوسيان نبأ ما عرف من أنها ابنة قاتلة أبيه.
فقال المصور إتيين كاستل:
ـ ومن قدم إليك ورقة السجل؟
ـ السيد بول هرمان.
فبدت الدهشة على وجه المصور وقال:
ـ وكيف أتى بها؟ أعني كيف توقع أن تكون لوسي هي ابنة جان فورتييه فبحث عن السجل وأتاك به!؟ أتراه كان يعرف جان في شبابه فرأى ما بين لوسي وجان من تشابه؟
ـ لا أدري فالبحث في هذا ليس من شأني.
فقال إتيين:
ـ ولكنه من شأني.. خبرني.. ما هي الآلة التي كان أبوك مشتغلاً في صنعها قبل أن يقتل؟
ـ آلة لصقل الأجسام المقعرة غير المستوية..
ـ إنها إذاً شبيهة بالآلة التي اخترعها بول هرمان وكانت سبباً في ثرائه!
ـ أظن ذلك.
وحين رجع المصور إلى داره أخرج من خزانته غلافاً كبيراً فضّه وراح يقرأ ما فيه من مذكرات.
وكانت كلها تدور حول مأساة المصنع المحترق.
وإذ فرغ من تلاوتها قال وهو يهز رأسه:
ـ يخيل إليّ أنني عرفت من هو جاك جارود.. ولكن لا بد من

الدليل أولاً . . نعم . . لا بد من الدليل!

والآن خطوة إلى الوراء . .

حين أفاقت أماندا من إغمائها عجبت لما كانت تحسه من الإعياء والتراخي وتحوّلت إلى البارون أرنولد دي ريس (أي أوفيد) تسأله عن الأمر فقال لها :

ـ إنك أصبت عقب العشاء بضربة تشنجية حادة كادت تقضي عليك لولا أن بادرت إلى استدعاء الطبيب .

فقالت الفتاة :

ـ هذا عجيب . . فأنا لا أذكر شيئاً من هذا! ولكن كيف أصابتني هذه النوبة بغتة دون مقدمات .

وقبل أن يجيبها على سؤالها قُرع الباب ودخل الطبيب .

أقبل على أماندا يفحصها ثم قال :

ـ إنك الآن أحسن حالاً يا سيدتي وقد زالت نوبة الخطر . .

ـ ولكن كيف يمكن أيها الطبيب أن أصاب فجأة بهذه النوبة؟

فسكت الطبيب هنيهة ثم قال :

ـ سلي البارون فهو أقدر مني على الإجابة عن هذا السؤال . .

وحين خلت أماندا إلى نفسها واستعادت كلمات الطبيب قالت :

ـ كأني بهذه الكلمات تطوي سراً غامضاً . . لا شك أن البارون دس لي سمّاً في الشراب . .!

وأسرعت إلى زجاجة الشراب لكي تفحصها ولكنها وجدتها فارغة ليست بها قطرة واحدة . . فقالت في نفسها :

ـ الآن فهمت! . . أنا لم أشرب من هذه الزجاجة إلاّ كأسين . . ولكنه أفرغ ما فيها حتى لا ينكشف أمره! . . لا شك أنه مزج بها

سماً! فلم أراد أن يقتلني . .؟

في ذلك المساء غادر أوفيد الفندق وسار على شاطئ النهر يتنزّه . . على حين لزمت أماندا غرفتها إذ كانت لم ترتد ثيابها بعد .

وكان الهواء شديداً فأطار قبعة عجوز من المتنزّهين فأسرع أوفيد في أثر القبعة وحملها إلى صاحبها .

وقال الشيخ العجوز يشكره :

ـ أشكرك كثيراً يا سيدي! . . إنني . .

ولكنه أمسك بغتة عن الكلام! . .

حملق في وجه أوفيد وصاح :

ـ أنت هنا! . . إنني أعرفك .

فقال أوفيد باستغراب :

ـ يؤسفني يا سيدي أنني لا أذكر من أمر تعارفنا شيئاً!

ـ كيف هذا؟ أنسيت رينيه بوسك الذي سرقت أمواله على متن الباخرة لوردمير؟

فزع أوفيد إذ سمع هذه الكلمات ولم ينتظر لحظة واحدة وإنما انطلق راجعاً إلى الفندق وقد أخذه الخوف .

لزم أوفيد غرفته في ذلك المساء وأخذ يتسلى بقراءة الصحف إذ كانت أماندا قد هبطت إلى الحديقة تتريّض .

وفيما هي جالسة انتهت إلى أذنيها أصوات قريبة .

سمعت رجلاً يقول : «والتقط الرجل قبعتي وقدّمها إليّ . . فلمّا تبيّنت وجهه عرفت أنه من أكبر المجرمين» .

فقال صوت آخر تبينت فيه أماندا صوت الطبيب الذي تولى علاجها :

ـ إنه مقيم في فندق «محلة الصيادين» وهو يدعى البارون أرنولد دي ريس .

ـ البارون أرنولد دي ريس ! هذا اسم منتحل ! إنه مجرم يدعى أوفيد سوليفر ! وهو الذي ذكرت لكم بالأمس أنه سرق مالي ولولا شفاعة بول هرمان فيه لكان الآن في السجن .

فقال الطبيب :

ـ لقد كاد يصبح بالأمس قاتلاً . . فقد مزج بشراب صديقته قدراً من ذلك السائل الهندي العجيب الذي يرغم المرء على الإباحة بأسراره . . ولكن القدر كان أكثر مما ينبغي فكاد يقتلها !

وفيما كان هذا الحديث يدور بين الصديقين كانت أماندا جالسة على كثب وقد حجبتها الأشجار تنصت إلى كل كلمة بانتباه .

وقالت لنفسها :

ـ الآن عرفت السر ! إنه يدعى أوفيد سوليفر . . والسيد بول هرمان يرعاه ويبسط عليه حمايته !

وقد حاول أن يقتل لوسي التي تخيط ثياب ابنة بول هرمان .

لا ريب إذاً أن هناك علاقة خفية بين هذا القاتل وبين هرمان . . فما هي هذه العلاقة؟

ذلك ما سوف أهتدي إليه قريباً !

حين رجعت أماندا إلى غرفتها في الفندق وجدت أوفيد في انتظارها . . فقال لها :

ـ إني مسافر إلى باريس لأمر خطير وسأعود بعد يومين .

ـ ومتى تسافر؟

ـ الآن فوراً .

ثم قبّلها وغادر الغرفة بعد أن حمل معه حقيبته .

دقت أماندا الجرس وقالت للخادمة التي لبّت النداء :

ـ أحب أن أقابل المصاب الذي صدمته السيارة على أن تكون هذه المقابلة سراً لا يعلم بها أحد .

ونفحتها بمبلغ من المال فقالت الخادمة :

ـ سأتدبر الأمر فاطمئني .

لم يكن ذلك المصاب الذي صدمته السيارة إلاّ راؤول دشمان الموظف في دار العمدية في بلدة جواني . . والذي نزع من السجلات الورقة الخاصة بابنة جان فورتييه وباعها إلى أوڤيد سوليفر لقاء وفاء ديونه .

وقد برت الخادمة بوعدها فدبرت أمر اللقاء السري بين أماندا ودشمان .

وحين دخلت عليه أماندا تولاّه الذهول وهتف :

ـ أماندا ! أنت هنا !؟

فأخذت بيده وراحت تتحدث إليه برفق وهو طريح الفراش لا يقوى على الحركة . . ثم قالت :

ـ لقد جئت أباحثك في أمر خطير يا راؤول .

ـ أي أمر يا ترى؟

ـ أتعرف البارون أرنولد دي ريس . . أعني ذلك الرجل الذي كان في جواني منذ شهر وأخذ من بائعة الثياب الإقرار الذي اعترفت فيه بفعلتي؟

فقال راؤول :

ـ تبّاً له . . أفعل هذا !؟ إنه أخذ أيضاً من تاجر الخمور السندين

اللذين زوّرتهما .

ـ إنه عدو لنا يا راؤول وفي نيته أن يوقع بنا .

وراحت تروي له ما عرفته من أمر أوفيد وجرائمه واسمه الحقيقي .

وقالت :

ـ والآن يجب أن نتكاتف يا راؤول ونعمل على الانتقام منه . . فهل تشاطرني هذه الرغبة؟

ـ من كل قلبي !

ـ إذاً لا بد أن ننتصر . . ومتى شفيت من جرحك شرعنا في مناضلته . . إنه عدو رهيب ولكننا سننتصر .

ـ ١٣ ـ

في ذات يوم وصلت إلى لوسيان لابرو رسالة من المصور إتيين يدعوه فيها إلى تناول الشاي عنده . . فلمّا حضر جلس يتحدث إليه ويقول :

ـ قلت لي مرة إن السيد بول هرمان هو الذي أعطاك ورقة السجل المنزوعة الخاصة بلوسي ابنة جان فورتييه .

ـ هو ذلك .

ـ ألا زالت لديك؟

ـ نعم . .

ـ إذاً أرجوك أن تأتيني بها غداً فإني بحاجة إليها .

ـ إني أراك شديد الاهتمام بهذه المسألة !

ـ هذا لأني بدأت أعتقد أنني عرفت قاتل أبيك .

وصاح لوسيان في دهش :

ـ حقاً ! لو أنك فعلت لكنت مديناً لك مدى الحياة !

ـ اصبر حتى يتحقق الأمر . وبهذه المناسبة نسيت أن أنبئك بأنني دعوت بول هرمان وابنته إلى تناول الشاي معنا الآن أيضاً .

فأجفل لوسيان وقال :

ـ ولم جمعت بيننا وأنا أتحاشى لقاءها؟

ـ إنَّ لي غايةً من ذلك .

وقرع الباب إذ ذاك ودخل بول هرمان وابنته ماري .

وما إن رأت ماري لوسيان حتى تضرجت وجنتاها احمراراً على رغم العلة التي تنخر في صدرها . . وبدا عليها أنها أسعد النساء .

بعد أن فرغ القوم من تناول الشاي قال المصور إتيين :

ـ والآن تعالوا أفرجكم على لوحاتي الأخيرة .

وانتهى بهم المطاف إلى لوحة كبيرة تشغل من الغرفة جداراً كاملاً . . وأزاح المصور الستار عن اللوحة وهو يقول :

ـ هذه اللوحة تمثل حادثة محزنة قديمة وقعت عقب مصرع أبيك يا لوسيان . ومن أشخاص هذه الصورة المرأة التي اتهمت بقتل أبيك .

كان المصور يلقي هذه الكلمات وهو ينظر إلى بول هرمان بانتباه شديد .

واضطرب جاك اضطراباً ظاهراً . . ولكنه ما لبث أن سيطر على أعصابه ببراعة .

وقال المصور مستطرداً :

ـ أمّا هذا الطفل الصغير فهو ابن السيدة داربيه أخت كاهن

البلدة . . وقد أصبح الآن من مشاهير المحامين وأعني به جورج داربيه .

وقال لوسيان :

ـ عجباً . . إن هذه المتهمة بقتل أبي تشبه امرأة أعرفها شبهاً غريباً .

فقال المصور :

ـ أتعني الخياطة لوسي؟

ـ كلاّ . . بل أعني امرأة في الخمسين من العمر هي السيدة ليزا بيرين بائعة الخبز . . وهي من أهالي ألفورتفيل وأنبأتني أنها كانت تعرف أبي .

ـ وأين تقيم هذه المرأة؟

ـ في المنزل نفسه الذي تقيم فيه لوسي . . أعني رقم ٩ شارع بوربون .

وحين خلا المصور إتيين كاستل بنفسه قال :

ـ لقد اشتدت ريبتي بهذا الرجل ! حين وقعت عيناه على اللوحة اضطرب اضطراباً عنيفاً . . وكانت نظراته تنبئ بخوفه . . فهل يكون هو جاك جارود؟ لقد تولّد الشك في نفسي مذ عرفت أنه اخترع آلة صقل . . إذ كانت الرسوم التي سرقت من لابرو خاصة بآلة صقل ! وقد أظهر هذه الآلة في أميركا وعقب مصرع لابرو بشهر واحد ! إنه كان يعرف أن لوسي هي ابنة جان . . فكيف عرف هذا؟

نعم . . يغلب على ظني أنه هو جاك جارود !

ولكن أين الدليل !؟ هذا هو الشيء الذي ينقصني !

بينما كانت هذه الحوادث تتلاحق كانت لوسي فورتييه طريحة

الفراش تعاني حمى شديدة نزلت بها إثر هذه النكبات التي ذهبت ضحيتها .

وقد لزمت جان فورتييه ابنتها وسهرت على تمريضها حتّى زال عنها الخطر واطمأنّت عليها فقالت في نفسها :

ـ والآن ينبغي أن أعيد هذه الأوراق إلى صاحبها .

أمّا هذه الأوراق فملف قضية خاص بالمحامي جورج داربيه عثرت عليه ملقى على قارعة الطريق منذ أيام . . ولكنها لم تستطع أن تمضي به إلى صاحبه إذ اضطرت إلى ملازمة ابنتها .

حملت جان الملف إلى بيت المحامي وقدمته إليه فهمّ بأن يمنحها عطاء ولكنها أبت .

وبدا التردد على وجهها ثم قالت :

ـ سيدي . . أتريد أن تسدي إليّ خدمة لا تنسى !؟

ـ إني رهن إشارتك يا سيدتي .

ـ إن لي صديقة مسكينة . . اضطهدت وطوردت . . دون أن تجني ذنباً . . كل جريرتها أنها ابنة امرأة حكم عليها بالسجن !

ـ وكيف اضطهدت؟

ـ وشى بها أعداؤها إلى صاحبة مشغل الخياطة الذي تعمل فيه وذكروا لها أن أمها مجرمة . . فما كان منها إلاّ أن طردتها من المشغل . . أليس في القانون عقاب على هذا؟

فقال جورج داربيه :

ـ لا أنكر يا سيدتي أن هذا الاضطهاد جريمة شائنة . . ولكن مما يؤسف له أن القانون لا يرى أنها من الجرائم التي تستحق عقاباً . .

ـ إنه قانون أبتر فاسد .

ـ هو ذاك يا سيدتي !

وأحس جورج دارييه بالعطف على هذه المرأة الكريمة الفؤاد التي تنتصر بحرارة لفتاة تعرفها . . وبادلته جان ميله دون أن يخطر لها أنه ابنها . . ودون أن يخطر له أنها أمه !

وفيما هما في هذا الحديث دخل الخادم يقول :

ـ السيد بول هرمان يا سيدي .

ما إن سمعت جان فورتييه هذا الاسم حتى هتفت :

ـ بول هرمان ! إنه يا سيدي سبب هذه النكبة التي حدثتك عنها !

فقال جورج دارييه :

ـ لعلّك كنت تتحدثين عن لوسي خطيبة لوسيان لابرو !؟

ـ تماماً يا سيدي !

ـ إذاً تعالي نتحدث إلى السيد هرمان في الأمر ونرجوه أن يتوسّط لدى السيدة أوغستين لكي تعيدها إلى عملها .

وأخذ بيدها ودخل على بول هرمان وهو يقول :

ـ إن هذه السيدة الطيبة القلب قد جاءتك تتحدث إليك في شأن فتاة مسكينة هي لوسي فورتييه إنها تدعى مدام ليزا بيرين . . وقد عرفت لوسي لأنها تبيعها الخبز .

كان جاك جارود قد سمع بأمر هذه المرأة وهو يتناول الشاي عند المصور إتيين . . وقيل له إنها شديدة الشبه بصورة جان فورتييه .

أرسل إليها بصره فعرفها على الفور . . وحين سمع صوتها لم يعد يخالجه في أنها جان فورتييه .

امتقع وجهه ولكنه تمالك أعصابه وقال :

ـ وماذا تريدين مني يا سيدتي؟

ـ أتوسل إليك أن تنقذ لوسي . . إنها ستموت جوعاً ! . فكلما بحثت عن عمل اتصل أصحابه بالسيدة أوغستين للاستعلام عنها فتقول لهم إن أمها محكوم عليها بالسجن فيوصدون الباب في وجهها .

فقال جاك جارود :

ـ وما شأني أنا إذا كانت أمها قاتلة سفاكة للدماء !؟

فصاحت جان فورتييه :

ـ أليس لديك ما تقوله يا سيدي غير هذا؟ أسألك العون فلا أجد منك غير تجريح هذه المرأة المسكينة التي حكم عليها ظلماً !

وطافت بذهن جاك جارود فكرة طارئة . . قال في نفسه :

ـ إنها لم تعرفني . . ولكني قد عرفتها . . فلم لا أغتنم هذه الفرصة لكي أتخلص منها إلى الأبد ! . .

صاح بها :

ـ إنك تتحدثين يا سيدتي بلهجة فيها من الانفعال والهياج ما يثير الشبهات حتى لكأنك لست صديقة لها ! . وبالأمس رأيت عند صديق لي من المصورين صورة لهذه المجرمة جان فورتييه . . ويمكنني أن أقول إن الشبه بينكما شديد !

اضطربت جان عندما سمعت هذه الكلمات فصاح جاك جارود :

ـ إنك إذاً لست ليزا بيرين ! . أنت جان فورتييه الهاربة من السجن . . لا بد من القبض عليك يا سيدتي . . وسأنادي رجال الشرطة بنفسي .

ولكن جورج داربيه اعترضه بقوله :

ـ لا يمكن أن أسمح بهذا يا سيدي !

ثم تحوّل إلى جان فورتييه وقال :

ـ سيّدتي . . يمكنك أن تنصرفي بسلام ! لن يجرؤ أحد على أن يمسك بسوء ما دمت تحت سقف بيتي .

انطلقت جان تجري وهي تكاد تفقد الوعي . . وحاول بول هرمان أن يلحق بها ولكن جورج دارييه حال دون خروجه وهو يقول :

ـ إن اهتمامك بالقبض عليها يا سيدي قد يثير ريبتي فيك كما أثار ريبتك فيها اهتمامها بالدفاع عن لوسي فورتييه !

وأمام هذه الكلمات رأى بول هرمان من الحكمة أن يكظم هياجه وأن يرجع عن اللحاق بجان فورتييه .

حين رجع بول هرمان إلى داره دعا إليه أوڤيد سوليفر وروى له التطورات الأخيرة التي لم يكن يعلم بها حتى انتهى إلى حديث مقابلته لجان فورتييه . .وكيف حاول أن يقبض عليها لولا أن صده عنها جورج دارييه .

وقال بول هرمان :

ـ ولقد خطر لي أن أبلغ الشرطة عنها ولكني أخشى أن يتشعب التحقيق فينكشف أمري إذ لا بد أن جورج دارييه سيدرك أنني أنا الذي وشيت بها .

ـ وبم تشير إذاً؟

ـ بقتلها . . هذا هو سبيل الخلاص .

فقال أوڤيد :

ـ إني أرى القتل جديراً بأن يثير شبهات أشد وأقوى . . إذ ستجد الشرطة صلة وثيقة بين قتلها ومحاولة اغتيال لوسي ! وإذا انكشفت هذه الصلة كنّا من الهالكين .

ـ إذاً ما الذي ترى؟

ـ سأقتلها ولكن بوسيلة أخرى . . سأدبر الأمر بحيث يبدو موتها كأنه حادث وقع قضاء وقدراً .

ـ أصبت ! هذا هو عين الحكمة .

وأنبأه بعنوانها ووصفها له .

وبعد نصف ساعة غادر أوفيد البيت وقد تفتق ذهنه عن خطة محكمة للقضاء على جان فورتييه .

في تلك الليلة نفسها . . وقبل الفجر بساعة غادر أوفيد داره وقصد إلى شارع بوربون وانزوى في ركن قريب من دار جان فورتييه .

وفي نحو الساعة الخامسة صباحاً رأى امرأة تمر به من الدار تنطبق عليها الأوصاف التي ذكرها جاك جارود . . فانطلق في أثرها . . حتى إذا بلغت المخبز وأخذت زميلاتها ينادينها باسم ليزا أدرك أنها هي جان فورتييه التي يطلبها .

وقد ظل طيلة النهار يتعقب خطواتها من بيت إلى بيت . . ومن شارع إلى شارع حتى عرف الطرقات التي تسلكها .

وفي المساء رجع إلى داره وهو يقول في نفسه :

ـ لا ريب أن موتها أصبح محققاً ! فإذا ما قتلتها لم يعد هناك خطر يتهددنا .

ـ ١٤ ـ

كان المصور إتيين كاستل مجداً في البحث عن قاتل جول لابرو . . فكان كلما وقع على أثر تتبعه حتى يميط اللثام عنه .

وقد أخذ من لوسيان الورقة المنزوعة من السجل وسافر إلى جواني وعرضها على العمدة فقال له هذا :

ـ هذه سرقة . . فمن الذي ارتكبها يا ترى؟ ! لا ريب أنه راؤول دشمان فقد ظهرت عليه بغتة مظاهر الثراء بعد أن شوهد برفقة رجل غريب عن البلدة هبطها قادماً من باريس !

ـ وأين دشمان هذا؟

ـ لقد فصل من عمله وسافر إلى باريس . . وعلمنا أنه أصيب في حادث تصادم فنقل إلى فندق «محلة الصيادين» في فونتنبلو .

ولم يتردّد إتيين في السفر إلى هذه البلدة .

قالت له صاحبة الفندق :

ـ هذا صحيح يا سيدي . . لقد نقل إلى هذا الفندق عقب إصابته . . ولكنه سافر اليوم إلى باريس غير أنه ذكر لنا أنه سيعود يوم الأحد مع الآنسة أماندا .

ـ ومن هي هذه الآنسة؟

ـ إنها صديقة كهل يدعى البارون أرنولد دي ريس .

وكان المصور قد عرف من تحرياته في جواني أن البارون هذا هو الذي أغرى دشمان بسرقة السجل فقال :

ـ إذاً فالبارون صديق دشمان !

ـ كلاّ . . فإن الآنسة أماندا لم تقابل دشمان إلاّ بعد رحيل البارون .

ـ أتعرفين عنوان هذا البارون؟

ـ نعم . . إنه مدوّن عندنا في السجل .

ولكن حين سافر إلى باريس وبحث عن هذا البارون في العنوان

الذي ذكر له لم يجد أحداً بهذا الاسم . . فعرف أنه عنوان كاذب دوّنه البارون في سجل الفندق تعمية وتضليلاً .

وقال المصور في نفسه :

ـ لا سبيل إلى جلاء هذا السر الغامض إلاّ إذا اجتمعت بدشمان وأماندا والبارون دي ريس . . ومما يؤسف له أنني لا أعرف عنوان أحد منهم .

ومضى إلى داره وقد اشتد به اليأس .

في اليوم التالي مضى المصور إلى زيارة ربيبه المحامي . . فقصّ عليه ما كان من لقاء جان فورتييه بالسيد بول هرمان في مكتبه وكيف حاول أن يقبض عليها لولا أن تصدى له جورج .

وقال المصور :

ـ هذا عجيب . . لا تعرض مسألة تتعلق بجان فورتييه إلاّ وجدنا لبول هرمان أصبعاً فيها ! فما شأنه؟ وما الذي يهيج فيه هذا الاهتمام الشاذ؟

ـ أترتاب فيه؟

ـ نعم . . لقد بت أعتقد أنه هو جاك جارود كما أنبأتك . . ولا ينقصني إلاّ الدليل الدامغ . . ولكني موقن من أن انتظاري لن يطول .

أمّا أوفيد فكان في خلال ذلك منهمكاً في تدبير مكيدته للقضاء على جان فورتييه .

وقد تعقبها كما ذكرنا وعرف الطرقات التي اعتادت أن تسلكها .

وفي اليوم التالي كوّم فوق سور أحد المنازل الخالية كومة كبيرة من الحجارة ووقف ينتظر مرور جان .

ورآها مقبلة على البعد فتهيأ للعمل .

حين صارت تحت البيت دفع كومة الأحجار فانهارت وسقطت فوقها وفوق غلام كان يسير أمامها .

وسقطت جان والغلام على الأرض وقد انبعثت الدماء من جراحهما .

أمّا الغلام فمات لساعته . . وأمّا جان فأصيبت برضوض وجراح خفيفة . .

ولكن أوفيد حين رآها طريحة على الأرض أيقن أنها ماتت وطار إلى صاحبه جاك يزف إليه البشرى .

في صباح يوم الأحد سافر المصور إتيين إلى فندق «محلة الصيادين» ولبث في انتظار قدوم دشمان وأماندا إذ كانت صاحبة الفندق قد أنبأته أنهما سيحضران في ذلك اليوم .

ولم يطل انتظاره إذ ما لبث الخادم أن جاءه يخطره بقدومهما .

وقدم إليهما المصور نفسه وقال :

ـ لقد جئت أباحثكما في شأن بول هرمان . . ألست أنت يا سيد دشمان الذي سرقت ورقة السجل وأعطيتها للبارون دي ريس؟

حاول دشمان أن ينكر في أول الأمر ولكن أماندا قالت له :

ـ وما الذي يدعوك إلى الإنكار؟ نعم . . هو الذي فعل ذلك . . لقد أغراه هذا الرجل بالمال . . ولكننا سننتقم .

وروت له أماندا قصة الأوراق المزورة . . وكيف أن البارون يحتفظ بها ليتخذها سلاحاً ضدهما . . وأنهما يسعيان الآن إلى استردادها .

وقالت مسترسلة :

ـ ومع ذلك فهو ينتحل لقب البارونية !

وروت له ما علمت من جرائمه وأنه يدعى أوفيد سوليفر . . وأنه

يعمل لحساب بول هرمان .

فقال المصور :

ـ هذا كله يؤيد شكوكي . . إنني أعتقد أن بول هرمان ينتحل هذا الاسم وأنه يدعى جاك جارود ! وما دمتما تسعيان إلى الانتقام من أوفيد لم لا نتكاتف جميعاً على الانتقام وإظهار الحقيقة وتبرئة تلك المسكينة جان فورتييه؟

وتم الاتفاق بين الثلاثة . . وراحوا يتدبّرون الخطة الحكيمة التي تنجح .

وقال المصور :

ـ الرأي عندي أن نبعث ببرقية إلى بول هرمان مذيلة بتوقيع أوفيد سوليفر نقول فيها :

«قابلني هذا المساء في منزلي» .

وفي خلال ذلك يكون دشمان كامناً بالقرب من منزل هرمان . . فإذا رآه خارجاً تعقبه . . وبهذه الطريقة يسهل علينا أن نكتشف مخبأ أوفيد ما دمتما قد بحثتما عنه طويلاً بلا جدوى .

ـ ١٦ ـ

حين عرف أوفيد سوليفر أن جان فورتييه لم تمت . . وأن الحجارة التي سقطت فوقها أصابتها بجراح خفيفة ما لبث أن شفيت منها بعد أيام قليلة . . . بعث برسالة إلى إدارة الشرطة يقول فيها إن بائعة الخبز ليزا بيرين ما هي إلاّ جان فورتييه . .

وحين كتب أوفيد الرسالة إلى رئيس الشرطة دخل إلى حانة وكتبها فيها ، وكانت تلك الحانة هي الحانة نفسها التي يجتمع فيها

الخبازون عادة وجان منهم . وكان جميع أولئك الخبازين يحبون جان ويحترمونها ، فلمّا علموا أنها سلمت من الخطر وشفيت من الجرح الذي أصابها أرادوا أن يحتفلوا بهذا الشفاء ويأدبوا مأدبة قرّروا أن يجمعوا نفقاتها منهم إكراماً لها .

وقد علم أوفيد ، وهو جالس بينهم يسمع حديثهم ، مقصدهم ، فاشترك معهم في إعداد هذه المأدبة ودفع خمسة فرنكات وهي القيمة المفروضة ، لأنه خطر له خاطر هائل يؤيّد خطّته الشائنة .

ذلك أنه خطر له أن يسقي جان من إكسير الحقيقة الذي كان عنده ، حتى إذا فاجأتها الشرطة ساعة الوليمة كان الشراب قد بلغ منها فاعترفت بحقيقة اسمها ولا يبقى سبيل لدفاع الخبازين عنها .

وكان موعد الوليمة في اليوم التالي ، فجاء أوفيد إلى تلك الحانة قبل الموعد بساعة ، وقد أحضر معه زجاجة الشراب ، وجلس في القاعة العمومية المشرفة على الشارع ولها باب من زجاج يرى منه المار في الشارع جميع الجالسين في تلك الحانة .

وقد اتفق في تلك الساعة أن السيدة أوغستين أرسلت أماندا بمهمة إلى إحدى زبائنها ، وقد مرَّت بذلك الشارع فرأت من خلال الزجاج وجه أوفيد ، فدخلت إلى تلك الحانة من باب غير باب القاعة العمومية ، وجلست في غرفة محاذية للمكان الذي كان فيه دون أن يراها ، على رجاء أن تقفو أثره حين خروجه .

وبينما هو جالس جاءته خادمة الحانة تسأله عمّا يشرب ، فهشَّ إليها ولاطفها وأطنب في مديح ليزا بيرين التي سيحتفلون بشفائها .

فَسُرَّت الخادمة بهذا المديح ووثقت من أن هذا الرجل يحترم بائعة

الخبز كما كان يحترمها الجميع .

وعند ذلك أخرج أوفيد من جيبه علبة تحتوي على قرطين من الفيروز وقال للخادمة :

ـ إني أعددت هذين القرطين هبة لليزا بيرين ، وسأقدمهما لها ساعة الاحتفال .

ثم أخرج علبة أخرى تحتوي على قرطين مماثلين أيضاً وقال :

ـ إنَّ هذين القرطين لك إذا ساعدتني فيما أريد .

فدهشت الخادمة لقوله وقالت له :

ـ وماذا تريد مني؟

ـ إني أعلم عن ليزا ما لا تعلمون ، فإنَّ لها صوتاً يفتن الجماد ، ولكنها امتنعت عن الغناء منذ عهد بعيد لنكبة أصابتها بمن تحب .

ولـمّا كانت هذه الوليمة معدّة لها وكان صوتها على ما وصفت لك فقد أردت أن أحتال على سماع صوتها الرخيم .

فذُهلت الخادمة وقالت :

ـ كيف تكون هذه الحيلة؟

ـ إنَّ لديَّ شراباً هندياً إذا شرب المرء منه بضع نقط نسي همومه واندفع في الغناء ، فإذا وافقتني على أن أسقيها جرعة من هذا الشراب بوضع نقط منه في كأسها أعطيتك هذين القرطين ، فإنَّ شوقي إلى صوتها شديد .

فأجابته قائلة :

ـ ذلك سهل ميسور ، ولكني أخاف أن يؤذيها ذلك الشراب .

ـ كيف يؤذيها وأنا أريد أن أسقيها إياه؟ وأي مأرب لي في إيذاء

هذه المسكينة؟ كل ما في الأمر أني أريد المباسطة والحيلة على سماع صوتها .

ـ ولكن كيف أسقيها هذا الشراب دون الحاضرين؟

ـ أعطيك زجاجة صغيرة فيها سائل تضعين منه ثلاث نقط في كأسها وهذا كل ما أطلبه إليك مقابل هذين القرطين .

فوافقته الخادمة على ذلك ، وأخذت منه القرطين والزجاجة ، ودخلت إلى الغرفة التي كانت فيها أماندا ، فأخذتها أماندا بيدها وسارت بها إلى غرفة أخرى بعيدة عن المكان الذي كان فيه أوفيد وقالت لها :

ـ لقد سمعت كل ما دار بينك وبين هذا الرجل الأثيم من الحديث ، فإنه أغواك على أن تسقي تلك المرأة المسكينة من ذلك الشراب ، وهو يريد لها الشرَّ والأذى ، فإني أعرف هذا الشراب كما أعرف مقاصد هذا الرجل .

ولا شك عندي بأنك لم توافقيه على مراده إلاّ وأنت واثقة من أنه يريد المزاح وأنه لا ضرر من هذا الشراب ، ولكن الأمر على عكس ما أوهمك .

فغضبت الخادمة لأنها كانت تحب جان كما كانت تحبها جميع طائفة الخبازين وقالت لها :

ـ سأعود إلى ذاك الأثيم فأرمي القرطين في وجهه وأكلّمه بما يستحق .

ـ بل احتفظي بالقرطين عندك وتظاهري بموافقته على ما أراد وانتقمي منه بشرابه نفسه .

ـ كيف ذلك؟

ـ ذلك أن تضعي تلك النقط من الشراب في كأسه بدلاً من أن تضعيها في كأس ليزا .

ـ وماذا يفعل هذا الشراب؟

ـ إنَّ مَن يشربه يبوح بكل أسراره ، فإذا شربه هذا الأثيم باح بذنوبه وعرف الحاضرون جميع آثامه ، وكل ذنب من ذنوبه يُجازى عنه بالشنق ، فإذا سقيته من هذا الشراب عرف الناس كل نواياه فإنه ألدّ عدوّ لليزا .

ـ إذاً فاعلمي يقيناً يا سيدتي أن ليزا لن تشرب من هذا الشراب . ولكن مَن يكون هذا الرجل؟ فإني أريد أن أخبر عنه صاحب الحانة .

ـ احذري أن تفعلي ، فإنه يطرده ولن نعلم شيئاً من نواياه .

ـ إذاً سأضع الشراب في كأسه وأكتم الأمر .

فأخرجت أماندا ورقتين قيمتهما مائتا فرنك ودفعتهما إليها ، ثم انصرفت عائدة إلى المشغل .

وعند ذلك جلس الجميع إلى المائدة ووضعوا جان في رأسها وأمامها طاقة الأزهار .

وفي هذه الأثناء دخل اثنان من رجال الشرطة ، وكان أوفيد جالساً بقرب جان ، فأيقن أنَّ هذين الشرطيين قادمان للقبض عليها ، ولكنهما لن يفعلا ذلك إلى أن يتمّ الحفل .

كان الجميع فرحين مستبشرين ما خلا أماندا التي كانت قد عادت من المشغل وجلست في تلك الغرفة التي كانت تراقب منها ما سيجري ، وهي تنتظر بفارغ الصبر أن تنتهي تلك الوليمة وأن يعمل الشراب عمله بأوفيد .

وفي الساعة الثالثة فرغوا من الطعام ، وقدَّمت الخادمة القهوة

للجميع ، وقد وضعت نقط الشراب في فنجان أوفيد وهو يحسب أنها وضعتها في فنجان جان .

حتى إذا فرغوا من شربها وقف أوفيد فامتدح جان التي يحتفلون بها وقدم لها القرطين هدية ، فصفّق الجميع استحساناً .

ووضع أوفيد يده على جبينه ، لأن الشراب كان قد بدأ يؤثر فيه ، وبدأ الحاضرون يندهشون لما رأوه منه ، فإنَّ عينيه قد احمرَّتا وباتتا كعيون السكارى ، فقال له صاحب الفندق : ماذا أصابك يا سيِّد لوبرين؟

فضحك أوفيد ضحكاً عالياً وقال :

ـ إني لا أدعى لوبرين أيها البلهاء كما أوهمتكم ، بل إني أدعى أوفيد سوليفر ، وأنا أعيش من ذلك الإيراد الذي عيّنه لي ابن خالي بول هرمان الغني الشهير .

فارتعشت جان حين سمعت هذا الاسم ، ودهش الجميع لما سمعوه ولما رأوه من أوفيد . . ومضى في حديثه فقال :

ـ إنكم تعرفون بول هرمان ، فهو صاحب معمل كورينوا الشهير ، وقد قلت لكم إنه ابن خالي .

ولكني كنت كاذباً ، فإن هذا الرجل ليس بقريبي وما هو من أهل الشرف ، بل إنه سارق حارق قاتل .

نعم فقد عرفته منذ واحد وعشرين عاماً ، إذ التقينا على باخرة مسافرة إلى نيويورك ، وكان هارباً من فرنسا لارتكابه تلك الجرائم الثلاث ، فتنكَّر باسم بول هرمان ابن خالي الذي كان قد توفي ، وقد كشفت سرَّه فبات أطوع لي من البنان منذ ذلك العهد إلى الآن . أمّا اسم هذا الرجل الحقيقي فهو جاك جارود .

فوقفت جان مذعورة وقبضت على يد أوفيد وقالت : جاك جارود؟ . . أهو جاك جارود المتنكر باسم بول هرمان؟

ـ نعم ، لقد قلت وأنا أعيد ما قلته ، فإن بول هرمان الحقيقي مات من عهد بعيد ، وهذا الرجل المتنكر باسمه يدعى جاك جارود ، وهو الذي قتل رئيسه جول لابرو منذ واحد وعشرين عاماً في معمله في ألفورتفيل ، وقد سقيته من الشراب الهندي فباح لي بجميع سرِّه ، كما سقيتك أنت يا ليزا بيرين وستبوحين بأسرارك .

فدهشت جان وقالت :

ـ ماذا يعني بما يقول؟

ـ فقالت لها الخادمة :

ـ إنَّ هذا الشراب الذي أعدَّه لك قد شربه هو دون أن يعلم .

ـ فلم ينتبه أوفيد لقول الخادمة وأتمّ حديثه مع جان فقال :

ـ إن هذا الشراب الذي سقيتك إياه سيطلق لسانك بأسرارك فتبوحين أمام جميع الحاضريون أنَّك لا تدعين ليزا بيرين بل جان فورتييه .

ـ فارتعبت جان رعباً عظيماً وقالت :

ـ اسكت .

ـ نعم أنت جان فورتييه ، التي حاولت أن أقتل ابنتها كما حاولت أن أسحق رأسك بالحجارة .

نعم أنت هي جان الهاربة من سجن كارسون .

فحار الجميع في أمرهم ، وجعلوا ينظرون إلى جان وإلى أوفيد ، أما جان فإنها وقفت وقالت :

ـ ويحٌ لك أيها الشقي ، فأنت أنقذتني وها أنت تحاول ضياعي !

نعم أيها الأصحاب ، فإني أدعى جان فورتييه المحكوم عليها والهاربة من السجن ، ولكني عوقبت بالجرائم التي ارتكبها جاك جارود ، وقد سمعتم الحقيقة من فم هذا الشقي ، ولكني ما هربت إلاّ لأبحث عن ولدي وابنتي التي حاول هذا السفّاك قتلها .

ويحٌ لك أيها الشقي ، إنك اعترفت أمام شهود عدول ، وستبرّئني المحكمة بإقرارك فلا يتلوّث ولداي بهذا العار .

وأنتم أيها الرفاق ، فقد عرفتم الآن مَن أنا ، وما لقيته من المصائب ، كما عرفتم حقيقة أمري ، فاحكموا عليَّ بما ترون .

فقام الجميع إلى جان وصافحوها ، أما أوفيد فإنه سقط على كرسي وقد أُصيب بتشنّجات عصبية شديدة .

وعند ذلك فرق الشرطيّان الناس عن جان ودنا أحدهما منها فقال لها :

ـ يا جان فورتييه الهاربة من السجن إني أقبض عليك باسم القانون .

فقال صاحب الحانة :

ـ بل يجب القبض على هذا اللص السفاك لا على هذه المرأة الفاضلة !

ـ واشتدّت حماسة الناس ، فحالوا بين الشرطيين وبين جان ، وهمس أحدهم في أذنها قائلاً :

ـ أسرعي بالفرار فإنها خير فرصة تغتنم .

فهربت جان ولم يستطع الشرطيان مقاومة الحاضرين ، ولبث أوفيد على حاله .

فقال أحد الشرطيين مخاطباً صاحب الحانة :

ـ لقد صدقت ، إذ يجب أن يعيد هذا الرجل أقواله أمام المحكمة .

وعند ذلك نقلا أوفيد إلى مركبة وسارا به إلى دائرة الشرطة .

ولـمّا تفرّق الناس دخلت الخادمة إلى الغرفة التي كانت فيها أماندا فلم تجدها فيها إذ كانت قد أسرعت إلى المصور لإخباره بما حدث .

ولكنها لم تجده في المنزل ، فعادت إلى منزلها وأقامت فيه تنتظر عودة راؤول . حتى إذا كانت الساعة الثامنة جاءتها رسالة من راؤول يقول لها فيها إنه وقف على أثر أوفيد ، وإنه قد لا يعود الليلة . فاطمأنت واتجهت إلى السرير كي تنام ولكنها لم تستطع الرقاد .

نُقل أوفيد إلى دائرة الشرطة ووضعوه في غرفة منعزلة ، فلمّا زال تأثير الشراب أعقبه النوم .

وعندما استيقظ في الصباح وجد نفسه نائماً على سرير من الخشب وبجانبه شرطي فدهش وقال :

ـ أين أنا؟

ـ إنك في السجن .

فذعر ذعراً عظيماً ووثب من السرير وقال :

ـ متى سجنت؟

ـ منذ الساعة الخامسة من مساء أمس ، وقد كنت فاقد الرشد .

فلم يذكر أوفيد شيئاً من ذلك ، وكان جسمه منهكاً فعاد إلى سريره ووضع يده على جبينه فتذكّر ما جرى بالأمس لفوره وقال في نفسه :

ـ لا شك أن الخادمة قد أخطأت فوضعت الشراب في كأسي بدلاً من أن تضعه في كأس جان .

ـ ويلاه لقد قُضي عليَّ قضاء مبرماً وجنيت على نفسي بيدي .

وبعد هنيهة دخل ثلاثة من رجال الشرطة وذهبوا به إلى قاضي التحقيق ، فبدأ القاضي سؤاله فقال له :

ـ ماذا تدعى؟

ـ بيار لوبرين؟

ـ فحدق القاضي به وقال :

ـ بل أنت كاذب .

فأجابه بلهجة وقحة قائلاً :

ـ إذا كنت تعرف اسمي أكثر مما أعرفه أنا فكيف تسألني عنه؟

ـ نعم أعرف اسمك فأنت تدعى أوڤيد سوليفر .

ـ إذا كان هذا الاسم يرضيك فقد رضيته لنفسي .

ـ لا تحاول أن تضلّلنا بكلام لا يجديك ، فإنك إذا لم تجبني على أسئلتي أجابني عنها بول هرمان .

ـ فارتعش أوڤيد وقال في نفسه :

ـ لا شك أني أكثرت الكلام في تلك الحانة .

ثم قال مخاطباً القاضي :

ـ أرى يا سيدي أنه يوجد سوء تفاهم بيننا ، فإنك تسألني كما يسألون المتهمين فما هي هذه التهمة؟

ـ ستعرفها قريباً ، فأجب الآن هل بول هرمان ابن خالك؟

ـ نعم .

ـ إنك تكذب أيضاً ، فقد قلت في حانة الخبازين إن بول هرمان مات ، وإن هذا الرجل الذي تدعي قرابته متنكر باسم قريبك الميت .

فأيقن أوڤيد أنه باح بكل مكنوناته وقال :

ـ إني كنت سكران حين تكلمت في تلك الحانة فلا أدري ما قلت .

ـ إذاً لقد كنت سكران أيضاً حين اتهمت ليزا بيرين بأنها تدعى جان فورتييه الهاربة من السجن؟

ـ من هي جان فإني لا أعرفها؟

ـ هي تلك المرأة التي حاولت قتلها بالحجارة كما حاولت قتل ابنتها بالمدية .

ـ مَن يجسر على اتهامي بهذه التهمة؟

ـ الذين اعترفت أمامهم ، فإن لسانك انطلق بذلك الشراب الذي أغويت الخادمة على أن تسقيه لتلك المرأة ، فسقتك إياه فبحت بكل أسرارك . والآن قل لنا أين تقيم؟

فضم أوفيد قبضتيه مغضباً وقال :

ـ لقد أسأت إلى نفسي في سبيل خدمة سواي وأخطأت خطأ لا أغتفره لنفسي .

فاعلم الآن أني أقيم في شارع كليشي نمرة ١٧ ، ولا تسألني غير ذلك فإني لن أجيب .

ـ إن بول هرمان الحقيقي قد مات وإنَّ المتنكر باسمه الآن يدعى جاك جارود أليس كذلك؟

فهز أوفيد كتفيه ولم يجب ، فأمر القاضي بإدخاله إلى السجن .

وفي المساء جاء رئيس الشرطة إلى قاضي التحقيق وقال له :

ـ هل تريد أن نداهم منزل أوفيد سوليفر؟

ـ ذلك لا بدَّ منه ، وسنذهب عند انتصاف الليل كي لا نلفت الأنظار فاستعد .

*

كان بول هرمان قد ذهب في تلك الليلة بناء على البرقية إلى منزل أوفيد سوليفر وراؤول في أثره ، فدهش إذ لم يجده في منزله ،

وصبر ساعة علّه يعود ثم انصرف .

وكان ذلك المنزل في جهة مقفرة ، فاغتنم راؤول هذه الفرصة وكسر باب المنزل ثم دخل إليه فوجد الصناديق معدّة لحملها إلى بوينس أيرس ، ورأى هناك درجاً استلفت نظره فكسره ووجد فيه كثيراً من الأوراق المالية فتركها فيه ، وبحث في محفظته فوجد فيها السندين اللّذين زوّرهما واعتراف أماندا بالسرقة وشهادة المستشفى المثبتة وفاة بول هرمان .

فأسرع ووضع هذه المحفظة في جيبه ، وقد فرح بها فرحاً لا يوصف ، وأركن إلى الفرار .

وبعد هنيهة أقبل قاضي التحقيق ورئيس الشرطة وبعض أعوانه فوجدوا الباب مكسوراً .

وبعد البحث وجدوا الأوراق المالية لا تزال في موضعها فعلموا أن كاسر الباب لا يريد السرقة ، وحسبوا أنه شريك لأوفيد في جرائمه ، وأنه جاء لسلب ما عنده من الأوراق التي تؤيد التهمة ، فحصروا شبهتهم ببول هرمان وضبطوا جميع ما كان موجوداً في المنزل وانصرفوا .

وبينا كانت أماندا جالسة في سريرها وهي شديدة الاضطراب دخل عليها راؤول وقال لها :

ـ هلمّي وأسرعي لنذهب إلى إتيين المصور فقد عثرت بالأوراق .

ـ أوراقنا؟

ـ نعم وأضيفي إليها الشهادة المؤيدة لوفاة بول هرمان فقد سرقتها من منزل أوفيد وهو لم يعد إليه إلى الآن .

ـ ذلك لأنهم قبضوا عليه . ثم حكت له بإيجاز وهي تلبس

ملابسها ما اتفق لأوفيد في تلك الحانة ، وسار الاثنان إلى منزل المصور .

كان المصور ينتظر عودة راؤول بفارغ الصبر وقد جلس إلى طاولة يكتب كتاباً إلى جورج دارييه .

وقد نادى حمالاً كي يرسل إليه معه ذلك الرسم الكبير الذي صنعه لأجله ووضعه في صندوق كبير وقاية له من الطوارئ .

وجاء الحمّال وحاول وضع الجواد الخشبي فوق الصندوق فقال له :

ـ دع هذا الجواد على الأرض ، فسأحمله بيدي .

فرفع الحمال الصندوق وقدر الاتفاق أن يقع ذلك الصندوق من يده على الجواد فانكسر وتبعثر ما في جوفه من الأوراق .

أسف المصور أسفاً شديداً ، لأنَّ جورج كان يحتفظ بهذا الجواد منذ حداثته لاعتقاده أنه هدية من أمه .

لم يكترث لتلك الأوراق ، فأرسل الصندوق مع الحمال ، وعاد إلى ذلك الكتاب الذي كان يكتبه إلى جورج ، وهو يتضمن تهنئته ببلوغه الخامسة والعشرين من عمره ، وأنه سيزوره في الساعة التاسعة لإخباره بأمر خطير بمناسبة بلوغه هذا السن .

وبعد أن أتم الكتاب وأرسله ، نظر إلى الأوراق التي خرجت من بطن الجواد وقال :

ـ ترى ما هذه الأوراق؟

ثم جعل يبحث فيها فرأى قطعاً مختلفة من الجرائد ، إلى أن عثر بورقة ارتجف لها واصفر وجهه ، إذ رأى عليها توقيع جاك جارود ، فقال في نفسه :

ـ ربّاه . . أيمكن أن يكون هذا الكتاب هو نفسه الذي كتبه إلى جان وحسبت أن النار التهمته؟

ثم أخذ تلك الورقة وقرأ فيها بصوت يتهدج ما يأتي :

«حبيبتي جان . . .

«لقد أخبرتك أمس بأني أعد لك ولولديك وسائل المستقبل والآن أخبرك بأني صنعت هذا المستقبل بطريقة سريعة ، فإني غداً سأكون من الأغنياء وسأظفر باختراع يكون لي منه أرباح عظيمة وبمائتي ألف فرنك لتنفيذ هذا الاختراع .

«تشجّعي يا جان ولا تخشي عاراً ، فإن ولديك سيكونان ولديّ ، وأنا أنتظرك في الساعة الحادية عشرة مساء عند جسر شارنتون فنهرب إلى الخارج ونصبح من الأغنياء .

«ولا تأسفي لفراق هذا المعمل الذي طردوك منه ، واحضري لتعيشي مَع من يحبك أفضل عيش ، فإذا لم تحضري دفعتني إلى اليأس ، ولكنك ستحضرين .

«أيلول سبتمبر سنة ١٨٦١»

«جاك جارود»

فصاح المصوّر صيحة انتصار وقال :

ـ هذا هو البرهان الجلي الذي نبحث عنه ، وستثبت به براءة جان لا محالة .

وعند ذلك قرع الباب ودخل دشمان فأخبره بالقبض على سوليفر وبسرقة الأوراق المثبتة وفاة بول هرمان وبأن والد ماري إنما يدعى جاك جارود .

كان اضطراب المصور عظيماً ، إذ لم يبق لديه مجال للشك ،

فنادى خادمه وقال له :

ـ اركب مركبة وأسرع بها إلى لوسيان لابرو في معمل كورينوا وقل له أن يأتي إليَّ في الحال لشأن خطير .

وبعد ساعة أقبل لوسيان وهو مضطرب فقال له :

ـ ماذا حدث؟

ـ لقد ظفرت بقاتل أبيك بفضل هذا الفتى الذي فضح أمره ، وأشار إلى راؤول .

ـ مَن هو؟

ـ سأخبرك قريباً ، والآن هلموا بنا جميعاً إلى منزل المحامي جورج داربيه .

كانت لوسي قد تماثلت إلى العافية ، وقد انتظرت جان في تلك الليلة التي كشف فيها أوفيد أمرها فلم تحضر ، ولذا لم تعرف الرقاد في تلك الليلة . وعند الفجر أرسلت من يسأل عنها في المخبز ، فعاد إليها بأخبار مهمة ملخصها أن ليزا بيرين متنكرة باسم آخر ، وأنها متهمة بأنها كانت في السجن وهربت منه ، وأنهم لا يعلمون أين هي الآن ويخشون أن تكون في السجن .

فكادت المنكودة تجن يأساً وقالت في نفسها :

ـ ربّاه . . كيف السبيل إلى مساعدة هذه المرأة الحنونة التي كانت لي بمثابة أم ، فلقد كان لي رجاء بلوسيان لأنه يحبها أيضاً فلم يبق لي غير جورج داربيه ، فإن ليزا أخبرتني أنه أشفق عليها .

وعند ذلك أسرعت إلى منزل جورج داربيه وأخبرته بما اتفق للأرمله ليزا بيرين ، فاضطرب جورج وقال :

ـ أهي تلك المرأة التي جاءتني بالملفّ المفقود؟

ـ نعم .

ـ وأنت تدعين الآنسة لوسي ، أليس كذلك؟

ـ نعم يا سيدي .

فظهرت دلائل الاشمئزاز على جورج ، إذ أيقن بأن بول هرمان قد وشى بليزا ، ثم نظر نظرة حنوّ إلى لوسي وقال لها :

ـ بقيت عليَّ مسألة يا سيدتي ، فهل أخبرتك تلك المرأة بحقيقة اسمها؟

ـ لقد أخبرتني بأنها تدعى ليزا بيرين .

ـ إنها كانت متنكرة بهذا الاسم ولا يمكن إيجادها الآن إلاّ في السجن .

ـ لقد أرعبتني يا سيدي ، فهل كانت مجرمة حقاً؟

ـ لا أعلم! ولكن ليزا بيرين حكم عليها منذ واحد وعشرين عاماً بالسجن المؤبد ثم هربت من السجن ، أمّا اسمها الحقيقي فهو جان فورتييه .

فصاحت لوسي صيحة يأس وقالت :

ـ رباه إنها أمي ، ولكن حكم عليها ظلماً وعدواناً ، وقد أخبرني لوسيان نفسه أنها عوقبت بذنب سواها .

ويلاه لقد عرفت الآن سبب حنوها عليَّ ، فإنها أمي! وما أصنع الآن بإثبات براءتها؟ رحماك يا سيدي ، إنك من مشاهير المحامين وقد عرفت بالمقدرة والشفقة فرد إليَّ أمي .

وعند ذلك فتح الباب فجأة ودخل منه لوسيان وإتيين ودشمان ، فدهش جورج لقدومهم معاً ، ودنا لوسيان من لوسي وضمها إلى صدره وقال :

ـ لقد حقّ لنا أن نأمل .

فقال جورج :

ـ لقد جاءت إليّ لتخبرني باختفاء ليزا .

فقال المصور بسكينة :

ـ لا بأس فسنجدها .

ـ فحاولت لوسي عند ذلك أن تخرج ، ولكن المصور اعترضها قائلاً :

ـ ابقي يا آنستي لتكوني شاهدة على ما سيكون .

ثم التفت إلى جورج وقال له بملء الحنو :

ـ لقد بلغت اليوم يا بنيَّ الخامسة والعشرين من عمرك ، وهو اليوم الذي يجب عليَّ فيه تنفيذ وصية ذلك الكاهن الجليل الذي ربّاك . فخذ هذا الكتاب واقرأه بصوت عالٍ ، وأنتما يا لوسي ويا لوسيان أصغيا .

ففضَّ جورج الغلاف وقرأ ما يأتي :

ـ أيها الابن الحبيب :

«في شهر أيلول/ سبتمبر سنة ١٨٦١ جاءت إليَّ امرأة تحمل طفلاً لا يتجاوز الثالثة من العمر ، وكان الجنود يطاردون هذه المرأة المنكودة لاتهامها بثلاثة جرائم وهي تدعى جان فورتييه» .

«على أن هذه المرأة أقسمت لي بربها وبولدها أنها بريئة ، وكانت الحقيقة تتمثل في عينيها وفي نبرات صوتها ، فوثقت من صدقها ولا أزال واثقاً إلى الآن» .

«ولكن ما حيلتي ! فإن جميع الأدلة كانت تؤيد التهمة عليها فحكم عليها بالسجن المؤبد» .

«على أني لا أزال معتقداً ببراءتها بالرغم من هذا الحكم، وعندي أنها لم تكن مجرمة بل كانت شهيدة خطإ القضاء. وما تمكّنت من نفعها إلاّ بتربيتي ولدها وتبنّيه باسم جورج داريبه».

فصاح الجميع صيحة اندهاش لما سمعوه، وقال جورج:

ـ أنا ابن جان فورتيبه وأخو لوسي؟

فأسرعت لوسي إلى معانقته وهي تقول: يا أخي!

فسالت دموع الحاضرين حنواً لهذا المشهد، وضمَّ جورج أخته إلى صدره وهو يقول:

ـ نعم إننا ولدا المحكوم عليها، وهي بريئة في عيوننا ولكنها متهمة في عيون الناس ولا سبيل إلى تبرئتها واأسفاه.

فأخذ إتيين بيده وقال له:

ـ كلاّ.. فإن براهين براءتها لديَّ، فخذ واقرأ.

ثم دفع إليه كتاب جاك جارود إلى جان، فلمّا قرأه جورج كاد يطير سروراً وقال:

ـ إنه خير برهان يثبت البراءة فأين وجدته؟

ـ وجدته في بطن جوادك الخشبي.

ـ نعم لقد ذكرت الآن أني بينما كنت في عهد حداثتي ألاعب هذا الجواد، وقد كان سقط مني وشق بطنه، فجعلت أحشوه بأوراق مختلفة، ثم رأيت أمي قد كوّرت بيدها ورقة وألقتها مغضبة إلى الأرض فأسرعت إلى التقاطها ووضعتها في بطن الجواد.

ولكن ما حيلتنا الآن في جاك جارود وهو من الأموات؟

ـ بل هو حي يرزق وهو يدعى بول هرمان.

ـ ما الذي يثبت ذلك؟

ـ لا بدَّ أن يكون لديك خط بول هرمان فقابل بينه وبين خط

الكتاب تظهر لك الحقيقة .

ففعل جورج ووجد الخطين متماثلين ، وكان ذعر لوسيان شديداً فقال :

ـ ويح لهذا السفاك ، إنه كان يعرف من أنا ويحاول أن يزوجني ابنته وهو قاتل أبي ، ثم إننا لا نستطيع إدانته لمضيّ المدة القانونية بعد ارتكاب الجريمة .

فقال إتيين :

ـ إنه إذا سلم من عقاب جرائم ألفوورتفيل فهو لن ينجو من عقاب محاولته قتل لوسي وجان .

فقال جورج :

ـ لنبحث الآن عن أمي ، فماذا جرى لها؟

فقال لوسيان :

ـ إننا سنجدها وستكون أمنا جميعاً .

ـ وماذا نصنع ببول هرمان؟

فقال إتيين :

ـ أتعمل بنصحي؟

ـ نعم .

ـ إذاً هلموا معي . وخرج الخمسة من منزل جورج ، فركبوا مركبتين ، وأوقف إتيين مركبته عند بائع تبغ فاشترى منه ورقتين عليهما تمغة الحكومة .

ـ ١٧ ـ

كانت جان بعد أن فرّت من تلك الحانة قد ذهبت هائمة على وجهها ، وقد أضاع الذعر رشدها ، فلم تزل تسير حتى وصلت إلى

مكان مقفر ، وهناك جلست على حجر فحملت رأسها بين يديها وجعلت تقول :

ـ رباه ! لقد قُضي الأمر وقُدّر لي أن أفارق ابنتي إلى الأبد .

ولكنّ جاك جارود لا يزال حياً كما قال أوفيد ، وهو متنكر باسم بول هرمان ، وهذا الرجل لا يمكن أن يكون كاذباً فإنه ما باح بمكنونات سره إلاّ بعد أن شرب ذلك الشراب . وهو قد قُبض عليه دون شك وسيعلمون أنهم حكموا عليّ خطأ ويقضون ببراءتي فأرى ابنتي وأبحث عن ولدي .

نعم إن جاك قد يكون عرف بالأمر وأركن إلى الفرار . وعند ذلك جعلت تبكي بكاءً أليماً .

ثم أُغمي عليها فلم تستفق من إغمائها إلاّ في الصباح ، وأخذت تسير هائمة كالحمامة تخشى سهم الصياد فلا تدري أين تستقر ، حتى وصلت إلى نهر السين ، وهناك خطر لها خاطر رهيب جعلت على أثره تتراوح بين حب الموت واستبقاء الحياة ، إلى أن تغلّب عليها حب ابنتها فرجعت عن الانتحار ورغبت في الحياة رغبة القانطين ، ذلك أنه خطر لها أن تذهب إلى جاك جارود .

يمّمت شطر باريس ، وهناك سألت عن منزل بول هرمان فاهتدت إليه وطرقت بابه وطلبت مقابلة صاحبه باسم أوفيد سوليفر ، فلم يجد جاك بداً من مقابلتها وقد شغل باله من قدوم هذه المرأة باسم شريكه ، فأذن بإدخالها إليه ، حتى إذا رآها تراجع إلى الوراء مذعوراً وهو يقول :

ـ أجاء يوم النشور والبعث من القبور .

أمّا جان فإنها مشت إليه متباطئة وقالت له بصوت أجش :

ـ لم يبقَ شك في أنك دبرت قـتلي بدليل ذعـرك الآن حين رأيتني في قيد الحياة .

فـرأى جاك أنه لا بدّ له من الثبات في هذا الموقف فتمـالك نفسه ، وقال :

ـ أأنت هنا أيتها الشقية ، ماذا جاء بك وماذا تريدين؟

ـ ويح لك أيها السفاك ، أتجسر أن تسألني عما أريد بعد أن علمتُ من أنت؟

فهزّ جاك كتفيه وقال :

ـ لا شك أنك مجنونة !

ـ لقد جننت سنين طويلة بسببك ، وقد شفيت بعد ذلك وأتيت أناقشك الحساب يا جاك جارود .

فتكلّف جاك الانذهال وقال :

ـ ما هذا الاسم؟

ـ هو اسمك .

ـ بل إني أُدعى بول هرمـان ! فـلا شك أنك مـجنونة يا ليـزا بيرين .

ـ وأنا لا أدعى بهـذا الاسم فـأنت تعلم يقـيناً أني أدعى جـان فورتييه ، وكفـاك كذباً فقد عرفتني عند المحامي جورج دارييه وعرفت أني تلك الشهيدة التي عوقبت بذنبك .

ـ اسكتي .

ـ كلاّ لن أسكت ، فإنهم يطاردونني ليعـيدوني إلى السجن ، ولكني أتيت إليك ولن أخـرج من هنا إلاّ وأنت مـعي إلى ذلك السجن ، وهناك لا بدَّ لك أن تعترف بأنك الجاني وأني البريئة .

فحاول جاك أن يجيبها ، ولكن ابنته دخلت في تلك اللحظة لاهثة وقالت :

ـ ماذا حدث؟

فأجابها أبوها قائلاً :

ـ عودي يا ابنتي إلى غرفتك ، فإن هذه المرأة مجنونة وهي تنذر وتتوعد .

ـ إذاً سأنادي الخدم فيطردوها . ثم دنت من جان فقالت لها :

ـ من أنت؟

ـ سلي أباكَ .

ـ ماذا تريدين؟

ـ أريد العدل وأريد أن يُقبض على هذا الرجل معي .

فقال لها أبوها :

ـ أترين يا ابنتي أنها مجنونة؟

وقالت جان :

ـ أرأيت يا سيدتي أنه لا يجسر أن يستغيث من جنوني .

فذهلت ماري وقالت :

ـ لماذا لا تقرع الجرس يا أبي؟

فقالت لها جان :

ـ ذلك لأنه خائف .

فحاولت ماري أن تقرع الجرس ولكنَّ أباها أسرع إلى اعتراضها وقال لها :

ـ كلاّ لا تفعلي .

ـ لماذا؟

فأجابتها جان قائلة :

ـ ذلك لأنه لا يريد أن يعلم الناس أن بول هرمان هو جاك جارود اللص السفاك .

فجمد الدم في عروق جاك وقال لها :

ـ اسكتي أيتها الشقية رحمة بابنتي على الأقل !

ـ أيها الشقي ! ألعلك رحمتني ورحمت ابنتي ! إنك سفكت دم جول لابرو وأحرقت معمله وسرقت ماله واختراعه ، ثم ألحقت بي تلك التهمة الهائلة ، فسجنت بها واحداً وعشرين عاماً بعيدة عن ولدي وابنتي؟

وقد تركتهما طفلين رضيعين ، ثم إنك تنكّرت باسم رجل غريب ، وعدت إلى هذه العاصمة بعد أن أثريت بالجرائم وجعلت تستخدم أموالك للإضرار بابنتي فسحقت قلبها وحاولت قتلها .

ولم يكفك ذلك حتى قطعت رزقها ، ثم تريد مني بعد ذلك أن أسكت؟

وكانت ماري تسمع هذه الأقوال وتنظر إلى أبيها فترى من اضطرابه ما يدل على صدقها ، حتى إذا أتمّت جان حكايتها وأظهرت حقيقة أمر هذا السفاك غطت ماري وجهها بيديها استحياء وقالت :

ـ رباه . . إن ذلك هائل فظيع .

وعند ذلك هاج جاك هياج المجانين وقال :

ـ أيتها الشقية ! إنك أتيت لتهدّديني في منزلي وستلقين فيه الموت الذريع . ثم انقض عليها يحاول خنقها .

وعند ذلك قرع الباب فتراجع مذعوراً ، ودخل الخادم فأنبأه بقدوم زائرين ، فدفع جان إلى غرفته وأقفل بابها ، ودخل إذذاك راؤول

دشمان وإتيين المصوّر ، فانحنى إتيين أمامه وقال له :

ـ أخشى يا سيدي أن نكون قد أزعجناك بهذه الزيارة على غير موعد ، فإني أرى وجهك مصفراً ويديك تضطربان ، فهل أنت مريض؟

ـ نعم ، إني مصاب بصداع أليم ، فأهلاً بك وبهذا الزائر الجديد .

فقال إتيين :

ـ إنه السيد راؤول دشمان . وسأخبرك يا سيدي عن السبب في هذه الزيارة فتفضل بالجلوس لنتحدّث .

فجلس جاك بإزائه وبدأ إتيين الحديث فقال :

ـ ألم تتخرّج يا سيدي في مدرسة الصنائع والفنون في شالون؟

ـ نعم .

ـ ألم تسافر بعد ذلك إلى سويسرا؟

ـ نعم .

ـ وقد أقمت فيها عامين؟

ـ نعم .

ـ أريد أن أسألك عن رجل هو اليوم في عداد الأموات كان يشتغل بصنعتكم وهو يدعى جاك جارود فهل عرفته؟

ـ جاك جارود؟

كلاّ . . إني لا أذكر أني عرفت رجلاً بهذا الاسم ، ولكني أذكر أني سمعت بهذا الاسم منذ عهد قريب ، إنَّ هذا الرجل كما قرأت في الصحف كان يشتغل في معمل جول لابرو ، وقد اشتهر بشهامته يوم احتراق هذا المعمل .

ـ هو ذاك يا سيدي ، فهل عرفت هذا الرجل؟

ـ كلاّ .

ـ هل أنت واثق مما تقول؟

ـ كل الثقة .

ـ وعندما سافرت إلى أميركا ألم تسمع بهذا الرجل؟

فزاد الشك في قلب جاك وقال :

ـ كيف أسمع به وهو ميت؟

ـ ذلك لأن كثيرين من الناس يعتقدون اليوم أنه لا يزال حياً ، وأنه خرج من ذلك المعمل المحترق بعد أن سرق اختراع صاحبه وما كان فيه من المال وبعد أن قتل صاحب ذلك المعمل أيضاً .

فابتسم جاك وقال :

ـ إنها خرافة قديمة ، فإن الذي قتل لابرو امرأة حكم عليها بالسجن المؤبد .

ـ ولكن هذه المرأة تدّعي أنها بريئة وأن لديها كتاباً من جاك جارود نفسه يثبت براءتها .

ـ إنّ ما يدلّك على فساد هذا الزعم أن هذا الكتاب لو كان موجوداً لأظهرته يوم المقاضاة؟

ـ بل ما أقوله لك هو الحقيقة بعينها فإن الكتاب موجود .

فلم يسع جاك إلاّ الاضطراب بالرغم عن سيطرته على نفسه ، وقال :

ـ كيف وُجد هذا الكتاب وأين؟

ـ وُجد في بطن جواد خشبي .

ـ إنّ ما تقصّه عليّ يشبه الروايات الموضوعة ، فاسمح لي أن لا أصدقك .

ـ إذاً ، فانظر هذا هو الكتاب .

ثمَّ قال له :

ـ أتسمح لي أن أقرأه أمامك؟

ـ وما يهمني من كل ذلك؟

ـ سوف تعلم .

ثُمَّ وضع على المائدة ورقتين عليهما تمغة الحكومة ، ونظر إليهما جاك فقال :

ـ ما هذا؟

ـ كما ترى .

ـ نعم ، ولكني لا أفهم؟

ـ سوف تفهم لأننا سنبحث في شؤون مالية ، وأنت من الماهرين في الحساب يا سيدي ، فكم تبلغ فائدة مائتي ألف فرنك في مدة واحد وعشرين عاماً؟

ـ إنها تبلغ ثلاثة أضعاف الأصل .

ـ إذاً فأنت مدين بستمائة ألف فرنك للوسيان لابرو وهو المبلغ الذي سرقته من أبيه سنة ١٨٦١ .

ـ إني أُدعى بول هرمان ، وإنك تهينني؟

ـ بل إنك تدعى جاك جارود ، وإنك لص سفّاك هذه هي شهادة المستشفى التي تثبت وفاة بول هرمان ، وستناقشك المحكمة الحساب عن ذلك .

أمّا الآن فيجب أن تدفع ستمائة ألف فرنك .

فهاج جاك كالمجانين وقال :

ـ لا مجال لديّ للدفاع عن نفسي ، ويلاه لقد سقطت إلى

الحضيض وسقطت معي ابنتي البريئة .

ـ ذلك منوط بك ، فادفع المال في البدء وسوف نرى .

فدبّ الرجاء في قلب جاك وقال :

ـ ليس لي مال هنا .

ـ بل إنك قبضت اليوم أكثر من هذا المبلغ لتعطيه إلى ذلك الأثيم أوفيد سوليفر .

فلم يجد جاك سبيلاً للمقاومة ، وأخرج من درج مكتبه ورقاً مالياً بهذه القيمة ودفعها إلى إتيين .

فأخذها المصوّر وقال له :

ـ لقد بقي عليك أن تكتب على هذه الورقة ذات التمغة ما أمليه عليك .

فامتثل جاك مكرهاً ، وأملى عليه المصور ما يأتي :

ـ أنا الموقّع أدناه ، جاك جارود ، أعترف بحضور إتيين كاستل ، وراؤول دشمان . .

ثم توقّف عن الكتابة قائلاً :

ـ ولكنك تسألني أن أقرَّ بجريمتي وأعترف بذنوبي ، وذلك يثلم شرف ابنتي فلن أفعل .

فمشت ماري إليه مشياً بطيئاً ، وقد أوهنتها هذه الحادثة فبانت شبه النائم نوماً مغنطيسياً وقالت :

ـ بل اكتب يا أبي؟

فركع أبوها أمامها وسالت الدموع من عينيه وقال :

ـ إنهم يريدون ثلم شرفك يا ابنتي !

وعاد المصور إلى الإملاء فكتب جاك ما يأتي :

ـ أعترف أني في أيلول/ سبتمبر سنة ١٨٦١ كتبت إلى جان

فورتييه هذا الكتاب الموقع باسمي والموجود في طيه .

«وأعترف أيضاً أني سرقت في تلك الليلة مائتي ألف فرنك من صندوق جول لابرو وسرقت اختراعه وقتلته وحرقت معمله .

«وأعترف أني أغريت أوڤيد سوليفر بقتل لوسي فورتييه وأمها جان فورتييه الشهيرة باسم ليزا بيرين بائعة الخبز .

وعند ذلك سقط القلم من يد جاك التي كانت ترتجف .

فُتح الباب فجأة فدخلت جان فورتييه من الغرفة التي كان حبسها فيها ، وقد وضعت يدها على عنقها وقالت :

ـ ليعترف أيضاً أنه حاول خنقي منذ هنيهة أمام ابنته .

فذعر جاك ودهش إتيين ، ودنت ماري من أبيها وقالت له :

ـ اكتب يا أبي . فكتب ما أرادته جان ، وتم بذلك الاعتراف ، فأمره إتيين أن يوقّع على اعترافه .

حتى إذا امتثل أخذت ماري منه تلك الورقة فدفعتها إلى جان وقالت لها :

ـ هذا هو برهان براءتك يا سيدتي .

ثم التفتت إلى أبيها وقالت :

ـ ليغفر الله لك يا أبي ، أما أنا فإني سأموت لحسن الحظ .

ـ ثم خرجت من تلك الغرفة التي ساد الصمت فيها ، ولم يُسمع غير تنفّس جاك الذي كان يخرج من صدره كالزئير .

*

وإنهم في هذا الموقف إذ جاء لوسيان وخطيبته لوسي والمحامي جورج داربيه وقاضي التحقيق ورئيس الشرطة وبعض الجنود يقودون أوڤيد سوليفر .

فانطرحت لوسي بين ذراعيّ أمها وهي لا تصدق أنها تراها ، ودنا رئيس الشرطة فوضع يده على كتف جاك وقال له :

ـ إني أقبض عليك باسم القانون .

ثم التفت إلى جان وقال لها :

ـ أمّا أنت يا سيدتي فقد أُذن لي بإطلاق سراحك وستظهر براءتك التامة في أقرب وقت بعد أن ظهرت لنا أدلتها .

ثم أخذ من إتيين ذلك الكتاب الذي كتبه جاك إلى جان .

وهنا عرفت جان أنَّ جورج ولدها ، فكان موقفاً مؤثّراً ، أسال الدموع من العيون .

وبعد هنيهة ساروا بأوفيد وجاك إلى السجن ، وقد مروا بالقاعة العمومية فوجدوا ماري ميتة على مقعد وقد حملت بيدها ورقة مفتوحة كتبت فيها ما يأتي :

«إلى لوسي فورتييه . . .

«لقد أسأت إليك كثيراً . ولكنّني أحببته جداً وقد انتقم الله لك خير انتقام فصلّي لأجلي واغفري لي» .

«ماري»

بعد ذلك بثلاثة أشهر حُكم على جاك وأوفيد سوليفر بالأشغال الشاقة .

غير أن جاك لم يتحمّل هذا السجن فوجد وسيلة للانتحار فانتحر .

ولّما تمّت براءة جان عقد زواج لوسيان على لوسي وعاشا أهنأ عيش مع جورج أخيها وأمها جان ، ولقيت تلك الأم المنكودة من الهناء مع ولديها ما أنساها مرارة تلك السنين الغابرة .

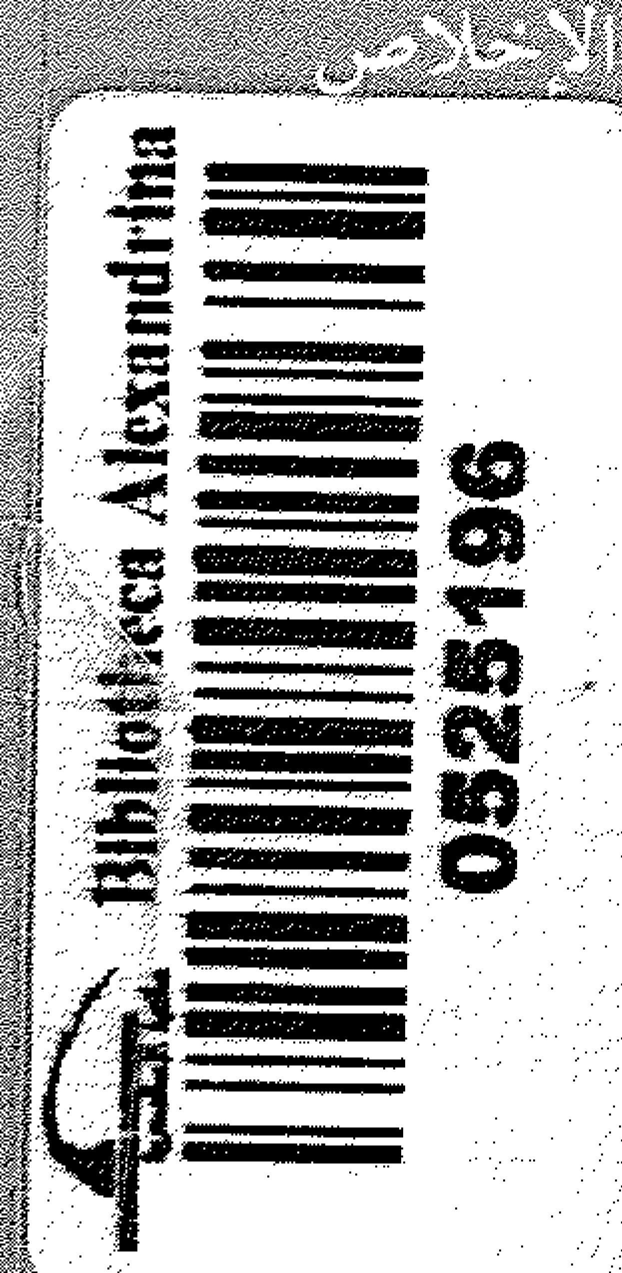
ت:2966 تاريخ استلام :2/4/2006



تجري أحداث الرواية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي برزت فيها الروايات الشعبية التي كانت تنشر على حلقات بهدف جذب أكبر عدد من قرّاء الصحيفة التي كانت تلحقها في ذيل كل عدد من أعدادها. وكانت «بائعة الخبز» الرواية الأكثر رواجاً من بين الروايات المعاصرة، بحيث عرفت طريقها بعد إقبال القرّاء عليها إلى المسرح والسينما والتلفزيون.

شخصيات الرواية كما رسمها دو مونتبانِ تتنازعها عواطف شتّى، هي عواطف إنسانية تنبض بالمشاعر والأحاسيس تستحضر الماضي سعياً وراء كشف الحقيقة التي تبقى غاية الإنسان.

إنها حالة من المشاعر المتداخلة تتأرجح بين الموت والحياة، الإخلاص والإنتقام، الحب والكراهية، واليأس والأمل، وهي تلك الم
راجت في روايات القرن التاسع عشر، والتي حفلت بها ص
الحقبة من الزمان.




ISBN 995344933-3
9789953449333


دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع